مجنون الحُكم

سالم حميش

رواية

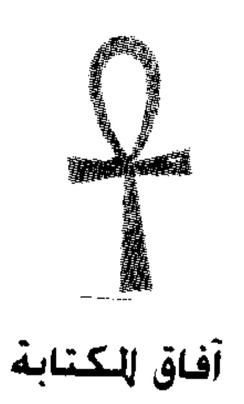


18



الهيئة العامة لقصور الثقافة
GENERAL ORGANIZATION for
CULTURE CENTERS

آفاق الكتابة



آفاق الكتابة

مجنون الحكم

رواية



آفاق الكتابة

آفاق الكتابة
(18)

مجنون الحكم

رواية

سالم حميش

الهيئة العامة لقصور الثقافة

القاهرة 1998

أرضية الغلاف
للفنانة : ميسون صقر
لوحة الغلاف :
للفنان : جون فونزيه -
رهينة - 1945

مقدمة خوان غويتصولو للطبعة الأسبانية من "مجنون الحكم"

* إن الرواية المكتوبة بالعربية قد دخلت - فى تقديرى - طور البحث عن أشكال جديدة. ففى حين أن الرواية الفرنسية أو الايطالية - ونقصر التمثيل عليهما تجنبا لإثارة حساسيات أكثر قربا - تعرف نوعا من التراجع البطىء بفعل فقدانها للشهية ومعارضتها للجدة، فإن الرواية المكتوبة من طرف جيراننا فى الضفة الأخرى، تتخلص شيئا فشيئا من محاكاتها للنماذج الأوربية، وتتمثل حتى من دون أن تعرفها كلمات چاودى النيرة النبوئية: «إن الأصالة تكمن فى «العودة الى الأصل». وعلى غرار بعض كبار كُتّاب القرن العشرين من جويس إلى أرنو شميث، الذين ترتبط كتاباتهم قصديا بشفوية نصوص العهد الوسيط الأدبية و«نموها الوراثى»، فإن جيلا من الكُتّاب فى العالم العربى يكتشفون حداثة مفقودة فى الحوليات التاريخية وأدب الرحلات وفى قطيعات وتحولات الزمان والمكان المدوخة عند ابن عربى وأقطاب صوفيين آخرين. وكما سبق لى أن كتبت فى مناسبة أخرى: «إن للحداثة قوانين تجهلها الكرونولوجيا».

«مجنون الحكم» للكاتب المغربى بنسالم حميش، تشكل الدليل

الساطع على هذه «المعاصرة اللازمنية». إن هذه الرواية كـ «الزينى بركات» أو تحف فوينتس ورووا باسطوس، بعيدة حقا عن أن تكون رواية تاريخية عادية، ولو أنها منبنية علي شخصية تاريخية هو أبو على منصور (ولقبه الحاكم بأمر الله)، أحد خلفاء الدولة الفاطمية التى حكمت مصر من سنة 973 الي 1171م، ويرجع اليها عمل تشييد القاهرة الفاتنة، المخترقة حتى هذا العهد بزقاق المعز لدين الله، المتآكلة المنهدمة البيئسة الجميلة.

إن رواية حميش قائمة علي اللاخطية المجانبة للتطور الدرامى، الميسرة لعملية تشكيل وتفكيك الشخصية المركزية. الحكى عنده يبحر بضربات مجدافية ويستبطن تناقضات المستبد (الحاكم) حتي يحولها الي محور أو قطب رحى انسجاميته الداخلية وهى انسجامية بين نص ممفصل وشخصية متقلبة، يعرف المترجمون صاحبها: «وكان جوادا سمحا، خبيثاً ماكراً»، يتأرجح دوما «بين شجاعة وإقدام، وجبن وإحجام، ومحبة للعلم وانتقام من العلماء، وميل الي الصلاح وقتل الصلحاء».

وكما يشير بحق صاحب هذه الترجمة الممتازة الى الإسبانية فدريكو أربوس: «فإن الروائى حميش فى شواهده المدخلية كما فى مقاطع المؤرخين طى النص يُعمل انتقاء بالغ الدقة للمصادر الإخبارية العربية، من مصنفات القرن الحادى عشر الى التواريخ

العامة والإقليمية فى القرن الخامس عشر ميلادى»، وهذا التنوع فى وجهات النظر المتناقضة يخدم خطاطة حميش فى خلق نص ممزوج، مكون من مقاطع وألوان، ومن أشكال وأحجام مختلفة: فالحاكم (على هذا النحو) يُنظر إليه جوانيا وبرانيا، من طرف مفسرين مطاويع أو صارمين، خاضعين حتى المهانة أو معارضين حتي الإفراط.

إن فصل الرواية الأول يختصر ويكسر السرد بواسطة مقاطع متواترة، فكل فقرة تحويل لسابقتها أو انتقال بها من حدود ما الى انصهار فى غيرها، وفى هذا التعاقب لسرديات متعارضة، مَن يلزم أن نثق به؟ هل بالإخبارى الخاضع المتزلف؟ أم بالداعية المتهافت؟ أم بالضحية البريئة لحكم النزوات والخروقات؟

إننا نعلم منذ سرفنتيس أن الرواية هى مملكة الشك: فادعاءات تاريخ قائم عادة علي حكايات وأفعال خرافية (مصطنعة) تعارضها الرواية بحقيقة الخيال الخلاق وأمانة العمل المتعرى من الأقنعة ومن مهازل كل أسطورة مرفوعة الى سدة الحقيقة الدوغمائية المتفشية. فالحاكم هو واحد ونقيضه، وهو التيولوجى المتواضع والكائن المؤلَّه، وهو البانى المشيد ومضرم النيران. إن ثناياه وطوياته مطابقة لكمدة صخرة محللة من طرف خبير جيولوجى، فأى حكم أخلاقى يمكننا إصداره على بنية بركانية صارت شظايا تحت ضربات المطرقة؟

لقد كُتب التاريخ على أيدى الغالبين الذين كان همهم الأول

إسكات صوت المغلوبين، وبالتالى، ما كان موضع تمجيد سيؤول ذات يوم الي رماد بفضل تعقّب المخطوطات أو بفعل اتلافها بالنار. إن تزييفات المتحكمين وإقحاماتهم تصير مؤقتا، وأحياناً علي الدوام، حقائق راسخة صلبة. والروائى يعرف هذا، فيجعل فى فم مؤرخ وجد بالفعل، هو المختار المسبحى، كلاما ملتبسا فى الدفاع عن حكايات منحولة تتقصد إدهاش المؤرخين «الميثولوجيين» اللاحقين، الذين حفلت بهم إسبانيا كما الشأن فى العالم العربى: «لكن يا مولاى، هذا النص المنظوم بالشعر والخيال، سيتحول بالتدريج الي وثيقة صحيحة يكرر نسخها حتى أقرب المؤرخين الي قيام الساعة، وأنا أراها من الأهمية والنفاسة، بحيث يحسن روايتها كما تروى كل الوثائق التى بدأت خيالا، ثم صارت تاريخاً» (ص 215 فى الأصل).

إن «مجنون الحكم» هى إذن، دفاع تنويهى عن حقيقة الخيال ضد ثغرات وافتراءات وبياضات مصنفات التاريخ المسخرة من طرف أقطاب الدوغمائية الرسمية ومحررى برامجهم الثقافية. وفى فصول الرواية تتناوب الإخبارية والباروديا عبر سرود تخييلية، ولكنها متأصلة فى التراث الأدبى والشعبى العربى: فحكاية العبد مسعود، الزاخرة بالهزل، كأنما هى مستقاة من «ألف ليلة وليلة»، كما أن سخرية رقيقة تفوح من مجالس الحاكم فى «دهن البنفسج» أو «لطلب الدهشة» أو «الإلهيات بين الدعاة».

أما الفصل المخصص لمغامرة أبى ركوة العسكرية وهزيمته فيها، فإنه يكسر بنحو ما توازن الخط التعالقى للحكى، إلا أن انتقام الحاكم الدموى من بطاقات المصريين فى التنكيت عليه والتشهير به، وكذلك الصفحات المتعلقة بمقتله وبمحاولات التسميم والمؤامرات البلاطية التي دبرتها الأميرة ست الملك، أخت الحاكم، كل ذلك يتيح للكاتب معاودة الكرة وإكمال إبحاره المثير الذكى.

تماشيا مع رغبة الحاكم فى إحدى لحظات صفوه ونقده الذاتى النادرة، نسجل أن رواية «مجنون الحكم» تأخذ على عاتقها الصدع بما يتناساه المؤرخ ويسكت عنه، أى الصرخات المضمرة والتمزقات المستترية والحقائق الحية.

مدخل الدخان

«وكان الحاكم بأمر الله سيىء الاعتقاد، كثير التنقل من حال إلى حال... وكان مؤاخذاً بيسير الذنب، حاداً، لا يملك نفسه عند الغضب، فأفنى أمماً وأجيالاً وأقام هيبة عظيمة وناموساً».

الوزير جمال الدين، أخبار الدول المنقطعة.

«وكانت خلافته متضادة بين شجاعة وإقدام، وجبن وإحجام، ومحبة للعلم وانتقام من العلماء، وميل إلى الصلاح وقتل الصلحاء، وكان الغالب عليه السخاء، وربما بخل بما لم يبخل به أحد قط».

سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان.

«وكان جواداً سمحاً، خبيثاً ماكراً، رديء الاعتقاد، سفاكاً للدماء، قتل عدداً كبيراً من كبراء دولته صبراً».

الحافظ الذهبي، تاريخ الإسلام.

«وكان رديء السيرة، فاسد العقيدة، مضطرباً في جميع أموره، يأمر بالشيء ويبالغ فيه، ثم يرجع عنه ويبالغ في نقضه».

المكين ابن العميد، تاريخ المسلمين.

«وكانت سيرته من أعجب السير. وخطب له على منابر مصر والشام وإفريقية والحجاز. وكان يشتغل بعلوم الأوائل وينظر في النجوم، وعمل رصداً واتخذ بيتاً في المقطم ينقطع فيه عن الناس لذلك. ويقال إنه كان يعتريه جفاف في دماغه، فلذلك كثر تناقضه، وما أحسن ما قال فيه بعضهم: كانت أفعاله لا تُعلل، وأحلام وساوسه لا تؤوّل».

المقريزي، الخطط.

I
هو

أبو علي منصور (الملقب بالحاكم بأمر الله) ابن العزيز بالله نزار إبن المعز بالله معد (فاتح مصر وباني القاهرة والأزهر) ابن المنصور بالله إسماعيل ابن القائم بأمر الله محمد إبن المهدي عبيد الله (مؤسس دولة الفواطم في أدنى المغرب)...

هو:

«العبيدي الفاطمي، المغربي الأصل، المصري المولد والدار والمنشأ، الثالث من خلفاء مصر من بني عبيد والسادس منهم ممن وليَ من أجداده بالمغرب (...).

مولدُه يوم الخميس لأربع ليالٍ بَقِين من شهر الأوّل سنة خمس وسبعين وثلثمائة بالقاهرة؛ وقيل: في الثالث والعشرين منه. وولّاه أبوه العزيز عَهْدَ الخلافة في شعبان سنة ثلاث وثمانين وثلثمائة، وبويع بالخلافة يوم مات أبوه يوم الثلاثاء لليلتين بقيتا من شهر رمضان سنة ستّ وثمانين وثلثمائة؛ فوَلِيَ الخلافةَ وله إحدى عشرة سنة ونصف، وقيل: عشر سنين ونصف وستّة أيام، وقيل غير ذلك»[1].

هو:

من أجمع المؤرخون على أن خلافته كانت «متضادة»، وسيرته عجيبة، وأفعاله مظلمة «تشيب لها النواصي» وتتحير في

فهمها وتعليلها عقول الناس من عامة وأكابر.

هو:

من قال النفسيون بإصابته في أثناء شبابه بضرب من المالنخوليا أو جفاف الدماغ وفساد المزاج، مما حمله على الاسراف في القتل وسفك الدماء بشتى أنواع السلاح وبالاحراق. وقال فيه المنجمون أقوالاً كثيرة وأجمعوا على رد طبعه الدموي إلى كونه كان يخدم زحل وطالعه المريخ، فيتقرب إليهما بذبح الآدميين وإزهاق أرواحهم.

هو:

من الهه دعاته، وقالوا بنزول الآية العاشرة من سورة الدخانِ متنبئة بظهوره، وساروا، مأذونين ومكالبين، في سبل جذب النفوس إليه، وعقد العهود والمواثيق على الايمان بمطلق عصمته وحلول اللاهوت في ناسوته. وظلوا بين التخفي والتجلي ينظمون المجالس والأسلاك، ويضعون الرسائل والوثائق، حتى اختلفوا في توقيت إظهار الدعوة الفاطمية الجديدة وإعلان نقض الشرائع، فتهاكلوا وتفاسقوا، فخفّت ريحهم داخل مصر بعد مقتل الحاكم بإيعاز من أخته ست الملك - في السنة الحادية عشرة من القرن الخامس. ولم ينج بالدعوة إلى بوادي جبال الشام - حسب ما يذكره قزأوغلي وغيره من المؤرخين - إلا نوشتكين التركي، وهو محمد بن إسماعيل الدرزي الذي تمكن هناك من بث مذهبه وتحويله إلى ديانة ما زالت إلى عهدنا هذا تقوم باسمه وتحمل بصماته.

*

في فترة ما قبل ظهور الدعوة الجديدة إلى صريح العبارة والتداول، وطيلة العقد الثاني من ربع قرن الحاكم، كان

الدعاة، على اختلاف مطامحهم ورؤاهم، يقتفون أثر إمامهم أيام خلواته وسياحاته الليلية، لا شغل لهم ولا هم إلا نسخ ما يجهر به من «جليل الكلام» وبليغه ودقيق الالهام وخطيره، ثم تهييء ما يلتقطونه تحت عناوين عامة يتمايزون في وضعها، ومنها: الخطرات القهرية والشذور الشعشعانية والنفحات الشطحية، وغيرها. وكانوا لهذا القصد كالكائنات الروحانية يرافقون الحاكم سراً ومن غير علمه، سواء حل بجبل المقطم أو بإسطبل الطارمة أو بصحراء الهرم، وغيرها من أماكن اعتصامه وتهجداته. وكانت الساعات الطوال تمضي متباطئة وهم منصرفون إلى تجسسهم، أجسادهم لازقة بالصخر والحيطان، وعيونهم وآذانهم على الثقب والطيقان، لا تثنيهم عنه ألسنة القيظ أو البرد الشرسة، ولا أشباح الظلمات الدامسة.

وكان الدعاة في بداية عهدهم يجتمعون دورياً لينظروا في ما حصدوه من خطرات أمامهم ويقارنوا بطائقهم ويتعاونوا على تنقيحها وملء بياضاتها، ثم يصوغونها في نص متكامل يحظى برضاهم، ويلهب ألبابهم وجوارحهم، فيلحقونه بنصوصهم السرية، التي يعملون فيها التأويل إعمالاً باطنياً جارفاً كثيفاً، ولا يطلعون عليها إلا الخواص الأوفياء والمنجذبين إلى سلك «العقلاء». ومن بين هذه النصوص ـ وقد دثر معظمها وضاع ـ عُثر على نص أتى تفاريق، وأكد الدعاة أنهم التقطوه من فم الحاكم، ولا دخل لهم فيه إلا من حيث الترتيب ووضع العناوين، ومما ورد فيه:

II

أنا الدخان المبين

التاريخ سيعقلني

باسم الحكم بأمر الله ولغة الضاد، ميّال أنا إلى الأقصى وصراع الأضداد.من فهمني أدرك أن عهدي لا بد وأن يكون مشهوداً، وإلا فهو والخردلة على حد سواء. وقد آثرت بما أوتيتُ من جوارحَ وملكاتٍ أن يكون مشهوداً، أي مفتوناً بالطوارىء وعظيم النزوعات، حتى إذا ما انقضى خلّفَ وراءه شظايا العزم والبراكين المشتعلة.

التاريخ لا يفتح آذانه ودواوينهُ إلا لخطير الأخبار والحالات، التي لها القدرةُ على خبطِه وهتكِ أبعاده.

التاريخ لا يذكر إلا من طبعه وقوّم اعوجاجه باعوجاج مضاد. إنه فاسد الطبع، يهوى من يكسرُ ثقالته وتقاليدهُ ويقضُ مضاجعه.

لذا أعدكم أن التاريخ سيعقلني!

وقفة لو

لو نطقتُ بغير ما ينطق به الليل العربي والمصير، لكنتُ مثل ذلك الحكيم المدجج بالأمثال، والذي قال: شتان ما بين الحرف

والـدهرِ! فليسقط الـدهرُ وليبـرزِ الحرفُ، وهيهـاتَ ثم هيهاتَ هيهات!

عن انهزام السلام

هذه الطبيعة التي تحتوينا، أمنا جميعاً، لكأني بها سـاحرة متعهرة عجوز، تطلق الأهازيج المأتمية، وتوزع أرمدة النهايات في أوعية بلورية الشكل تضيء وتميت. ولكأني بها ترسم منحدر الخفقةِ والتنهيدة نحـو السكون، ومنحـدرَ العناصر كلهـا نحو الزوال والتآكل.

ولكُم في خضم النازلات والوقائع أن تكـدّوا في التقاط أنبـاء الحب والمسرة والأمان، فإن أفلحتم، كـانت أنباء كـالتراويـح، هي والنوافل على حد سواء.

أفما رأيتم أن الجوهـر الأساس لا ينبيء إلا عن الكـوارث الطبيعية والحمامات الدموية والهدوء المشوب بالحذر!

أفمـا اقتنعتم أن السلم في التاريـخ لا يحكي إلا هـزائمـه وانسحاق الورد والحمام!

إياكم والبياض

المحبة والإخاء من صفات أهل الجنة.

والجنة موعودة وليست من هذه الدنيا الدنية.

أما الدنيا فقائمة على العداوة والصراع من أجل البقاء.

وتلك كانت آيةَ البدء المتناسخة في العودة والاسترسال.

لا بد لكم، وحق فاطمة الزهراء، من أعداء ولا بد لأعدائكم منكم.

أعداؤكم مقياس قوتكم، فواجهوهم إن ظهروا، وابحثوا عنهم وفتشوا إن غابوا وتستروا.

وعليَّ سجلوا هذا القول: الحكم الجاري مجرى سنن الحياة، هو إما أن تغلب الأمةُ أعداءها، وإما أن تُغْلَبَ هي وتُقهر.

فإياكم ثم إياكم أن تنخدعوا بالبياض، أو أن تميلوا إلى خمول السلم والحياد. وإن فعلتم هَلكتم.

اعلموا وتيقنوا: أن للحرب وجوهاً ومواطن عدة، تحضر كلها أو تتناوب. وهي قائمة بالسيف أو بالقلم أو حول السلع والقيم.

واعلموا وتيقنوا: أن كل سلم هدنة بين حربين، وأن كل هدنة فرصة لتجديد أنفاس العزيمة وقوى التجهيز والسحق.

وإني أنا الحاكم بأمر الله قد قررت لأمة فاطمة أن يكون نصرها نصراً حاسماً لا شك فيه ولا رجعة، نحقق فيه بالفعل والإنجاز ما قاله الشاعر:

فلما علونا واستوينا عليهم ... تركناهمُ صرعى لنسر وكاسرِ

من طبيعة السياسة الاستبداد

سيقول المؤرخون الوعاظ وأكلوا لحم الميت: إني، أنا الحاكم بأمر الله، كنتُ أرهق العباد حيرةً وطغياناً، وكنت سفاكاً للدماء، وكنت المحنة الكبرى والبلاء.

ولو عرف هؤلاء المتقولون كنه التاريخ بما هو تاريخ، تصنعه سلطات السيف وأحجام الشدائد والآلام، لأدركوني

وأدركوا أن من طبيعة السياسة الاستبداد، ومن صفات الاستبداد التوجس والحذر، وإعمال العنف الوقائي. ونِعم القولُ قولُ حكيم:

ومن لم يذد عن حوضهِ بسلاحهِ يشرد؛ ومن لا يَحكُمِ الناس يُحكَمِ!

الوجه الآخر للسياسة

ـ ١ ـ

الموت هو الوجه الآخرُ للسياسة.

كل من ساس خاطر.

وكل من خاطر نجا لأجَل ما، أو فقد روحه في مصطدم المناورة والعداء. لذلك ما أشد نزوعي ورغبتي إلى التخلص في الحكم من كل ضدٍّ وكل مزاحم!

ـ ٢ ـ

ألِأن ربي أتانيَ الحكمَ صبيا تتربصون بي!

لا، لن أترك مخرجاً للخصي بورجوان الصقلبي، مدبر دولتي، ولن يفعل بي ما فعله كافور بأولاد سيده الإخشيد. فقولوا له، وقد قابل وجهي بنتانة نعله وطغى عليَّ واستغنى: إن من تسميه بالوزغة المحجورة قد أضحى تنينا. والتنين صار في قدرته أن يتلوى على الأعناق الزائغة، ويمنع عنها الهواء منعاً.

وأما الحسن بن عمار، أمين دولتي، فقد كفاني ما رأيته من عصبيته وتيهها وتيه بأسه عليّ. وسأكون في البطش به وبكل الراغبين في دمي وافر الغدر، سريع الانتقام.

الذين تربعوا فوقي نسفتُ قوامهم وآفاقهم، وانتهيتُ بحجمهم إلى التفكك الشديد. تشددتُ فاسترجعتُ عرشي، وسرتُ في أنفاق عهدي وفتني، أطالبُ بالرعشةِ والقشعريرة.. أقمتُ ظلي حيث مشيتُ، وتاريخاً لسيوفي في موطني، فما اسعدني بما لازمني! لازمني إخبارٌ عن بركان شيعتي أثلج صدري. لازمني صوتُ نبويٌّ الو قعِ وفأل حسنٌ.

حسنٌ أنْ تعاطيتُ الريادةَ والفراسة. حسنٌ أنْ أعشقَ والاحقَ. حسنٌ كلُّ شقٌ وكل فجٌّ وكل اكتساح.

أكتسحُ واهيمنُ، ثم أعود إلى سكونِ الصحراءِ المبشرِ بالزوبعة، أعودُ إلى فاتحةِ الرملِ المبشرِ بالزوبعة.

شرائط القيم

تسألونني عن الحكمة في إقبالي على الهدم والتقويض في ميدان المعمار والقيم. وجوابي إليكم خذوه وتدبروه: إن من لم يهدم لا يعرف معنى البناء، ومن لم يختبر الشر لا يقدر على فعل الخير.

قاصرُ النظر، مريضُ الإدراكِ من رأى من الأمر وجهاً واحداً، واستقر في البعد الواحد، يسبِّح للرتابة ويتلاشى بتلاشيها.

أما من لم يرتقِ في الغلو إلى ذراه، فما أقربه إلى مناطق البياض والهمود، وما أغباه!

منطق الفتن

كلٌ منا هرطقيٌ الآخر!

كلنا إذن هراطقـةٌ وأهلُ زيـغٍ وبدع. كلنـا رؤوسٌ مفتونـةٌ بتحرير الدلالاتِ وحملها على وجوهنا. كلنا نتديّنُ بالخروج.

إلهكم بعد الله أهواؤكم، إلا الذين قنبعـوا وانزووا وكـانوا داخلين في سوق ظلهم، يخفون أعينهم بأيديهم، ويعوذون بالله من زحـزحة الـدجاجـات عن بيضها ومن تحـريـك السـواكنِ والأثقال.

ما أقرب أعدائي مني!

القتل في المقربين أهل البطانة أولى ثم أولى، وإلا لما استتب أمر السلطة للمستبد، ولو كان غادلاً.

لا دربـةَ للخليفـة ولا سيـادة: إن لم يعـامـل عمـال رفعـه ونصرته كأعـداء في حالـة هدنـة مشوبـة بالحـذر، فيقيم فيهم حدود الترهيب والإبعاد، حتى لا يسعوا إلى مقـاسمته الحـول والقوة.

لا راحةَ للخليفة: إن لم يتـوجس من الكل، ولم يضرب ظلـه بالسيف إذا بدا له غريباً أو ملتبساً.

لا بقاء للخليفة: إن لم يبدل باستمرار طاقم القـائمين عـلى سره والحافظين له، كما يبدل الثعبان جلده.

ما بالكم لا تقنعون!

بطون بني آدم ـ إلا من رحم ربي ـ لا يعمرهـا إلا التراب! لقد أقطعتكم إقطاعات كثيرة ملؤها الاسكندريـة والبحيرة ومـا

جاورها، وحشوت حواياكم بأشياء شتى، يرهق خـروجها إليكم دماغ أمين الأمناء.

فما لكن تديّنتم بالجشاعةِ والنهم، وفتحتم أبواب شهواتكم وأهوائكم على مصراعيها؟

تالله لو عرفتم أن كل أتاوة وكل عطية ورشوة قدمتها إليكم على بساط أريحيتي وإكـرامي، إن هي إلا دَين لي عليكم، أشد بـه رقابكم إلى حبـال طاعتي والـوفاء لي، لـو عـرفتم وأدركتم لتسـابقتم هربـاً مني ومن هباتي. ولكنكم أكبـاش لا تعون ولا تعقلون.

خالفوني، ارحمكم

كم هي كبـيرة وواسعة مـواهب الركـوع والخنوع لـديكم! وتفكيري فيها أيقنني أن السعادة عندكم ليست إلا تعويضاً أو طرة على أنسجة المرارات وأكـداس الخسارات... فلكـأني بكم في مسـالك الانصيـاع تطاوعـون أقداراً سبقتكم إلى الـوجود. ولكم في الإتيان بالتفاصيل كامل العبء والحرية.

فخالفوني في هـذه الفكرة، خـالفوني، أرحمكم وأجـزل لكم العطاء.

تعلموا التطرف

«دعِ اللومَ عنّي لستَ منّي بموْثق
فلا بد لي من صدمةِ المتحنقِ
وأسقي جيادي من فراتٍ ودجلةٍ
وأجمعُ شمل الدين بعد التفرقِ»[٢].

في الحدود الدنيا وأوساط الأمـور، لا تصرّفون إلا هـزائمكم وهلاككم، بتضييع أصالتكم في التبعية الرعناء تارة، وبإرهـاق الفكر في التوفيق بين ما لا يتفق طوراً.

وحق **فاطمة**، لن تجدوا عندي لهذه الوصية بديـلاً: كوِّنـوا كنهكم واصنعـوا بيضتكم بـالاختيـار المتشـوق الحـاد، وفي المعارضة والنقض الخـلاق... وفي كل شيء، تطـرفوا، تطـرفوا يرحمكم الله!

أقرب القلوب إلي

أكره البذخ في كل شيء: ليس في متاع الدنيا وحسب. وإنما أيضاً في اللغة ومفردات اللسان.

ولـذا، فمن أراد أن يرى أني قتلت الشيـخ جبارة اللغـوي لأنه كان يعرف للكلب ثلثمائـة اسم في لغات العـرب، فله ذلـك وزيادة في فضاء التأويل. إن أقرب القلوب إليَّ لقلـوبُ المؤولين، أولئـك الذين يتنـافسون في تحـرير الـدلالات عن آخرهـا، وفي افتضـاض أبكار الأفكـار المحجوبـة، ويكدّون ويعـرقون، فـلا يجـدون في ختم المطاف إلا مـا وضعوه في أولـه: أنفسهم، ولا شيء غير أنفسهم، وما لها وما عليها.

عليكم بالصبر عليّ

منـذ أن تسلطتُ علي الأحـداث، تغير فيَّ كـل شيء: طـابـع صوتي وقعودي ووقوفي ومشيتي، وتغيرت مقولاتي وطرقي كلها في تجارة الكلمات والحلم والواقع.

وهل أعجب وعلى كتفيَّ أثقـالكم، ومنامي ويقظتي محمـلان

بسعيي إلى تطويق أوزاركم وتناسخاتكم؟

فلم يبق لكم، وحق **فاطمة**، إلا أن تلـوذوا بالصبـر والأناة، عسى أن تـأتيَ بعد زوال الـدخان المبـين وزوالي لوائـح النـور الشعشعاني!

وحق العـين التي لا تنـام، لا بـد لكم من استبـدادي ومن جريان سيفي بينكم شفـاءً لكم من الظلم ووقايـة، وحتى تظل مصر كما كانت وأبتغيها: لا يقطنها إلا راعٍ ورعية.

فاتّقوني ولا تطلبوا خلاصكم مني. إني لأفعـالكم ونوايـاكم بالمرصاد، ألتقط بالتجسس والسهر أسوأها وأعتمها، وأمحقها محقاً.

أذواقي

حُبِّبَ إليّ من سِيَر الأنبياء والـرسل تـربية الشَّعَـر واللحى، وارتداء الصوف، وركوب الحمير... وإني سـأسير عـلى نهجهم هـذا وأزيـد عليهم بتطـويـل أظـافـري واستنـزاف الفيـافي والصحـاري رحيلاً وتـرحالاً، واختص بجبـل المقطم المقـدس الأقرع لأحرثه بالإقامات المـديدة والتمـلي، بحيث لن يظفر بي إلا خيالٌ جامحٌ خلّاق.

لأرهقن القاعدة

سيأتي مؤرخون ليقولوا كلاماً معناه: أني أنا الحاكم بأمـر الله كانت أفعالي لا تُعلل وأحلامي ووساوسي لا تُؤَوّل.

وهذا كلام لطيف لا يخلو من صواب، طالما أني الاستثنـاء الذي شاء أن يرهق القاعدة.

وما القاعدة إلا من نسيج عوائدكم وأعرافكم!

وما هذا النسيج إلا صنيع تشنجاتكم وغيبوباتكم القزمية!

من أين لي القدرة على فعل الشر؟

لما سئل الحاكم عن الحكمة في ما يفعله من حين لآخر بواحد من عبيده، إذ يشق بطنه ويجبذ مصارينه ليرميها للحيوانات الأليفة الضالة، أجاب بلسان الواثق الجبار:

- إن سألتموني عن علة فعلتي تلك وما شابهها، فاسألوا إلهكم لِمَ هو على كل شيء قدير، وما الحكمة في تعذيبه للبهائم والأطفال، وإرهاقه للثكالى، أو في اختطافه للأرواح أفواجاً وكُتَلاً.

إن العجز عن فعل الشر ليصيب مشيئة الاله وقدرة الحاكم باسمه بشلل نصفي، يحول دون اتصافهما بطابع الاطلاق والجبروت.

وكل حاكم بأمر الله لا يحاكي الله في صفاته لهو ساقطٌ عن الولاية، مزيفُ الشاراتِ والإماراة.

لرفع الجفاف

كلما انتابتنى هواجسكم أو رأيتُ أن الموت بينكم متفشٍّ وكثير، ركبتُ إلى الصحراء حافيَ القدمين وعلى رأسيَ فوطة.

وهنا في هذا المجال الذي أخليتم فضاءه وحواشيَه، هنا يهدأ روعي وأراجع نفسي على ضوء قناديل البدءِ والمصير، حتى أتبين السبل الكفيلة برفع الجفاف عن أرضي ودماغي.

أنا الركاب الخبير

أركب إليكم وأشد الرحال إلى خفاياكم. فلا تهربوا ولا تفزعوا. فما.أدراكم إن أتيتُ مع الفرج بعد الشدة، أو عمّمت إنعاماتي حيث ترقبتمُ القتل!

لماذا أتيت؟

الحقيقة ليست مطلقة، بل طليقة.

هي من صنع الأقوى والأقدر على تطليق الفجاجة والعادات، وإطلاق العنان لإرادة التأويل والقوة. ولا ضرر إن تشعبت وتناقضت أجواء الإرادة ومناحيها.

وحق **فاطمة**، إن هلاكم ليقوم في تساوي الأضلاع، وفتور ما لا لونَ له ولا أتباع. فاطلبوا أسبابكم واستمدوها من حياة العكس والتناقض.

فلكَم من مستوطن في جهنمَ أتاها بطيبِ النوايا حبوا!

وكَم من يسر أقبلَ بعدَ العسر!

وكَم شيءٍ تكرَهونهُ وهو خيرٌ لكم وجدوى!

فتقبلوني إذن وتحملوني أنا المرُّ الصعبُ المراس. فإنما أتيتُ لأعلمكم معانيَ الأضدادِ **المحجوبة**، وقواعدَ التقلبِ المخزونة؛ وإنما أتيتُ لأقشقشكم ما استطعتُ من عاهاتكم، ولأبثَّ الحميةَ ضد ما أنتم ما ترمونَ وتضمرون، ولأشعلها حرباً على الذين في لهيبِ الوقتِ والغيبةِ لا ينتظرون.

الباب الأول
من طلعات الحاكم في الترغيب والترهيب

I

عن سجلات الأوامر والنواهي

«وكانت سيرة الحاكم من أعجب السير، يخترع كل وقت أحكاماً يحمـل الناس على العمل بها».

ابن خلكان، وفيات الأعيان.

لما خلا للحاكم وجه الحكم، بعد أن قتل مدبر الدولة الأستاذ بورجوان والحسن بن عمار زعيم كتامة وأمين الدولة، وغيرهما، صار لا يقضي الحول أو الحولين إلا ويستصدر، في سياق سيل بياناته ومراسيمه المختومة، سجلات قاهرة منطبعة بالغرابة والتضاد. وكان من أول هذه السجلات سجل الانفراد بالسلطات، ما ظهر منها وما بطن، وهو الصادر في غضون السنة الرابعة من ربع قرن الحاكم، سنة تسعين وثلثمائة،. وفيه بعد البسملة والحمدلة والتسليم على النبي ووصيه عليٍّ وعلى السبطين الحسن والحسين:

«معاشر من يسمع هذا النداء من الناس أجمعين، إن الله، وله الكبرياء والعظمة، أوجب اختصاص الأئمة بما لا يشركها فيه أحد من الأمة، فمن أقدم بعد قراءة هذا المنشور على مخاطبة أو مكاتبة لغير الحضرة المقدسة، سيدنا ومولانا، فقد أحل أمير المؤمنين دمه، فليبلِّغ الشاهد الغائب إن شاء الله»[٣].

[وفي النص من جهة اليمين]

ناحيتي القطرُ الذي أنتم ساكنوه، حيث بينكم تسري النساء والكلمات والخيرات.

ناحيتي الدوائرُ والاسلاك، حيث أحول بالعنف الأمثل دون أن يحلم الـوزراء والاعيـان بحتفي، أو أن يجمعـوا الأمـوال والألقاب اختلاسـاً ونهباً، وليتـرفوا ويتغطـرسوا بـاسمي وفي ظلي.

كيفمـا كنتم، ضعفاء أو أقـوياء، احـذروني وتوقعـوني، أنا الذي ما جئت إلا لكي أعيد للعين التي لا تنام هيبتها وحقوقها بينكم.

[وفي النص من جهة اليسار]

عليكم دوماً بطلب الأمانات مني.

فلكم أيها الأقوام الداخلون في عهدي وخدمتي أن تختلفـوا أجناساً وأصنافاً وشيَعاً، ولكن لا يجوز لكم أن تختلفوا فيٍّ، ولا في انفرادي بإعطاء العفو والأمان، وبتسكين الأفئـدة والقلوب. كلكم ضـدي وفي غير اتجـاهي ومرادي إلى أن تظهـروا آيـات العكس.

وهذا سعيري المتقد بالكتان والخيش والحلفاء، هذا سعيري يشتهي لحم وشحم كـل من أعـوزه الـدعـاء والتضرع لي، أو تأخر فبات دون باب توبتي وأماني.

*

[وفي السنة المذكورة أعلاه، سالت دماء كثـيرة بيد الحـاكم أو على سيوف عبيده، لا فرق فيها بين مـذنب وبريء، ولا بـين كبير ووضيع أو بين حر ومملوك أو مسلم وذمي.

وفيها منع الناس من الحج عبر البر والبحر، مخافـة هروب الرعية إلى ديار الله وفراغ مصر من سكانها.

وفيها امتثل الصيادون أمام الحاكم وأدوا القسم على هجر

صيد السمك الذي لا قشر فيه. وعلموا أن من حنث منهم وخالف شُقَّ بطنه وأتلف ما فيه.

وفيها كبست الحمامات، وألقي القبض على العديد من المستحمين من دون مئزر، وطيف بهم عراةً في الأزقة والأسواق].

*

وفي السنة الخامسة من ربع قرن الحاكم صدر بنقش ختمه **مرسوم ضد الكلاب**، ومما أتى فيه نصه:

وأما الكلاب ـ إلا ما كان منها للصيد ـ فأقيلوا عثاري منها واقطعوا دابرها من كل ربوعي وأحيائي. فإني لا أطيق رؤية أحط الحيوانات منزلةً، وأبعدها عن أخلاق التقلب والضد، وأكثرها تحملاً لأعباء التزلف والوفاء.

*

[وفي هذه السنة قتل الكلاب بالآلاف، وهاجرت الناجية منها إلى مناطق آمنة، نائية غير مأهولة.

وفيها انتزعت بالمناسبة كل الخنازير من أهل الكتاب، وقتلت بالجملة. وفيها ـ وقيل في التي قبلها ـ تناهى إلى سمع الحاكم بيتان شعريان، فانفعل بهما واضطرم، وسأل عن صاحبهما فقيل له: إنه ناجية بن محمد بن سليمان أبو الحسن الكاتب البغدادي، نادم الخلفاء والأكابر. وأراد استقدامه، فأخبر بأنه ميت هو أو في عداد المفقودين. والبيتان، وهما من الطويل: «ولما رأيتُ الصبح قد سلّ سيفه/ وولى انهزاماً ليلُه وكواكبُه// ولاح احمرار «قلت قد ذُبح الدجى/ وهذا دم قد ضمَّخ الأفْقَ ساكبه[٤]»].

*

وفي السنة السادسة من ربع قرن الحاكم، طلع الخليفة على الناس **بسجل في قلب المواقيت ومنع التجول**، ومن نصه:

... تجنباً لما يأتي به الظلام من هواجس وأحلام مزعجة؛ ورفعاً لكل غطاء عن كل متربص بالسلطة، متآمر عليها وعليّ؛

أعلن، أنا الحاكم بأمر الله، قلب المواقيت والمواعيد، وأشرّع لكم العمل ليلاً والنوم نهاراً، وأمنع عليكم التجول في المدينة بعد طلوع الشمس، أو التجمع خارج البيوتات وتلويث خلاء الطرقات، فإياي ونقض أوقاتي، فإني لا أوتى بمخالف إلا سفكت دمه. وحتى إشعار آخر، لا مرد لمرسومي ولا تخفيف فيه.

*

[وفي هذه السنة أشعلت القناديل والشموع ليلاً في كل مصر والقاهرة، حتى كأن الليل نهار.

وفيها «اجتاز (الحاكم) مرة برجل يعمل النجارة في أثناء النهار فوقف عليه فقال: ألم أنهكم؟ فقال: يا سيدي لما كان الناس يتعيشون بالنهار كانوا يسهرون بالليل، ولما كانوا يتعيشون بالليل سهروا بالنهار، فهذا من جملة السهر، فتبسم وتركه»[٥]].

*

وفي السنة الثامنة من ربع قرن الحاكم، أصدر دعاته الغلاة بتواطئه مرسوماً بسبّ السلف وأمر بكتابة السبّ على الأبواب والحيطان وعلى المقابر والقياسر...

[وفيها طيف بجماعة من «أهل الظاهر» على حمير قبل شق

أكتافهم وقطع رؤوسهم. وقال فيهم المنادي عبر كل الأحياء: هذه عاقبة من يحب أبا بكر وعمر وعثمان وعائشة وطلحة والزبير وعمرو بن العاص ومعاوية.

وفيها طيف في دمشق بمغربي على حمار، وشهر به المنادي وبرح: هذا جزاء من يحب الصحابة، ثم شُقت عنقه.

وفيها نفذ أمر الحاكم بهدم جامع عمرو بن العاص بالإسكندرية.

وفيها زلزلت الأرض زلزالها في الشام والمدائن والثغور، فقضى تحت الأنقاض خلق كثير].

*

وفي السنة التاسعة من ربع قرن الحاكم، صدر بختمه **مرسوم بتحريم بعض مأكولات «أهل الظاهر»**، ومنه:

لقد نهيتكم عن أكل الملوخية والجرجير والدلنيس والمتوكلية، ولا زلت أنهاكم بمرسوم لا يقبل النقض: لأني لا أرغب أن تأكلوا من موائد أهل الظاهر والدنيا ولا في ما يزيد من همودكم واسترخاء أعضائكم، ويكثف البخار في أدمغتكم والأوهامَ حول علو كعبكم وسلالتكم.

وفي هذه السنة أيضاً وقّع الحاكم على سجل اشتهر بذي العنوانين: **سجل إبطال الزكاة وسجل كبح التفاوتات**، ومما جاء فيه:

وحق فاطمة، لن يكون لعهدي شأن إن لم أسعَ إلى سحق ما تداول بينكم من تفاوتات في المعاش والأرزاق.

تفاوتاتكم مريعة، فما أقساها على جوارحي وما أعتاها!

لذا، وأنتم كلكم في ذمتي، قررت أنـا الحاكم بـأمر اللـه أن أعود إلى البدء لأفضح ما بـه البدء انطلق: ففي بـدء الثروات كـان الغصب والنهب، وكـان الاغتنـاء بمـا قـام عـلى أعمـال المستضعفين واستنزافهم حتى الانهاك فالموت.

الا فلتدركوا هذا معي حتى نعيد لبـاب العدل والقسطـاس سلطته ومجده. ومن ظل دون هذا الباب فلا إسلام له ولا ملة.

سجلوا عليَّ في مـرسوم أنني، تحقيقـاً لمقاصـد الصدقـات والـزكـوات القصـوى، أقـرر إلغـاءهـا، وأنني ألغيهـا لأن في جريـانهـا بينكم حجةً عـلى بقاء الفقـير فقيراً متسـولاً والغنيّ غنياً غاصباً مرتاح الضمير والبـال. هذا وإنني لكـل ما يسرمـد التفاوت الشنيع بينكم لبالمرصاد.

هكـذا سعيي بينكم، فـاسلمـوا إليـه واحفظـوه في وعيكم كالدليل المضيء، واضربوا كل من شوش عليـه أو لطخة بـاللغو والوحل.

*

[وفي هذه السنة: «لقي الحاكم ذات مساء عشرة من الناس سألوه الاحسان، فأمر أن يتقاسموا إلى فريقين يتقاتـلان حتى يغلب أحدهما فينعم عليه، فتقاتلا حتى فني منهم تسعة وبقي واحد، فألقى إليه الدنانير، فلما انحنى ليأخذها عاجله الركابية بقتله[٦]».

«وفيها رسم الحاكم لجماعة من الأحـداث أن يتقافـزوا من وضع عالٍ في القصر، ورسم لكـل منهم بصِلَة، فحضر جمـاعة وتقافزوا، فمـات منهم نحو ثـلاثين إنسـاناً من أجـل سقوطهم خارجاً عن الماء على صخر هناك؛ ووُضع لمن قفز مالُه[٧]»].

*

وفي السنة العاشرة من ربع قرن الحاكم، قرىء في كل ربوع البلاد **سجل في قمع الخارجين بالسيف**، وفيه:

هكذا أنتم أيها الارجاسُ الانجاس! تعارضونني بإكثار التمرد عليّ والتشهير باستحالاتي أمام الناس. لا وحق حرمتي، لن تجدوا عندي لهزمكم إلا العنف في أسمى آياته والغدر الخالص.

وفأما ابن باديس، وقد نكر عليّ أفعالي، وجعل بينه وبيني مسافات ومتاريس، فهذه أكمامي وجوامعي مفتوحة «لفقيهين يبعث بهما ليريقا فيها شيئاً من علم مالك، مقابل أن نريق دمهما صبراً.

وأما أبو ركوة، فقد أكثر الخروج عليّ وغالى حتى عاث في الصعيد وأتاني بين الهرمين، فاشتد أمره على سدتي واستفحل.

ألا إن كوكبه الذؤابة قد لفه الآن السقط والأفول، فجهزوا ضده عظيم جندي، وعليكم، ولا بد، أن تأتوني به حياً لكي يُشهر به على جمل ويُطاف به كما أرضى وأشتهي. وبعد أن يملَّ الناس من رؤيته اضربوا عنقه ليذوق عذابي، وآتوني برأسه المفتون، واصلبوا جسده الملعون في مهب النهش والخسارة.

هذه عاقبةُ كلَّ من خرج عليَّ شاهراً سيفهُ، واقترف في حقي الزيغ والجسارة.

*

وفي سنة ثمان وتسعين وثلثمائة مال مزاج الحاكم الى التحسن بفعل ثورة أبي ركوة، فأصدر تباعاً مراسيم تنم، في

رأي الرعية، عن اتزان وحكمة وبصيرة. وأولها صـدر في شهر رمضان تحت اسم: **لكل مسلم مجتهد في دينه اجتهاده**، وفي نصه بعد البسملة والحمدلة:

«أما بعد فإن أمير المؤمنين يتلو عليكم آية من كتاب الله المبين، **لا إكراه في الـدين... مضى أمس بمـا فيـه، وأتى اليـوم بمـا يقتضيـه**: معـاشر المسلمين: نحن الأئمة، وأنتم الأمة. لا يحلّ قتل من شهد الشهادتين... ولا يحـل عروة بـين اثنين، تجمعهمـا هذه الأخـوة، عصم الله بهـا من عصم، وحرم عليها ما حرم، من كل محرم من دم ومال ومنكح، الصـلاح والأصلح بين الناس أصلح؛ والفساد والإفساد من العباد يستقبـح، **يطوى مـا كان فيما مضى فلا ينشر، ويعرض عما انقضى فلا يذكر**، ولا يقبل على ما مـر وأدبر من إجراء الأمور على ما كانت في الأيـام الخاليـة أيام آبـائنا الأئمـة المهتدين، سلام اللـه عليهم أجمعين، مهـديهم باللـه، وقائمهم بـأمر اللـه، ومنصورهم بالله، ومعزهم لـدين الله، وهـو إذ ذاك بالمهـدية والمنصـورية، وأحوال القيروان تجري فيها ظاهرة غـير خفية، ليست بمستـورة عنهم ولا مطوية؛ يصوم الصائمون على حسابهم ويفطرون، ولا يعـارض أهل الـرؤية فيما هم عليه صائمون ومفطـرون؛ صلاة الخميس للـدين بها جـاءهم فيها يصلون، وصلاة الضحى وصلاة التراويـح لا مانـع لهم منها ولا هم عنهـا يدفعون؛ يخمس في التكبيـر على الجنـائز المخمسـون، ولا يمنع من التكبيـر عليها المربعون؛ يؤذن بحي على خـير العمل المؤذنـون، ولا يؤذى من بها لا يؤذنـون؛ لا يسبّ أحد من السلف، ولا يحتسب عـلى الـواصف فيهم بمـا وصف، والخـالف فيهم بما خلف؛ **لكـل مسلم مجتهد في دينـه اجتهـاده**، وإلى الله ربه ميعاده عنده كتابه وعليـه حسابـه؛ ليكن عباد اللـه على مثـل هـذا عملكم منذ اليـوم؛ **لا يستعـلي مسلم عـلى مسلم بمـا اعتقـده، ولا يعترض معترض عـلى صاحبـه فيما اعتمـده**، من جميع مـا نصه أمـير المؤمنين في سجله هـذا، وبعده قـوله تعـالى: «يا أيهـا الذين آمنـوا عليكم انفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم، الى الله مرجعكم جميعـاً، فينبئكم بما كنتم تعملون[٨]».

*

ويتبع هذا سجلات أخرى، منها:

- سجل إقرار الحق في التأويل

مبادىء الكلام تحكمات وعواقبه تأويلات، ألا فلتزل عندنا مجالس الحكمة التأويلية ورؤوس الاحتكارات المذهبية.

فكما أني لست لشيعة دون أخرى، فكذلك الحقوق في التمذهب والتأويل.

ألا في إبداع أحسن الكلام وأقوى القراءات، وفي وضع جليل الدلالات فليتنافس المتنافسون، عسى أقربكم إلى الحق وإليَّ - وإن كان عبداً ذا زبيبة - إن يلغم هذه الربوع بعبوات الاستنهاض والتحولات النافعة.

أما من وقف في وجه كل من سعى وأوّل واختلف، فلا فرق عندي بينه وبين التاجر المحتكر أو قاطِع الطريق، وإني لست منه وليس مني.

وإن لغط باسمي لاغط أو لغا بأقوالي فاطلبوا فكاكي منه، وردوه الى حمى قيعانه وهجيج خبطه.

- سجل إطلاق الأرزاق وإبطال المكوس

«من الحاكم إلى أمين الأمناء حسين بن طاهر الوزان:

الحمدلله كما هو أهله:

أصبحت لا أرجو ولا أتقي *** إلا إلهي وله الفضلُ

جدي نبي وإمامي أبي *** وديني الاخلاص والعدلُ

المال مال الله عز وجل، والخلق عباد الله، ونحن أمناؤه في الأرض، أطلق أرزاق الناس ولا تقطعها، والسلام[1]»

وأمـا المكوس عن الغـلال والأرز ومكوس الحسبـة والرطب ودار الصابون، فهي باطلة من اليوم فصاعداً، كما هي لاغيـة رسوم القضاة على الخمر والفطرة والنجوى. وسـأبطل أخـرى بمجرد ما تتحسن أحوال النيل ويرتفع إلى مقياسه المعقول.

- سجل الطيّ والنسخ

أنا الحاكم بأمر الله، قد أمـرتكم بسبّ السلف على أبـواب الشوارع والمساجـد، وبكتابـة السبّ بالأصبـاغ على حيطـان الحـوانيت والصحـراء والمقـابـر، وأمــرت عمـالي بـالسبّ في ولاياتهم. والآن أنهاكم عن ذلك نهيا.

لقد كنت حللت لكم الفقاع، عسى أن يـذهب عنكم أحزانكم ويذيب ما تيسر من صقيـع تعاسـاتكم. واليوم أنهـاكم عن كل مسكر ولو كان مثلثا خفّ كحوله، إذ النيل كله لو كانت ميـاهه خموراً لما نفع فيكم وأجدى. فاقتلعوا كل الكروم وأبيدوا العنب ومشتقاته. وعليكم ما دمتم في ربوعي بالصحو الأمثل...

ولقد كنت نهيتكم عن بعض مأكولات «أهل الظاهر»، واليوم لا فـرق ولا بغضاء بـين هؤلاء وبينكم، فكلوا مـا شئتم وطاب لكم. فإن كل معدة ذائقة الموت.

- سجل النهي عن الزلفى وطلب المنافع

ألم أقل لكم إني أكره الكلاب؟

ألم تعلموا أني أصدرت مرسومـاً بقتلهم وتخليص مملكتي منهم؟

وبنـاءً عليه، إني أحـرم عليكم أن تقبلـوا الأرض من تحت

قدمي. ومن فعل ألحقته بقبره فيها وهو حي يرى.

كما أني أنهاكم عن الصلاة عليّ في الخطب والمكاتبات. وآمركم أن تجعلوا كفايتكم في التسليم على أمير المؤمنين.

هذا قراري، فغيبوني، غيبوني عن ركوعكم وزلفاكم تسلموا من وجهي وتجدوا هيبتي أقرب إليكم من حبل الوريد.

*

وذيّل السجل بهامش: أن لا أحد من الرعايا يلتمس من خليفة المؤمنين زيادة أجر ولا إضافة منصب ولا إقطاع تمليك أو استغلال ولا منفعة فوق ما تقتضيه الضرورة والحاجة.

*

وعلى إثر هذه المراسيم المحمودة، سقطت عن الناس أسباب التوترات والمصادمات، وصاروا إلى عاداتهم في المأكولات والمستحسنات، وأحيوا أوقات سمرهم ومزاحهم بمنتزه القرافة، وتلاعبوا بالماء على شطوط النيل، ولعبوا النرد والشطرنج، وتبرجت النسوان وغنين.

وبما أن الحاكم صار أحرص من ذي قبل على إقامة الأعياد ورئاستها والذهاب إلى مراسيم فتح الخليج ورفع سده، فقد أتاح للمصريين المشاركة فيها واغتنامها فرصاً للاحتفال بالحياة وتكريمها بشتى أنواع التعابير العجيبة، المحاطة بأسمطة المآدب الباذخة وأبخرة المسك والعنبر.

*

وفي السنة الثالثة عشرة من ربع قرن الحاكم تملكت الخليفة غيرة عارمة على الاسلام، مصحوبة بكراهية ساحقة

لأهل الكتاب والذمة، فحرر ونشر سجلاً يعطي الأمر والتعليل، وسماه: **سجل رد الاعتبار إلى ملة التوحيد**، وفيه:

الله أكبر لا إله إلا هو، والله أكبر وله الحمد، الحمد لذي الجلال والاكرام، وخالق الكون والأنام، المنفرد بحقيقة الموت والدوام، المتصرف في مقاليد النقض والإبرام، فالق الإصباح، وخالق الأشباح، وفاطر الأرواح، أحمده وأشهد بربوبيته ووحدانيته، وأن محمداً عبده ورسوله، اللهم صل على وليك الأزهر، ورفيقك الأكبر، علي بن أبي طالب، حامل أعباء الآمال، وهالك القبح والدجال. اللهم وصلّ على السبطين الطاهرين الحسن والحسين، وعلى الأئمة الأبرار، والصفوة الأخيار؛

وبعد،

تسألونني عن الحكمة في أمري بهدم كنيسة القيامة التي ببيت المقدس وكنائس أخرى بمصر والشام...

لا، ليس فقط لأن ضرب النواقيس، كنباح الكلاب، يفسد عليّ في قعر ديني ودياري مناجاتي مع ملكوت السماء!

لا، بل الأدهى والأمر أني أرى، كما ترون، أن الصلبان من حولنا تناسلت وتكاثرت، فتعددت أبراجها، وتعدد حاملوها، حتى بتّ أسأل نفسي: هل هذه الدار دار الاسلام وملة التوحيد، أم دار النصارى والفسقة الأضداد؟ هل هذي البلاد ملك للمسلم أم للذمي؟ وبت أخشى أن يهيج علينا دين التثليت، فيُفيض علينا الصليبيون العذاب ويستبيحوا أعراض هذه الأمة وأراضيها.

باسم الردع والاتقاء، عليّ بكنيسة القمامة بدءاً، «فليصر طولها عرضاً وسقفها ارضاً»، فلعل وعسى...

[وجاء في الهامش ما نصه]:

معشر الأقباط ومن شاركهم في أعيادهم من المسلمين!

لا احتفال بعيد الغطاس بعد اليوم.

فمن تلاعب في بحر النيل بالقفز والغطس، تركناه في قعره مكبلاً بالأغلال.

ولا احتفال بعيد النوروز بعد اليوم.

لا ماء يصب في الطرقات، ولا نار توقد ليلاً، ولا نزول في القوارب، ولا خيام تضرب على شطوط النيل أو قرب المقياس، ولا تراشٍ بالخمر ولا تراجم بالبيض. ودعوني من كل هذه المفاسد.

*

[وفي السنة نفسها صدرت سجلات بذات المعنى في حق أعياد الميلاد والمهرجان والشعانين... وفيها أيضاً مات يعقوب ابن نسطاس، طبيب الحاكم، سكران في بركة ماء...].

*

[ولم يمض أسبوع حتى ظهر الشق الاضافي من السجل أعلاه، وفيه]:

المسلم مسلم واليهودي يهودي ولا يلتقيان. والمسلم مسلم والنصراني نصراني ولا يلتقيان.

فيا معشر ملة التوحيد: إني في هذا العصر العصيب، لا أكتفي بما حرَّمَ عليكم من مناكحة اليهود والنصارى وأكل ذبائحهم، وإنما أقرر بالاضافة والتأكيد أن لا تساويَ ولا تعايشَ بين الديانات، فإسلام أمتي إما ان يكون دين الختم والنسخ لما سواه وعاداه أو لا يكون.

لـذا فعلى كـل اليهود والنصـارى الـداخلـين في ذمتنـا أن يحملوا العلامة.

للأولين القـرامي في الاعناق والعمـائم السوداء، ولـلآخرين الصلبان.

والعلامة، كل علامة، عليها أن تكون باديـة في مدى حـدود البصر.

ولأهـل الذمـة حمـامـاتهم الخـاصـة، يتطهـرون فيهـا من أوساخهم الخصوصية،

ولهم دون الخيل البغالُ والحميرُ يركبونها بسروج خشبية.

هذا، وإن على كل من أراد التخلص من علامتـهِ أن يرجـع عن غيه، ويعود إلينا مسلماً معفياً من الشبهة والجزية.

*

[وفي هذه السنة: «قرىء سجل بترك الخوض فيما لا يعني، والاشتغال بالصلوات في أوقاتها، والأمر بـالمعروف والنهي عن المنكر، وألا يخوض أحـد في أحوال السلطـان وأوامره وأسرار الملك».

وفيها: «كثرت الأمـراض في الناس، وفشـا الموت، وتخـوف الناس من الحاكم فكتب عدة أمانات لأناس شتى[10]»].

*

وفي السنة الرابعة عشرة من ربع قـرن الحاكم، وهي سنـة أربعمائة، زادت مشاعر الخليفة الدينية تأججـاً وتطرفـاً. ومما تناقله المؤرخون من أخبار هذه السنة، ما يلي:

«وفيها أرسل الحاكم إلى المدينة إلى دار جعفر الصادق مَنْ فتحها وأخذ

منها ما كان فيها، وكان فيها مصحف وسرير وآلات، وكان الذي فتحها ختكين العَضُديّ الداعي، وحمل معه رسوم الأشراف، وعاد إلى مصر بما وجد في الدار؛ وخرج معه من شيوخ العلويّين جماعة؛ فلمّا وصلوا إلى الحاكم أطلق لهم نفقات قليلة (وردّ عليهم السرير) وأخذ الباقي، وقال: أنا أحقّ به؛ فانصرفوا داعين عليه. وشاع فعله في الأمور التي خرق العادات فيها، ودُعِي عليه في أعقاب الصلوات وظوهر بذلك، فأشفق فخاف؛ وأمر بعمارة دار العلم وفرشها، ونقل إليها الكتب العظيمة وأسكنها من شيوخ السنّة شيخين، يعرف أحدهما بأبي بكر الأنطاكيّ، وخلع عليهما وقرّبهما ورسم لهما بحضور مجلسه وملازمته، وجمع الفقهاء والمحدّثين إليها، وأمر أن يُقرأ بها فضائل الصحابة، (ورفع عنهم الاعتراض في ذلك) وأطلق صلاة التراويح والضحى، وغيّر الآذان وجعل مكان «حيّ على خير العمل» «الصلاة خير من النوم»؛ وركب بنفسه إلى جامع عمرو بن العاص وصلّى فيه الضحى، وأظهر الميل إلى مذهب الإمام مالك والقول به، ووضع للجامع تنّوراً من فضة يوقد فيه ألف ومائتا فتيلة، واثنين آخرين من دونه. وزفّهم بالدبادب والبوقات والتهليل والتكبير، ونصبهم ليلة النصف من شعبان؛ وحضر أوّل يوم من رمضان إلى الجامع الذي بالقاهرة، وحُمل إليه الفُرش الكثيرة وقناديل الذهب والفضة، فكثُر الدعاء له؛ ولبس الصوف في هذه السنة يوم الجمعة عاشر شهر رمضان، وركب الحمار وأظهر النسك وملأ كمّه دفاتر، وخطب بالناس يوم الجمعة وصلّى بهم؛ ومنع من أن يخاطب يا مولانا ومن تقبيل الأرض بين يديه؛ وأقام الرواتب لمن يأوي المساجد من الفقراء والقرّاء والغرباء وأبناء السبيل، وأجرى لهم الأرزاق؛ وصاغ مِحراباً عظيماً من فضة وعشرة قناديل، ورصّع المحراب بالجوهر ونصبه بالمسجد الجامع. وأقام على ذلك ثلاث سنين يحمل الطِّيب والبَخور والشموع إلى الجوامع، وفعل ما لم يفعله أحد. ثم بدا له بعد ذلك فقتل الفقيه أبا بكر الأنطاكي والشيخ الآخر وخلقاً كثيراً أخر من أهل السنّة لا لأمر يقتضي ذلك؛ وفعل ذلك كلّه في يوم واحد. وأغلق دار العلم، ومنع من جميع ما كان فعله؛ وعاد إلى ما كان عليه أولاً من قتل العلماء والفقهاء وأزيد؛ ودام على ذلك حتّى مات قتيلاً[11]».

*

وفي السنة الثامنة عشرة من ربع قرن الحاكم، صدرت ضد

المصريين، وعلى الخصوص منهم النساء وأهل الغناء والتنجيم، سجلات ماحقة دوختهم وهدت عزائمهم، ومنها:

- سجل ضد المنجمين والمغنين

ما أتيت إلا لأكذب النجوم وأعكرّ صفوها وعرافتها. وسبيلي في ذلك تعميرُ مملكتي بالأعراض وحالات الاستثناء، مع إفشال قدرة القواعد والتوقعات.

وبناءً عليه، من نجّم أو تكلم في النجوم فقد عارضني. ومن عارضني نفيته او أسقطتُ نجمه. ألم يقل عليّ «وصيّ النبيّ»: «أحذركم علم النجوم إلا ما يهتدى به في ظلمات البر والبحر. فإن المنجم كالساحر كاهن والكاهن كافر والكافر في النار».

هذا، ولا مرد لحكمي حتى في حق من سعى بين المنجمين إلى تحويل لآلىء السماء لصالحي وفي خدمتي.

أما المغنون فعليٍّ بنفيهم.

إن شعبي رقاصٌ بطبعه، فما الحاجة إلى من يزمر له ويغني؟

لقد أعلنتها حرباً شعواء على كل أسمدة الخنوثة والأنوثة الرعناء. وغناؤكم منها، يعبث بالأجساد ويفسدها، فالغناء حرام عليكم ما دمت أرعاكم وأحيا.

*

[وفي هذه السنة خلت البلاد من المنجمين، إلا ممن تظاهر منهم بالعمى والجنون، أو هرب بعلمه إلى الأبراج المهجورة والمطامير المحجوبة.

وفيها جُمعت كل آلات الطرب وأحرقت، كما منع الركوب

إلى الخليج، وأقفلت أبواب القاهرة المفضية إليه والخوخ والطيقان المشرفة عليه].

- سجل في تحصين النساء

وحق فاطمة الزهراء ليس ما أقوله عن النساء إلا الخير!

وكيف أحتقرهن أو أطعن فيهن والحال أن تحت أقدام أمي جنتي، وأن دولتي تستمد اسمها وقوامها الروحي من امرأة مباركة، بنتِ النبي وزوج الوصي ووارثة سرهما.

إني حقاً أمرت النساء المحصنات بلزوم بيوتهن، ومنعتهن من الظهور خارجها أو التطلع من الطيقان والشرفات والنوافذ. وأمرت بعقاب كل إسكافي يصنع لهن الخفاف وكل صاحب حمام يفتح لهن أبوابه... وما فعلت ذلك ظلماً، بل لكي أحول دون دخول الرجال في حرب استهواء الفروج والاستهواء المعاكس: هذه الحرب السخيفة اللعينة، التي من شأنها أن تنسيَ الرجال والنساء معاً حربنا الحقيقية ضد العدو المتربص بكبواتنا وحلقاتنا الضعيفة.

*

[وفي هذه السنة، فاضت على الديوان الرقاع النسائية في طلب التصاريح الخاصة: للإماء والمتظلمات والقابلات وغاسلات الموتى والأرامل بائعات الغزل والمضطرات إلى السفر.

وفيها غلّقت أبواب حمام على نساء، فمتن فيه قيظاً وخنقاً.

وفيها ذبحت نعاج فوُجد في بطن كل نعجة حمل أقسم مؤرخون بغليظ الأيمان أن وجهه كوجه إنسان.

وفيها، وقيل في التي قبلها، «أرسل الحاكم كتاباً إلى السلطان محمود بن سُبُكْتِكين صاحب غزنة يدعوه إلى طاعته، فبعث محمود بالكتاب إلى الخليفة العباسي القادر بعد أن خرقه وبصق في وسطه»[١٢].

وفيها، يقيناً، قضى الحاكم على إمارة الحمدانيين وحماتهم البيزنطيين في حلب، وضم هذه المدينة إلى أطراف ملكه].

*

وفي السنة الحادية والعشرين، وقيل في التي بعدها من ربع قرن الحاكم، عاودت الخليفة نوبات المالنخوليا واشتدت وطأتها عليه، فأكثر من الخلوة والطواف، ولبس الخيش وأضرب عن الاستحمام، وسهر الليالي مراقباً النجوم ومستنزلاً روحانية الكواكب. وقد قوى هذا النزوع لديه رهط الدعاة الذين ظهروا في هذه الفترة، فسموه «قائم الزمان وناطق النطقاء»، وأوّلوا في الكتب والرسائل سيرته ومراسيمه الخارقة العجيبة كحجج وآيات لتنزيهه وربوبيته، ودعوا إلى تقديسه وعبادته، فنالوا في السر عطفه ودعمه، وصاروا يجوبون مصر والشام مستقطبين الأتباع إلى سلك «العقلاء»، آخذين منهم العهود والمواثيق وفروض النجوى والاتاوة. وقامت بين هؤلاء وبين أهل السنة فتن ومصادمات دامية، قتل على إثرها الداعية الأخرم، وفر حمزة والدرزي بدعوتهما الى جبال الشام قبيل أو بعيد مصرع الحاكم ـ وتحدث أتباعه عن اختفائه ـ ليلة الثلاثاء لليلتين بقيتا من شوال سنة إحدى عشرة وأربعمائة، كما سيأتي ذكره في محله.

II

العبد مسعود

أو آلة العقاب اللواطي

وقد كان يعمل الحسبة بنفسه، فكان يدور في الأسواق على حمار له ـ وكان لا يركب إلا حماراً ـ فمن وجده قد غش في معيشة أمر عبداً أسود معه، يقال له مسعود، أن يفعل به الفاحشة العظمى، وهذا أمر ملعون، لم يسبق إليه».

ابن كثير، **البداية والنهاية**.

«وكان (الحاكم) يلبس جبة صوف أبيض ويركب على حمار عال أشهب يسمى القمر، يطوف في أسواق مصر والقاهرة ويباشر حسبة البلد بنفسه. وكان معه عبد أسود طويل عريض يمشي في ركابه يقال له مسعود. فإن وجد أحداً من السوقة غش في بضاعته أمر ذلك العبد مسعوداً بأن يفعل به الفاحشة العظمى وهي اللواط، فيفعل به على دكانه والناس ينظرون إليه حتى يفرغ من ذلك، والحاكم واقف على رأسه. وقد صار مسعود هذا مثلاً عند لطفاء أهل مصر إذا مزحوا مع أحد يقولون احضر له يا مسعود! وفي ذلك يقول بعض الشعراء.

إن لمسعود آلةً عظُمت * كأنها في صفات طومار
تشق أدبار من بهم جرم * أصعب من دِرة بمسمار

ابن إياس، **بدائع الزهور في وقائع الدهور**.

كان العبد مسعود واحداً من هذا الحشد الغفير الذي تعج به أسواق الرقيق في ضواحي القاهرة. وكان نخاسه الأخير أبو سليمان الزعفراني يعتبره من هـذا الصنف الصعب بيعه، أو إعمال عقاقير الدهن والتجميل فيه لإغـراء المشتري والإيقـاع به... فوجه مسعود كان غاية في السواد وآيـة في القبح، بحيث لا يمكن ـ حسب التصورات الشائعة ـ أن يُظن به ولا ببياض أسنانه خيراً. وأما جسمه بأبعاده الثلاثة، فكان يضاهي أقوى الغيلان وأعلاها، إذ لو أراد هـذا العبد قتـل نخاسـه ركلاً أو رفساً لكان هذا أهون عليه من حمل مسمار.

ككل من وهب تلك الخلقة، كان مسعود يحمل روحـه في لون جلدته وبين أجفانه. وكانت أخلاقه تبـدو للناس مجبـولة عـلى السوء والقتامة، يرون أن شراءه خسـارة طالما أنه كغـيره من الـزنوج كثـير الهرب، وككـل العبيد «إذ جـاع نام وإذا شبـع زنى». والحق أن هذا المثل السائر لا ينطبق على مسعود الذي كـان إذا جاع صبـر، وإذا شبع تجشـأ وسعى. أمـا في بـاب الهرب، فقد كان بالفعل هذا العبد شديد الفلت والفرار، ولـذا لا يستقر به حال عند مالك أو نخاس أكثر مما تسمح به حدود الحراسة وأضواء النهار. فكان غريزياً يتربص لحظات السهو

والغفلة المتيسرة في حلكة الليل، لينطلق في خضم سواده كسهم يلاحق أشباحاً مارقة عتية.

والسر في سلوكه هذا ليس سوء أدب أو فساد خلق، بل خوفه المرعب من صورته التي يراها في عيون الآخرين، ومن رائحته التي يسميها هؤلاء صنان. وهكذا لكونه ضرب شوطاً قياساً في الهروب، أبيح دمه مرة في ربوع الوطن، فعاش مدة محموماً لاهثاً يبحث عن ملجأ ويجنّ من الذعر والحزَن، مترقباً سَقطته والنسيان او جبلاً يعصمه من القناصة والعميان. وكانت آخر محطة استقر بها مسعود مقبرة مهجورة حافلة بالسكون والنباتات الوحشية. وهنا صار يبيت بين الجذوع والحجر، ويرى من حوله في الليل أفواج الموتى يقومون ويسقونه برداً وسماً، ويرى ملك الموت يأتي في سلهام أسود بلا حدود ويروح مع العناصر. ورغم عسر المقام وهول المعشر، كان مسعود يدرك بكثير من الوضوح أن العيش مع الأموات أحب إليه من السقوط في حبال الأحياء، ذلك لأن عيون هؤلاء سعير ونظراتهم سهام نافذة، أما أولئك فلا عيون لهم، بل تجاويف غائرة ثابتة في عدمها، لا تلاحق أحداً ولا تثقل كاهل أحد بالتحقيقات والمحاسبات.

ظل مسعود أياماً عديدة في شبه إقامة إجبارية وسط البرد والوحل، فما كان شيء ينعشه إلا تخيل نعشه، أو التملي في سراويل نسائية منشورة في سطوح بعيدة تشرف عليها المقبرة.

وذات يوم إذ شعر مسعود بجوع مريع يمزق أمعاءه، قام ومرّ بظاهر المدينة، باحثاً في المزابل عن قوت غداء، ولم يمض على جولته إلا وقت قصير حتى رأى الناس من حوله يفرون فزعين، مثيرين هروب حتى الحيوانات الأليفة والدواجن. ولما

رأى جسمه في الميدان مكشوفاً يجلو لصفوة العسكر، جمع كل قواه وعاد أدراجه مهرولاً باتجاه حفرته في المقبرة، وهنا انبطح انبطاح المهزوم المذعور، الذي لا رجاء له إلا أن تسعفه الطبيعة بما يكفي من نباتها وأعشابها لتغطية جسده وحجبه عن العالمين. وبينما هو على هذه الهيئة لمدة بضعة أيام، بين موت منذر وتنفس مأزوم، إذ شعر بتكاثر الحركات والأصوات الآدمية من حوله، كأنما هي لأقوام أتوا دفعة واحدة لدفن موتاهم بالجملة. فساورت مسعود مشاعر الدهشة، وانتابه كثير من الخوف ولما رفع رأسه ليتحقق من الأمر، فوجىء برؤية مشهد غريب محير تمثل له في أولئك الأقوام وهم ينصبون خيامهم ويشعلون نيرانهم على أرض المقبرة. ولم تمض على هذه الأرض أيام حتى أصبحت مأهولة بالخلائق من الناس وحيواناتهم، وتكشف أن هؤلاء الناس ليسوا من القبائل المترحلة، بل من الأهالي الذين لم يعد لهم مكان في المدينة ولا في ضواحيها، فانسحقوا تحت تكاليف الاقامة الحضرية وتقيأتهم محلات العمارة والأحياء.

لم يكن مسعود يلوي على علل أو معاني ما يحصل من حوله، وإنما بات يعبىء كل ما أوتي به من فهم لرفع همّ واحد لا شريك له: بما أن الاحتماء بالموتى لم يعد يجدي نفعاً، فكيف الهروب من الوافدين الأحياء على أرض المقبرة، وإلى أين؟ لقد كان مسعود يغوص بكل فكره ووجدانه في سرداب هذه المسألة، ويحسب لها ألف حساب، ويذكر الحظوظ والآفات محولاً إياها إلى إدام يغالب به الجوع والعذاب... وفي اليوم الثالث من إقامته المنبطحة الأليمة، استسلم لقيلولة قاهرة ثقيلة لم يرجع منها إلى اليقظة إلا بفعل صراخ نفر من الأطفال اكتشفوه حياً متنفساً، بعد أن جمعوا كل ما كان

يغطيه من أحطاب وأعواد. وأتى الكبار لنجدة الصغار أفـواجاً أفواجا. وشكلوا حول حفرة مسعود الدوائر تلو الدوائـر، وكان القـول الصاعـد بينهم: «عبد فظيـع يفتعل المـوت للهروب من مولاه، فلا بد من تقييده وتسليمه لصاحب الشرطتـين!». وكان هذا الكلام وآخر يضاهيه شراسة ينزل على مسعود كالصاعقة المبيدة، فلم يطق الأمر، وزفر زفرة ثم نهض واقفاً، وصرخ ملء حنجرته قبل أن يأخذ في اختراق تجمهرات الآدميين، ممـارساً في حق كل من حاول الاعتداء عليه شتى أنـواع النهر والـزعق والتهـديد. وحـين مال صـوتـه إلى البحـاح والانهـاك لم تكن الأيدي تنال منه إلا ما ظـل عالقـاً بجسمه من أسمـال وخرق ممزقة. وما أن تهيأ لـه الافلات من تلـك الجماهـير حتى ألفى نفسه في خلاء بظاهر المدينة، عارياً تماماً ومنهك القوى، وجهـاً لوجه أمام فيلق من صفوة القناصة. وما حدث لمسعـود في هذا الظرف العصيب تناقلته محاضر كثيرة، كان أقربها إلى الحقيقة محضر صاحب الشرطتين الذي يحكي ما يلي:

– إن العبـد المسمى بمسعود قـد فاجـأه رجالنـا في أرض خلاء بجوار المدينة، وحاله أنه كان هارباً من مالكه وعارياً كما ولدته أمه. وقد أعطيت الأوامر لقناصتنا لتحاصره وتعمـل فيه الرمي بالرماح والنبال، حتى يستسلم أو ينهار جثة هامدة. ويا لهول منظر هذا العبد البئيس وهو في وسط الخلاء يعمل كل ما في وسعه لتجنب الاصابات: بالقفـز والزحف أو الاحتمـاء وراء ركام الأحجار والصبار! وبينما هـو في حالـة تستر واستـراحة يقلص أبعاد جسمه ويلحمه بالأرض مخططـاً لفرار شيطـاني، إذ انهـال عليه عتـادنا من كـل الجهات كـالصـواعق المنـيرة، ففاجأه في خطراته وقلب عليه الدنيا، مصيباً منـاطقه الحيـوية والثانوية عمودياً وأفقياً، ومعـرضاً حيـاته لنهب متصـل عتي.

ولما لم يعد العبد يبدي حراكاً اقترب منه رجالنا، فكان أن ذهلوا وكاد يصيب بعضهم الاغماء من جراء ما شاهدوه وما اكتشفوه: لقد شاهدوا أن العبد النازف الملطخ بدمائه، كثور مذبوح، لم يلفظ أنفاسه الأخيرة، بل كان ينتشل النبال التي أصابته ويجهد نفسه في سبهم وتوعدهم، ويبصق في وجه كل من حاول مسه؛ أما ما اكتشفوه وأزال دهشتهم مما شاهدوه فيتمثل في شكل وحجم ذكر العبد مسعود، الذي أجمع الجند أنهم ما رأوا نظيره من قبل أو سمعوا عن مثيله، فتنافسوا في التعجب وإطلاق الأوصاف والنعوت، التي كان مؤداها إلحاق سعود بفصائل الوحوش الضارية ثم تغييبه تغييباً وراء ضخامة عضوه وشذوذه. ولم ينته صخب الجند حول هذا الاكتشاف إلا بتدخل من قائدهم الذي أمر بحمل العبد إلى أقرب مستودع حتى ينظر في سجله ويثبت هويته قصد إرجاعه إلى مالكه.

*

زُجّ بمسعود في المستودع المتسع محله للدواب المريضة والبشر التالفين، واستعملت في الزج به كثير من وسائل القسر والردع والترهيب. ولم تمض ساعات على إقامته في المستودع حتى شاع خبره في مصر والقاهرة وفي كل الضواحي، وأصبح الكلام عن آلته الجنسية ينتشر في المحافل الشعبية، الى أن وصل الى مجالس الأسمار الفاطمية وتناهت أصداؤه إلى سمع الحاكم بأمر الله.

كان الذاهبون بخبر مسعود إلى الخليفة الفاطمي يشيرون على هذا الأخير إما بقتله، وإما بخصيه حتى تتخلص أحاديث الناس منه، وقليلون من ذوي قلوب الرحمة كانوا ينصحون

بتركه في المستودع أو في خيرية حتى يقضي نحبه. وبعد ان فكر الحاكم في كل هذه النصائح والاشارات ضرب بها عرض الحائط، وقرر، والليل يعلك سواده، أن يُدخل العبد مسعوداً في خدمته ويكلفه بمهمة خاصة. ولما أفضى بسر هذه المهمة الخاصة إلى دعاته الصناديد وفلاسفة المهرة تنافس كل هؤلاء في التسليم والترحيب بها، وفي التنويه والإشادة بعقل الحاكم الذي تخيل فكرتها، و«أبدعها من ليس».

لم ينقض على ميلاد فكرة المهمة الخاصة تلك زمن يسير حتى بادر حاملها الحاكم بأمر الله إلى إعداد ترتيباتها العملية، فأمر بالتعجيل في نقل العبد مسعود من المستودع إلى مصحة القصر ووضعه بين أيدي أحنك الأطباء وألطف الممرضات، حتى يتلقى الاسعافات الأولية فالعلاجات الضرورية، كما أنه أوصى للمالك النخاس سليمان الزعفراني بتعويض مالي مضاعف وببعض الأوسمة الفخرية.

قضى مسعود في مصحة الحاكم أياماً يتلقى فيها شتى أنواع التداوي المكثف، وأشكالاً من العناية الخاصة التي كانت المرضات بتعليمات سامية يتبارين فيها دلكاً ومداعبة وتهييجاً. ولما أن أخذ يتماثل للشفاء، صار يستهلك كل ما يقدم له من أطعمة ويطلب المزيد، مثيراً تعجب الجميع واستنكار مقتصد المصحة. وما أن وقف على رجليه معافياً، وأخذ يمشي ويحرك كل أعضائه، حتى أوعز الدعاة إلى البراحين بالانتشار في كل أسواق القاهرة والانذار بالمهمة الخاصة التي أسندها الحاكم بأمر الله للعبد مسعود، فانتشروا وردد كل واحد في دائرته:

ـ يا عباد الله، إن مولانا ومولاكم ينذركم بأن بلاده لا

مكان فيها ولا هواء لأي محتكر للسلع، أو لأي تاجـر يغش ولا يأتي الكيل بالميزان. وإذا ما عاث عابث في الأسواق والأقـوات فساداً، سلط مولانا عليه العبـد مسعوداً ليفعـل به عـلى مرآى الناس الفاحشة اللواطية العظمى. وإن مولانا بينكم، يا تجـار السـوء، فوق حمـاره الأشهب، يتربصكم، وعقـابـه أقـرب إلى مؤخراتكم مما في أمعـائكم من أكل حـرام. والحذار الحـذار، وقد أعذر من أنذر!

نـزل إنذار الحـاكم على تجـار مصر والقاهـرة كالصـاعقـة المظلمـة، وعلى عـامة النـاس ومعوزيهم خـاصـة خبـراً سـاراً ومنصفـاً، فصار المتضررون من هؤلاء يتـربصون بـالمحتكرين والغشاشين، ويفضحون كل من تمادى في الغش والتزييف ولم يـرعو. أمـا التجار فقـد أمسى معظمهم يقصرون نشاطهم عـلى إعمالِ مارق متخفٍ لحيل التدليس والتزوير.

*

في الشهـور الأولى من دخول قـرار الحاكم بـأمر اللـه حيز التنفيـذ، كان العبـد مسعـود ـ وقـد تحـول إلى آلـة للعقـاب اللـواطي ـ يعرف نشـاطاً مطـرداً حافـلاً مع أربـاب الاحتكار وتجار السوء. وكـان يغالب عيـاءه في آخر كـل يوم، من جهـة بالشعور المتزايد لديه بـأهميته وبقـدرته في تـرهيب من كانـوا بالأمس يرهبونه ويذلونه، ومن جهة أخـرى بما كـان بستهلكه من أغذية خاصة تقـدم له قصـد تجديـد القوة فيـه واستنفار شهـواته الشبقيـة، كاللـوز والهـريسـة ولحم سقنقـور النيـل وشحمه.

في هـذه الشهور الأولى من حيـاة مسعود الجـديدة، كـانت بوادر الغبطة والابتهاج تشرق على وجهـه وأسنانـه المكشوفـة

دوماً. وإدراكاً منه لمقامه عند الحاكم بأمر الله ولدوره في تصحيح مسار التجارة بقسطاسه المستقيم، تكوّن لديه وعي حاد بأن السماء قد وهبته فرصة ـ هي فرصة العمر كله ـ لكي ينتقم لنفسه من مجتمع برمته أنزل به الهوان وعذاباً لا يطاق. فصار في رحاب المدينة وأسواق القصبة كلها يمشي وأمارات العنجهية والخيلاء تسبقه، فيتجشأ على من أراد، ويضرب القفا التي لا تعجبه، أو يحشر أنوف بعض المتغامزين عليه تحت إبطيه. وكيف لا يتعنتر ويتسيد، وهو يرى كم من جرحى وقتلى ومنتحرين تخلفهم في صفوف التجار تفقداته وطلعاته الفجائية في الأسواق، مصحوباً بزبانية الحاكم وعرفائه أو بالحاكم نفسه على حماره الأشهب!

*

كانت جولات مسعود اليومية في أسواق القصبة لا تستثني أي سوق تباع فيها أقوات الناس ومأكولاتهم. وكان من نتائج طلعاته الأولى أن اختفى من سوق خان الرواسين الحان التي تلجأ إلى خمورها الرؤوس المغمومة، كما امحى من سوق القماحين أثر زعيراته، وهنّ قحاب تقفن على رصيفه بزي رجالي أحمر اللون، يمضغن العلك ويغمزن الزبائن المتسوقين. وكان هذان السوقان يحفلان بما تحفل به سوق حارة برجوان وسوق بين القصرين من بضائع اللحامين والخبازين والشرايحة والخضرويين واللبانين والجبانين والبواردية والطباخين والشوايين والعطارين وغيرهم. ولم يكن يتميز عن هذه الأسواق إلا سوق الدجاجين الذي كان يباع فيه الدجاج والأوز اساساً، وإلى جانبها أصناف القماري والشحارير والهزارات وشتى العصافير المغردة. وفي كل هذه الأسواق، لم

يجد مسعود صعوبة كبرى في تهذيب الباعة أرباب الحوانيت وردع تجاوزاتهم وخروقاتهم لأخلاق التجارة وجداول الأسعار فلم تنصرم الأشهر الثلاثة الأولى على مهمته حتى سجل المحتسبون جميعهم ميل الأنشطة التجارية إلى الاستقامة والاستواء رغم أنهم تهامسوا بتضاؤل أعداد المزاولين لها والمقبلين عليها.

طوال هذه المدة لم تبق في سجل فتوحات مسعود إلا نقطة سوداء واحدة، اسمها الباعة أصحاب المقاعد. فما الحيلة في مراقبتهم وإنزال عقابه بغشاشيهم، وهم كالبدو الرحل يمارسون في تعمير الأسواق مسالك الكر والفر؟ وكيف ينال من قوتهم وقد نظموا أنفسهم واستعانوا بالمخبرين والمنذرين من الشباب المتكسبين؟ وهب أنه انصرف إليهم انصرافاً فكيف يقبض عليهم جملة وهم يتشتتون شذر مذر في كل الدروب والمنعطفات؟ أمام هذه المعضلة الزباء أطال مسعود التفكير، فلم يجد لها مخرجا إلا في استثمار نقمة أرباب الحوانيب وسخطهم على الباعة أرباب المقاعد، وذلك بالسماح لأولئك بطرد هؤلاء كلما قعدوا للبيع أو لسد كل المنافذ أمامهم حتى يأتي هو وزبانيته للقبض عليهم جميعاً.

في ظهر ذات يوم تصاعدت من سوق الرواسين جعجعة شجار حامي الوطيس بين ذينك الفريقين، فهبّ مسعود وصحبه لمعاينة الحدث وإحصاء النتائج. وكان المشهد عبارة عن معركة جدية تستعمل فيها العصي والهراوات والمقاليع، ولا تسير لصالح هذا الفريق أو ذاك. ولما أن طال الصراع وأخذ بعض المتعاركين يجردون سلاحهم الأبيض، أمر مسعود زبانيته بحسم النزاع لفائدة أرباب الحوانيت وحجز سلع أرباب المقاعد مع إرغامهم على الفرار. وما أن نُفذ الأمر حتى

شوهد هؤلاء هلعين مذعورين يهربون بأرواحهم في كل حدب وصوب، ومسعود بجثمانه الضخم يلاحق بعضهم مسبوقاً بزفراته المخيفة. وبعد لأي وجهد جهيد، لم يظفر إلا بفرد واحد قليل النفس ضعيف البنية والعضلات. فشده من رجله، وجرجره إلى أقرب درب مظلم، وشرع يعريه من ثيابه ويجهزه من تحته. وما أن اقترب من تنفيذ العقاب حتى ارتد على عقبيه دهشاً سائلاً:

- يا الله، أأنتَ امرأة!

أجابت المرأة بتحد ونكاية وهي تسد تكة سروالها وتصحح هيئتها:

- امرأة أنا بزي الرجل، أبيع الجبن والحلوى في النهار، وامرأة أنا، بأنوثتي استرزق في الليل، فماذا دهاك يا ناكح الرجال؟ هذا استي فتغلب على ضيقه إن قدرث، أو هذا فرجي فطأه لتخرج منه بالزهري العضال. أراك بجثتك الفظيعة ترتعش أمامي أنا الخردلة والريشة في الريح العجاجة، فاخبر عني وعن طيشي وعصياني سيدك الحاكم، وإلا أخبرته أنا عن عجزك.

نهض مسعود متثاقلاً، ومشى متخاذلاً؛ والمرأة تتبعه بكلمات التشهير والتعيير. ولم تسكت حتى فاجأها بلكمة قوية على رأسها طرحتها أرضاً وأفقدتها وعيها. وتابع مسعود طريقه إلى مستقره في القصر، مكفهر الوجه، يكاد لا يلوي على شيء.

في صبيحة اليوم التالي، علم الحاكم بعد رجوعه من جبل المقطم بأحداث سوق الرواسين، إلا قصة مسعود مع البائع - المرأة. فنادى على المأذون وأمره بأن يردّ إلى أرباب المقاعد متاعهم، وأن يهددهم بالهلك إن هم عادوا إلى الأسواق ولم

يلتـزموا بـالبيع في الـدروب وفي الضواحي. ثم أمـر بإحضـار مسعود، فحضر، فخاطبه فرحاً مستبشراً:

- يـا عبداللـه، لقـد اطلعت عـلى تقـاريـر المحتسبـين عن حسناتك في الأسواق، وسررت بها كثيراً. وإني اليوم أريـد أن أرقيك فأوسع نطاق مهمتك الخاصة إلى بعض المدن والأمصار الأخرى في مملكتي. لذا فإن المحطة القادمة لمتابعة مهمتك هي الاسكندرية، حيث يتكاثر تجار السوء والمهربة ومزيفو السكة. وإني أعطيك أسبوعـاً للاستـراحة والاستعـداد. والآن، قواك الله عد إلى فراشك.

*

لقد خالج مسعود دائماً شعور غريب بالذنب ووخز الضمير، لكثرة ما علق بذاكرته السمعية والبصرية من أشكال المؤخرات والأستاه، وأنواع التوجع والتضرع والصراخ. وهـذه الأشكال والأنواع كانت تلاحقه في نـومه، وتمـر أمام عينيـه المغمضتين شريطاً مزعجاً مدمـراً، تعود فيـه باستمـرار حالات أصحـاب الأستاه الضيقة والمصابين بالبواسير. ومحاولة منه لإبعاد هذه الرؤى وتجنبها، صار في هذه الأسابيع الأخيرة كثيراً مـا يلجأ إلى مغالبة النعاس بالإفراط في تناول القهوة والعقاقـير الميقظة. وقـد خلق له كـل هذا حـالة من الإنهـاك الحـاد التي لم يكن يمنعها من البروز للعيان إلا ما كان يستهلكه يومياً من مقويات تحشوه بها مصالح الحاكم بأمـر الله... أمـا وقد قـرر الحاكم إيفاده إلى الاسكندرية لتأديـة المهمة الخـاصة نفسهـا في حقّ أقوام جدد، متضلعـين في فنون الغش والاحتكـار، فهذا مـا لا طاقة له به ولا مخرج له منه إلا الهلكة الهلكاء والموت المحقق.

منـذ هذا اليـوم المشؤوم الذي تلقى فيـه مسعـود القـرار

الخليفي، بدأت تدب إلى أوصاله حالة من الانهيار المتفاقم المرفق بالسقم الكلي والأرق المتواصل. وكان بين نوم خفيف ويقظة متراصة، لا يمر من حلم مزعج فادح إلا حلم أزعج وأعتى. وكانت جلّ الرؤى تأتيه بأرهاط من الحرفيين والتجار، كل رهط يتفنن في أساليب العبث والتنكيل به، ويكون هول الختم من عمل الجزارين الذين يخصونه أو يفعلون به الفاحشة اللواطية العظمى. وكان مسعود لا يدفع عنه هذه الرؤى إلا بملء الفراغ بحركات وتهديدات جنونية معززة بزمجرات وصرخات شديدة، كثيراً ما كان صداها يتناهى إلى سمع الحاكم بأمر الله، فيسأل عن الأمر فيقال له: «إنه العبد مسعود يرى ما لا نراه، ويحارب طوابير من الجن أو الخلائق الغيبية، وهو على حال مَن تخبطه الشيطان من المس». ويأمر الحاكم: «زيدوا في تعمير بطنه باللوز والهريسة، فإن لم يرجع إلى رشده وسالف عهده انهالوا عليه ضرباً بالعصى عساها تذهب عنه الحزن والعصيان».

لا التغذية القسرية حسنت من حال مسعود، ولا الضربات بالعصي جاءته بنفع ولو يسير، بل إن جسمه أخذ يفقد في كل يوم من وزنه، فما انصرم الأسبوع حتى بدا عليه الهزال ونتوء العظام. وصارت الألسن تتحدث عن ذوبان العبد وتآكله، وأنفقت أخرى بلاغة ماجنة في وصف غيابه التدريجي وراء حجره، وتلاشي حجره وراء جهازه الجنسي.

كان مسعود، وهو في هذه الحالة من الانطفاء والانسحاق، يُحمل قسراً ويجر جراً إلى الأسواق، ليرغم هناك على مواصلة واجباته في المهمة الخاصة المنوطة به. وقد ظهر جلياً لعيان الحراس والمعاقبَين معاً، وتبين للتجار عامة أن مسعوداً قد

أصابه قصور شامل، فلم تعد تجدي فيه عقاقير الانهاض ولا كلمات التحريض والاستنهاض. وكيف لا يضحى، والحالة هاته، محط تشهير الجميع وسخريتهم ونكايتهم!

*

بعد أن انفضح أمر مسعود وأصبح ضياع رأس ماله في حكم اليقين، فُرضت عليه إقامة إجبارية في زنزانة بجوار اسطبل القصر، وهنا صار ينام هادئاً مسترخي الأعصاب، أو يفيق ليأكل ما يقدم له من قوت زهيد ويطلقَ ضحكات اليأس والمرارة.

لا سبيل إلى الهروب بعد هذا اليوم ولا جدوى من التفكير في الفرار! فالجحيم عند هذا العبد لم تعد ترسي أركانَه وتؤجج لهيبَه نظراتُ الآخرين وسيوفهم، بل الجحيم أمسى في داخله يقيم لتسلطه بؤراً وأعشاشاً. والحال أن مسعوداً لم يعش قط حروباً وثورات ولا كوارث طبيعية، ولو جرّب كل هذا لربما كان الخطب أهون والشر أقل، ولكان اللطف. بل إن الكون من حوله كان دوماً متراكماً متراخياً وزاخراً بالعادياتِ والاكتظاظاتِ المتكررة التي لم تكن تفتح عليه دائرة الوعي المدرك أو تثير لديه تساؤلات مؤلمة أو ارتياباً. لا، إن جحيم هذا العبد كان من ذلك الصنف الذي تطغى فيه ذاكرة التفاصيل المرعبة، تلك التي في سراديبها يغوص كل يوم قدراً مقدراً، ولا يهرب من فادحها إلا إلى أفدحها، فكان يختنق ويطلب الخروج من الدنيا ومن المؤخرات والأستاه التي تلاحقه بجروحها وذمائها، ويطلب لجسمه الملعون الزوال الكلي. وهكذا صار مسعود يمد عنقه مدا ويطلب من السيوف والرماح ضربات القطع والرحمة. ومن كثرة ما عاود هذا المد وألح في هذا الطلب، صار

في زنزانته يرى رأسه مقطوعاً قطعاً لا شك فيه، فيهمد، ويضرب عن الطعام، ويتوعد الحراس بنتانة جثته إن لم يضعوه في تابوت ويقبروه إقبارا.

*

بمرسوم من الحاكم بأمر الله، منع المخبرون من التحدث في موت مسعود. لهذا تكاثرت الروايات حوله في الأسمار الشعبية والحلقات الأدبية، فمن رواية تقول إن مسعوداً اقتحم مجلس الحاكم متأبطاً تابوتاً وقال له: «يا صاحب الحضرة، لا عفوَ أطلبه ولا أماناً. إن كنت لا تحيي فلك ان تميت، وهذا تابوتي فضعني فيه وألحفه بجوف التراب، وموعدنا يوم الحشر، ولا غالب إلا الله». فما كان من الحاكم، نزولا عند رغبة العبد ورفعاً للتحدي، إلا أن نفذ طلبه... ومن رواية أخرى تقول إن مصالح الحاكم قد كلفت وفداً من الجزارين رفيع المستوى بأن يفعلوا بمسعود ما فعله بهم أو بزملائهم، وذلك إلى أن يسلم الروح... ومن رواية تدعي بأن العبد مات على إثر خصي غير موفق.. ومن رواية أخرى تزعم أن مياه النيل تقيأته، فتأكد بعد الفحص الطبي أنه مات منتحراً بمائة طعنة وطعنة.

الباب الثاني
في المجالس الحاكمية

I

الجلوس في دهن البنفسج

وكان سببَ بغي الحاكم في جميع ما يقصده من هذه الفعال العجيبة ـ المتضادة التي تقوم في نفسه ويفعلها شيئاً بعد شيء ـ صنفٌ من سوء المزاج في دماغه، احدثَ له ضرباً من ضروب المالنخوليا وفساد الفكر منه منذ حداثته. فإن من المتعارف في صناعة الطب انه قد يكون، فيمن يعتريه هذا المرض، أنه يقوم في نفسه أوهام، ويتخيل أموراً وعجائب، ويكون كل واحد منهم لا يشك أنه على الصواب فيما يتصوره في جميع افعاله، ولا يثنيه عن ذلك ثانٍ ولا يرده راد. وأن قد يكون منهم من يظن بنفسه أنه نبي. ومنهم من يتوهم أنه الإله بنفسه ـ تعالى كثيراً ـ ويكون يقوم من هؤلاء من اختلاط الكلام ظاهراً واختلاله ما ينكشف (به) حاله عند من يشاهده ويحادثه، وتزول الشبهة فيه من أول وهلة. وربما كان تخليط أحدهم في الكلام مستوراً، وتكون هذه التخيلات والخواطر الرديئة تعرض له في أمور مستورة عن العوام، فتكون صورته عندهم صورة العقلاء، وحسن ظنهم به ونظرهم إليه كنظرهم إلى أفاضل الناس فإذا أطالوا اختبارهم بأن لهم ما انطوى عنهم في نقضهم. وهذه صورة الحاكم: فإن نقضه كان يتبين لمن تطول صحبته له. وأما من هو بعيد عنه فإن أفعاله كانت توضحه له. وقد يستدل على حقيقة هذا المرض المستحوذ عليه أنه كان قد عرض له في حداثته تشنج، من سوء مزاج يابس في دماغه، وهو مزاج المرضى الذي يحدث في المالنخوليات، واحتاج في مداواته منه ـ مع ما كان يعالج به ـ إلى جلوسه في دهن البنفسج وترطيبه به. وإن كثرة سهره أيضاً وشغفه بمواصلة الركوب والهيمان والدائم مما يقتضيه هذا السوء المقدم ذكره. وإن أبا يعقوب اسحق بن ابراهيم بن نسطاس لما خدمه استماله إلى أن تسامح في شرب النبيذ وسماع الأغاني بعد هجره لها ومنع

الكافة منها، فانصلحت أخلاقه وترطب مزاج دماغه، واستقام أمر جسمه.
ولما مات أبو يعقوب، وعاد إلى الامتناع عن شرب النبيذ ومن سماع الغناء،
رجع إلى ما كان عليه».

يحيى بن سعيد الانطاكي، **صلة تاريخ أوتيخا**

في ليلة من ليالي صيف سنـة تسع وتسعـين وثلثمائـة، كان الحاكم يقيم في منزل خلوته بمنظرة السكرة، وقـد لبى نصيحة طبيبه النصراني ابن نسطاس بـالجلوس في جفنـة دهن البنفسـج وشرب النبيـذ، حتى يـرفـع عن دمـاغـه ومـزاجـه اليبـوسـة والجفاف، ويطهر نفسه من التشنج وبخار المالنخوليا. ومـا أن أخذ يستوي على برج الخفة والاسترخاء، عاريـاً إلا من مئزر، حتى نـادى كبار الـدعـاة فحضروا وقبلـوا الأرض وقعـدوا في ركنهم المعتـاد، ثم نادى عـلى المغنين فـأتوا فتيـانـاً وفتيـات، وشنفـوا سمعه بـأعذب الأغـاني وأرقها. ولمـا مـال طبعـه إلى الليـونة والنقـاء وشعر بهيجـان النعومـة والهدوء عليـه، أذن للمغنـين بالانصراف، وطلب إحضـار غلام القلم، فـأحضر وفي يده الأوراق والأقلام، ثم أعطى أمرين، واحداً للحرس بالرواح والآخـر للصبي بـالتعـري والجلـوس معـه في الجفنـة تهيؤا للكتابة.

*

هذا الليل الصيفي لا يميزه من حيث الظاهر شيء عن باقي ليالي الفصل: السماء المرصعة بالنجوم هي هي، والقمر الطالع في دوره وضيائه هو هو، والسكـون له نفس العمق والامتـداد.

اما باطنياً، فهذا الليل لا يجود الوقت بمثله إلا قليلاً، وعند اشتداد الحمل واختمار الوجد. لا تألق لهذا الليل ولا تعريف له إلا بحال الحاكم وفي معجم إدراكه وفيض الخطرات القهرية عليه. ليل كهذا لا يميزه ولا يشفع له إلا رغبة الحاكم في ضبط دواره الداخلي وتسريح القول في أعراضه وهواجسه، طلباً للشفاء والنجاة، طلباً للكتابة المنقذة.

حين أخذ الحاكم يملي خطراته القهرية على الغلام، كان لا يزال مترنحاً بين لذتين: لذة دهن البنفسج ولذة النبيذ الصاعد في رؤاه، قال:

ـ الرأسُ الطفلُ ومأساتهُ، انشقاقُ الرأسِ وتاريخهُ: خريطتانِ لتأليفِ المحنة، الأمعانِ والاتيانِ في ركبِ المشقة...

عن أتعسِ الرؤوسِ قد لا يفيدُ القولُ قد لا يفي.

أتعسُ الرؤوسِ أبرزها الرأسُ الحزينُ الذي في جوفهِ نائحةٌ.

أتعسُ الرؤوسِ الرأسُ المحمومُ الذي كسرَ المجاذيفَ والسندَ، وشقَّ المياهَ، ثم ارتدى الخيشَ أمام اللهِ منتظراً يبسَ سرواله في الشمس، سروالهِ الذي لثمَ الأمواجَ والعذارى، وكان ذات يومٍ قبلةَ الحواملِ والثكالى.

محنةُ الرأسِ في الغيابِ وراءَ حجمهِ.

حجمهُ في قياسِ القشعريرةِ واكتئابِ العين.

آيتهُ القفارُ حيث لا رئيسَ ولا مرؤوسَ، وحيث يُرى وحدهُ يغطسُ في الرملِ آلامهُ، ويقاومُ بالسهوِ والتأجيلِ تدحرجهُ.

لا محيدَ للرأسِ عن الاختفاءِ وراءَ ظلّهِ، كبيضةٍ تتركُ لونها

وتمضي. لونهُ كلونها: بياض التكرارِ والبدءِ، بياض الكتمانِ والسترِ.

*

وسكت الحاكم هنيهة ثم أملى:

لو كنتُ صبياً لطالبتُ بأب يعلمني رميَ المرأةِ والمرايا، ويعلمني الركوبَ والغياب، ويورِّثني صحراءَ في داخلي مترامية الأطرافِ كالمصير، ويورثني حبَّ الانتعاشِ بالصمتِ والنعوشِ وبالعدمِ.

لو كنتُ صبياً لطالبتُ بأب في صدرهِ بقيةٌ من الجاهلية، بأب يعلمني بما أوتي من حسٍّ وعرفانٍ وشاعرية: كيفَ أحرقُ الجُدرانَ ولو كانت من حرير،

وكيفَ أعبد البحرَ وأبولُ فيه...
لو كنتُ صبياً لحلمتُ بأب يقولُ لي:
في هذه الأزمان تصدّعَ الحبُّ والعرفان،
فأضحى كلٌّ يحملُ جهلَهُ أو يشكو من ناقته،
وأضحى كلٌّ يعملُ على شاكلته.
وأنت مالكَ إلا أن تهيمَ في البراري وتديرَ للخلقِ ظهرك، أو أن تكرسَ للجنونِ في حكم الناسِ عمرَك.

*

عاد الحاكم إلى الثبوت في سكون مطبق، ثم في ما يشبه الغيبوبة. ولم يخرج من حالته إلا ليطلق الكلام دفعاتٍ، فكانت متابعتُها بالتقييد تستعصي على الغلام المرهق الذي لم يقبض فيها سوى على تفاريق، منها:

ـ البريةُ البرية!

الأملُ المرتعشُ والأقاويلُ القاسية!
أعلمُ الخوضَ في حياةٍ لا حلاوةَ تسكنها ولا آفاقَ لها.
أعلمُ العورةَ اليتيمةَ: إما أن تكونَ وحدها أو مع غيرها.
أعلمها تسيرُ وحيدةً أو مخالطةً، تسيرُ نحو حفرتها أو تسيرُ نحوَ اعوجاجها قبلَ الانكسار.

في المثوى حيثُ لا حراكَ ولا عـراكَ: يطيبُ التفكرُ أو يصيبُ التـدبرُ، فيـأتي الموتُ عنـدئذٍ، يـأتي في الوقتِ حثيثَ الخطى، يأتي في الوقتِ.

عبثاً نتقدمُ في السنِّ ونهرمُ، لأننا نتعلمُ الحيـاةَ حينَ تنقضي الحياةُ، حينَ ننقضي.

(...)
تكررَ الموتُ ـ ولا ابتكـارَ! ـ. قلتُ لا بأسَ ولا حـرجَ: تدفـعُ الأرحـامُ الخلقَ وتبلعُ الأرضُ الخلقَ، قلتُ لا بـأسَ إن كانَ في الـدفعِ والابتـلاع: التصـرفُ المتبصرُ والألمُ الأدنى والضـررُ الأقلُّ... لكنَّ الأمرَ كـانَ العمى، وكانُ المكـانُ المهتزُّ والامكـانُ السعيـدُ في مأزقٍ، كـانَ الدخـانُ والزحمـةُ وضيقُ المحل بـدلَ الانعاشِ القوميِّ، وسعةِ المجال بدلَ الهواء.

قلتُ: قبلَ أن تبلعني الأرضُ، ها أنذا أتبوأ الفرحةَ العليـا، وأسـيرُ نحـو الثبـوتِ الأسمى. هـا أنـذا اسـيرُ حتى تستقيمَ هامتي ويحصلَ تشغيلُ طاقاتي.

(...)
انتظرتُ جسمها الآمنَ أن يزفَّ إليَّ:
حصةً وضاءةً تبلورني،
نهداً متنهداً،

كيمياءَ سعادةٍ وزينةً.
ولما زُفَّ إليَّ كان بعد وجيزِ الوقتِ آفةً، زلةً وهباء.
قلتُ: الأناةَ الأناة!
وتريّثتُ ريثما ينقشعُ الغيمُ وتصفو السماء
ريثما تأتي الحياة...

لكنْ من حيثُ لا أتوقعُ أتتِ الواقعةُ، أتتِ الأحاسيسُ الخطيرةُ والفاجعةُ. جاء البقاءُ بفرضِ السقوط، صرتُ دونَ التحكمِ في المنحنى، دونَ المشعلِ والفأسِ، أخوضُ كلَّ يومٍ صراعاً للحيلولةِ دونَ انفجارِ الرأسِ، للحيلولةِ دونَ انهدامِ الوجه.

(...)

وذاتَ يومٍ، قمتُ، عن بكرةِ أبي وقلتُ للنساء اللواتي شاركنني فراشي: حدثٌ لعمري رائعٌ أن أطرحكنَّ في توابيتَ مسمّرةٍ، وأرميَ بالتوابيت في جوفِ النيل... وهجرتهن، ورحتُ في ربوعِ الفجر، عائداً إلى الانشغال بشمِّ الوردِ والانصاتِ لحفيفِ أجنحة الطيور.

(...)

قضيةُ القضايا: تغييرُ الدنيا! محبةُ التغيير: الاندفاعُ نحوَ فكِّ الارتباطِ بينَ الذاتِ والقمعِ والخصاصة. محبةُ التغيير: إبطالُ التناقضِ بينَ الحياةِ وما يقهرُ الحياةَ ويبيدها. لكنْ يا دعاتي: لماذا يلزمني دوماً شربُ النبيذ واقتناء شتى الأعشاب لخلق تلك المحبة في ذاتي؟

ستبلى حِيَلي وأدويتي، وتنهدمُ الوحداةُ تلوَ الأخرى صيدلياتي. سأقضّي العمرَ ما تبقى منهُ في محاولاتٍ عديدةٍ

عنيدةٍ لفهمِ ما جرى، لفهمِ ما لم يكن في الحسبان، لإدراكِ هذا الانقباضِ بالعينِ المجردةِ، هذا الانقباض الدفينِ الأثريِّ الذي يصاحبُ الفردَ المفردَ المختلطَ، يصاحبهُ كالرعدِ تارةً، وكالموالِ الطويلِ الأنينِ طوراً.

ماذا هناك غيرُ ما جرى وما حدث؟ الحدثَ الحدث! وماذا هناك غير الانقباض؟ والانقباضُ نوعان: انقباضٌ عاديٌّ يبررُ نفسهُ بنفسه ويتضافر على خلقهِ: صدأ الأيام ووعورةُ حفظِ الصحةِ والسلامِ واعتداءاتُ الآخر. وهناك انقباضٌ استثنائيٌّ يسكنُ الفرحةَ ويرافقها كتعبير مستتر عن الخوفِ من ضياعها. وفي كلا الانقباضين: السيادةُ للتنهيدة، التنهيدةِ التي لا يقهرُ سيادتها شيءُ اللهم إلا سيادةُ الغيبةِ الدائمة.

إنما على كلِّ حالٍ، وفي كلِّ الأحوالِ المتدهورة، وبعدَ الغيبةِ الواحدةِ بعدَ الألف، وبعدَ الخلوةِ الواحدةِ بعد الألف، ومهما كانت وطأة الآلام وشدةِ العسر، يظهرُ أني سأتحسسُ ذاتي لأرى متيقناً مستغرباً أني ما زلتُ حيّاً وما زلتُ ممكناً فيكم. ويبدو لي أني سأجمعُ ما تبقى من حضوري وقوتي، ومستقيماً أضربُ في المدائنِ والوهاد، مفكراً أنهُ لا أحدَ في الحكمِ يقدرُ أن ينالَ من أنفي، لا أحدَ يقدرُ أن ينالَ من نزوعي العنيدِ نحوَ تحقيقِ الارتباطِ والاتفاقِ بينَ رئتيَّ والهواء... لا بدَّ أن يظلَّ فكري منجذباً نحوَ قطبهِ الشرقيِّ، لا بدَّ أن يظلَّ ارتفاع هامتي رأس مالي.

(...)

الراجحُ الراجحُ أني بعدَ كلِّ ما جرى (ويا لوعتي مما جرى!) سأذرعُ الدروبَ والشوارع جيئةً وذهاباً، سأذرعها وحالتي أني أغني نشيداً حماسياً، والدراويشُ يرقصونَ بين

يديّ. سأقول إني الذرةُ الفرد، فما بالي أحملُ همّي وأخافُ من هلاكي، أخافُ كأني الأول أوِ الأخيرُ الذي يهلكُ؟

سأنظمُ أبياتاً شديدةً في هجاء الغربة،

وأسيرُ بصيَغِ الجمعِ أتهجى الكلَّ وأنشدُ التوحيدَ والوحدة...

كنتُ ما زلتُ أتمشى. والمشيُ على الاقدامِ، حسبَ رأي الحكماءِ والأطباءِ، رياضة تجلبُ للجسم الفائدةَ الكبرى، وتقوّي قدرتهُ على مقاومةِ الانقباض نفسيّاً كان أو عصبيّاً: ألا أيتها النفسُ القانطةُ اضربي في مناكبِ الأرض، وقفي موقفَ السعي. كنتُ ما زلتُ أتمشى وأفكرُ في كتابةِ سجلاتِ النهي والردع، ونموذج لشاهدتي أنا الذي ما زلتُ على قيدِ الحياةِ، واعجباه! ومازلتُ أنظرُ جدياً كيفَ أحوِّلُ لصالحي كلَّ الأقدارِ والمحنِ الصماءِ التي لازمتني.

بعدَ أيامٍ قلائل، خامرتني فكرةٌ جديدة: قلتُ ربما الخلاصُ ـ التلهي في الزواج من جديدٍ ومدحِ الفراش، أو في تعلمِ أصواتِ الحيواناتِ المفترسة. ربما الخلاصُ في اصطيادِ العصافير والفراشات، أو في أكلِ اللوز البارد... ولربما الخلاص أيضاً في جمعِ الرؤوسِ المقطوعة أو في تدوينِ سفرٍ حولَ فوائدِ المزاح.

وذلكَ كلهُ ريثما تعودُ المياهُ إلى مجاريها، وتقلُّ حدةُ النوازلِ وتجيءُ الرتابةُ والعادةُ لطمسِ وتعليبِ الأجسام.

*

خيم على المكان صمت رهيب، وأطفأت رعشات الدعاة في زاويتهم الشمعة القريبة منهم. وكان الحاكم، تحت تأثير النبيذ

ودهن البنفسج، ينعم بالعرق المتصبب على جسمه وبالدم الفائرِ في شرايينه. وفجأة انتصب واقفاً وشرع يتحمس في الكلام كأنه يخطب أو يملي سجلات. أما غلام القلم فقد زاغ عن الجفنة، وظل على الأرض يجاهد التعب ويكتب ما يسقط في سمعه من كلام سيده. قال الحاكم:

ـ إني لمحوِ الهمِّ المقيمِ في البصر، هممتُ بالنيلِ وهمَّ بيٍ، هممتُ بالطيرِ وهمٍّ بي. ولإحياءِ الصلاتِ والرحمِ، ركبتَ الزورقَ المبحرَ في النورِ، ركبتهُ يقودني موالُ الطائرِ البحري، يقودني إليكم يا دعاتي.

(...)

يبحثُ عن مصيرهِ جسمي ذو النصفِ الخرافي،
أضعُ الحجرَ الأساسيَّ لمسقط رأسهِ،
أضعُ الرأسَ بينَ هلالين من الجمرِ،
وأفتحُ الطريقَ في وجهِ دَعاةِ الوعيَ والسرِّ،
ثم أمشي في الأرضِ شاهراً سيفي وتجبُّري
على من ينكرني بالعقلِ أو بالسحرِ.

(...)

لا تشرقُ الشمسُ عليَّ لأنيَ كهفٌ...
لأنيَ كهفٌ معشوشبٌ،
لأنيَ كهفٌ معشوشبٌ، ينهارُ وسجنٌ،
لأني سجنٌ أثريٌّ وخريطةُ سرٍّ...

لا تشرق الشمسُ عليَّ، إنما في صدريَ أرى كوكباً مشتعلاً يبحثُ عن أنثاه، وعن بلدٍ ورعية.

وأراني أمسكُ بآخر خيطٍ، فألقي في السماءِ طيوراً

لأصطادها، وأطرق الأبواب وأقول: من الطارقُ؟

لا تشرقُ الشمسُ عليَّ، إنما لكي أيأسَ من يأسي، وأعيدَ النارَ إلى مخابئي، أجوبُ البلادَ، فإني آتٍ...

وحقي في الحكمِ والنقضِ! إني آتٍ بوجهٍ متوهجٍ من الخفايا وآخرِ المعاقل. إني آتٍ من أسواقِ الوجودِ وأمكنةِ الدنيا، لأخبرَ الصباحَ وأخبركم. فافتحوا لي صدوركم يا دعاتي وعانقوني، وارفعوا أيديكم وعاضدوني.

(...)

أنا الذي أتى الزمانُ بي،
لا تشفعُ لي إلا أسبابُ الصدفةِ والنسب.
أنا ابنُ العَرَضِ الذي يرومُ الحلولَ في الكينونةِ والقدر.
ولي ما استطعتُ أن أناقضَ الريحَ
بالهدم والتشييدِ في حقولِ المعمارِ والحجر.
ولكم أن تكتبوا عني ما شئتم،
فخيامي تحتاجُ إلى أوتادِ حبكم وحسائفكم،
كما الأرضُ تحتاجُ إلى الشمسِ والمطر.

*

عاد الحاكم إلى الجلوس في جفنة البنفسج، فقفز فيها غلام القلم، واستمر في نسخ كلمات سيده الذي أضحى صوته يتأرجح بين الصعود والهبوط، بين الاندفاع والإنهاك. قال:

- دلوني عما أبتغيهِ من الحكمِ والناسُ نيامٌ أو ساهون، وسيلانُ الوقتِ يعملُ من حيثُ لا أدري على استهواء نحبي.

وأنا أسودُ بياضَ الأيام، أشعرُ أني أخرجُ من حضرةِ

الكـونِ إلى قبضـةِ السر، وأتـرقّـبُ في مـدارجِ الخنـدقِ والاعتصام.

تعبٌ كلها السياسـةُ، فما أعجبُ إلا من متكـالبٍ على مـلءِ السلطاتِ.

أتعبُ منها، لا لأنَّ القريحـةَ جفّت أو القرحـةَ التأمت، بـل لأنَّ حصتي من نعرتها، في أنجحِ الحالات افتتـانٌ هو ولحمـةُ أوهامي على حدٍّ سواء.

كلَّ ما ابتغيـهَ من السياسـةِ أن أمرَّ أنـا وأخلِّفَ من ورائي رؤوسـاً في حالـةِ تأمـلٍ وتمعنٍ، أو في حـالـةِ طيـشٍ وشرود. وأمـا إن خانني الفلاحُ، فسحقاً للحكمِ وتبّاً لكل تبارٍ في مـداه بالسيوفِ والأقلام.

(...)

لكل قرنٍ قارعتُه.

وأنا قارعةُ هذا القرنِ لرُبْعهِ.

فتحملوني أنا المتـربعُ فـوقكم تحتَ شارةِ السرطـانِ في فلكِ البروج.

(...)

تأتي على فكـري أحيان لا يـرى فيها إلا العتمـاتِ والطرقَ المسـدودة، فينزوي وينطـوي على قـواعده، وقـواعدهُ كلهـا لا تفضي إلا إلى الأعـراض والعـدمِ السحيقِ. إذ ذاكَ أعلـمُ أن نفسي في حاجة إلى النجومِ والرياضة العليا.

تأتي عليَّ أحيانٌ أطلقُ فيها العنانَ لخاطري ليسرحَ ويمرحَ كـالفراش المفتـون، فلا أراهُ يـلاحق إلا النفايـات أو صغائـرَ الأمور، إذ ذاك أدرك أن ما يسكنني هي الـدنيا، وأن نفسي في

أمسِّ الحاجةِ إلى النجومِ والرياضةِ العليا.

(...)

الجسمُ عورةٌ والنفسُ أمارةٌ بالسوءِ، فأينَ الملاذُ وكيف المخرجُ.

إني أغرقُ النظرَ في مستنقعاتِ الفراغ، وأحصي الأجرامَ السابحةَ في أفلاكها، حتى تذبلَ وأتعبَ، أو أعودُ إلى سُرّتي، وأنزلُ فيها مغمضَ العينينِ وعلى أذنيَّ أقفالها.

لكن في كلتا الحالتين، وفي كلِّ حِيَلي لتغييب أنايَ المهيمنِ الطاغي: تظلّ حيّاتي ذات النواقيسِ ترقصُ من حولي وتهددني بسمومها وامتداداتها الفتاكة. وأقضّي الساعات في البحثِ عن أفيدِ الأفكارِ للحيلولةِ دونَ تجليها.

فأقيلوني من الكلام كلهِ، إلا ما كان منه حيّاً فواراً يبيحُ النطقُ به هدرَ دمي.

دعوني أبثُ في سجلاتِ الممكنِ والمستحيلِ عم يدّوخُ الأبصارَ، ويقْلِبُ الأعينَ، ليأتيَ أفكاراً منحوتةً من صلصالٍ ونار، تشيبُ لها النواصي، وتحيّرُ العقول والأفهام.

(...)

في هذا الليلِ الحالكِ وحولَ ضوءِ هذه الشمعة المتآكلة: تراكم هل تعرفونَ ما يجولُ ويصولُ في خاطري من هواجسَ سوداء، بعضها كالحشراتِ اللاسعة، وبعضُها كالزواحفِ الفتاكة.

وحقِّ حماري القمر! لو عرفتم بعضها لتسابقتم شعوباً وقبائلَ صوبَ المنافي، أو لخندقتم على أنفسكم في أدغالِ الصمتِ والهمود.

لذا سأظلُّ أخفيها وأكدُّ في تغييبها عن حيِّز الحدوث، ليس رأفةً بكم أو عطفاً عليكم، بل لأني أخشى أن أصبح راعٍ بلا رعية، أو سيفَ اللهِ الذي لا يحصدُ إلا الريحَ والغبار.

وفي المسافةِ التي تفصلني عن البوح، أتلهى بغمسِ يديَّ في دمِ عينةٍ من عبيدي، أو بالرؤيةِ إلى عوراتِ الغلمان، طالباً منهم واحداً واحداً: «أرني قمرك»، حتى أتبين الناجيَ من الهالك.

(...)

تأتي عليَّ أحيانٌ تكبلني بالرغبةِ في أن تستأذنني الكوارثُ الطبيعيةُ بالحدوثِ والحلولِ لأجيبها:

أعطيكِ الآن وليسَ غداً هذي الأرضَ ومن عليها، فصولي فيها، واعبثي بنواميسها وطقوسِ سكانها، وأعيدي نشأتها طوفاناً مخلقاً جديداً.

(...)

ما لأحلامي المرعبة تدور في حلقات؟

منذ أخذتُ بمقاليدِ الحكمِ بأمر الله، فادحةٌ هي الأحلامُ المرعبةُ التي تصيبني وترهقني في كل ليلة جادت عليَّ بالنوم! ومنها على سبيلِ المثالِ لا الحصر: أني أراني أسقطُ مطعوناً، كما سقطَ الامامُ عليّ والحسن، أو أرى راسي مقطوعاً يتدحرجُ كما تدحرج راسُ الحسين. وأراني أتضاءلُ وأطلبُ النجدةَ ولا من يحركُ ساكناً. ومن كثرةِ الألمِ والفزعِ أستفيق، فأتحققُ فرحاً أن ذلك كابوساً ليس إلا. وما أن يعاودني النعاسُ حتى ترجع جحافلُ التآمرِ والإبادة لتنهالَ عليّ، من غير أن تقتلني أو تفقدني وعيي. وقدَ يتكررُ الحلمُ المرعبُ في حلقات، آخرها

أهــولُ من سابقهــا.. فتصوروني إذن إبــانَ يقظتي، وتصوروا ألوانَ التجهمِ والكدرِ على كلِّ جهاتِ وجهي.

فكيف لي أن أخفيَ هـذا الوجـهَ عن رعيتي، وألا أسعى به بينها منيراً سبيلي واحتياطي بأسلحةِ البطشِ والخديعة؟

(...)

إني من البكـائين الـذين يذرفـون دمعاً من النـوع السيال الشديدِ الحار، وإني لا أقدرُ على وصفهِ، وإن وصفته فلن آتيَ بأحسنَ مما قاله الشعراءُ والصوفيةُ في باب البكـاء، فراجعـوا إذن ما قيل في هذا الباب حولَ الغُمة والعينَ الدامعة.

أما لماذا أبكي، فمرده بدءاً إلى كـوني لا أجدُ بـديلاً للعنف لتقويم رعيتي وأربابَ دولتي، ثم إلى أن كلَّ أعمالي ومغـامراتي في السياسةِ إنْ هي إلا نقطةٌ في بحرٍ لا قاعَ له.

(...)

من الأسرارِ ما لا أقوى عــلى قولـهِ إلا يومَ أكـون من الموتِ عــلى قابَ قـوسين أو أدني. فــانتظروني عــلى فراشِ هــلاكي، لأمدكم بما يفضحني ويفش عظمتي وجلالي.

*

كان الفجر آخذاً في البزوغ حين بدت عــلى الحاكم عــلامات الأرق والإرهاق، فقام مسرعاً ونظر في عـورة غلامِ القلم نظـرةً، ثم ارتـدى جبته وغـادر منظرة السكـرة قاصـداً مخـدعـه في القصر. وما إن غاب حتى تسابق الدعاة نحو الغـلام، فأخـذوا منــه الأوراق، وتباروا في نسخهـا لكي يعرضهـا كل منهم عــلى ضوء فهمه وبصيرته، ويرتاد بهـا في مجالس الخـواص مدارج التأويل والحكمة.

II

الجلوس لطلب الدهشة

«ومن النكت المضحكة: كان في زمن الحاكم قاض بمصر يقال له النطاح، وسببب ذلك أنه كان له طرطور فيه قرنان من قرون البقر فيضعْه إلى جانبه فإذا جاءه خصمان يتحاكمان عنده وجار أحدهما على الآخر يلبس القاضي ذلك الطرطور الذي فيه القرنان ويتباعد وينطح الخصم الذي يجور على صاحبه، فاشتهر أمره بين الناس بهذه الواقعة. فبلغ أمره إلى الحاكم فأرسل خلفه، فلما حضر بين يديه قال له ما هذا الامر الذي قد اخترعته حتى قبحت سيرتك بين الناس، فقال يا أمير المؤمنين، اشتهي أن تحضر مجلسي يوماً وأنت من خلف ستارة لتنظر ماذا أقاسي من العوام، فإن كنت معذوراً فيهم وإلا عاقبني بما تختار. فقال له الحاكم انا غداً أحضر مجلسك حتى أرى ما تقول. فلما أصبح الحاكم أتى إلى مجلس ذلك القاضي وقعد من خلف ستارة. فأتى إلى القاضي خصمان فادعى أحدهما على الآخر بمائة دينار فقال فاعترف له المدعى عليه بها، فأمره القاضي بدفع ذلك إلى صاحبه فقال المدعى عليه اني معسر في هذا الوقت فقسطوا علي ذلك على قدر حالي. فقال القاضي للمدعي ما تقول؟ قال أقسطها عليه في كل شهر عشرة دنانير فقال المديون لا أقدر على ذلك، فقال القاضي تكون خمسة دنانير، فقال المديون لا أقدر على ذلك، فقال القاضي تكون دينارين، فقال المديون لا أقدر على ذلك، فقال القاضي تكون ديناراً، فقال المديون لا أقدر على ذلك، فلا زال القاضي يدرجه حتى قال له تكون عشرة دراهم في كل شهر وهو يقول لا أقدر عل ذلك، فقال له القاضي وما القدر الذي تقدر عليه في كل شهر فلعل أن يرضى به خصمك؟ فقال المديون أنا لا أقدر على اكثر من ثلاثة دراهم في كل سنة بشرط أن يكون خصمي في السجن لئلا يحصل مني هذا القدر ولا أجد خصمي فيذهب مني، فلما سمع الحاكم ذلك لم

يملـك عقله وخـرج من خلف الستـارة وقـال للقـاضي انطـح هـذا النجس الشيطان وإلا فأنا أنطحه، وكان الحاكم أحمق من القاضي، انتهى».

إبن إياس، **بدائع الزهور**.

عندما كانت القضايا والمظالم تشكل على اجتهادات القضاة، أو تقوم بينهم فيها صراعات النفوذ أو روائح الرشاوى والبراطيل، كان الحاكم بأمر الله لا يتأخر في التكفل بها والجلوس للنظر فيها. ولعل من أعجب المجالس القضائية التي شرفها برئاسته الفعلية ذلك المجلس الذي عقده ذلك ليلة، مباشرة بعد خروجه من حلقة مداواة بدهن البنفسج. وكان وجه العجب فيه أن سُطرَ أمام أعين المتهمين شعار لا قبل للقضاة والعارفين به، وإنما هو من بنات أفكار الحاكم، وهو: أدهشوني أغفر لكم! ومفاده ـ كما شرح القائد غين صاحب الشرطتين والحسبة للمتهمين الستة الماثلين في القفص ـ أن يأتي كل منهم، لقاء الإفلات بروحه، بما من شأنه أن يدهش الخليفة ويروقه من لطائف الحكم وطرائف الكلام ومستملح النكت. وكان أول من مثل بين يدي الحاكم من الممتحنين رجل بصري معروف بعلمه الفياض في الطبيعيات والرياضيات، وهو أبو علي محمد بن الحسن بن الهيثم.

قال الحاكم بعد أن انحنى بالتعظيم والإكبار: «تذكر يابن الهيثم ما أطلعتك عليه في الستر، سألتني عن الشيء الذي أخشاه أكثر، وأجبتك: خوفي الوحيد من النيل حين تقل مياهه. فكان دعائي دائماً أن يظل منسوبه أيام الري سبعة عشر ذراعاً حتى لا تأتي أسعار الأقوات بالمكوس والغلاء، فأتعرض

لجـوع رعيتي وهيجان الأمـراض والموت فيهـا وعلي، وحتى لا أجد من سبيل سوى أن أعطي ما ملكت، وأن أعيـد من دخل في ملتنـا إلى ملته قصـد إحقاق الجـزية وإنعـاش مـواردهـا. وأقبلتَ عليَّ يابن الهيثم بادعائك أن تعمل حسابك وكل علومـك الـرياضيـة في النيل حتى يحصـل جوده وعطـاؤه في كـل من حـالاته من زيـادة ونقصان. وكلفتُ طـوابـير من المتفننـين في شؤون المياه بتعريفـك على النيـل من شلالـه بأسـوان إلى كل محطاته وفروعه وروافده. إلا أن كل ما فعلته معـك ذهب هباءً وما وعدتَ به كان افتراءً وبهتاناً. ورفعنا عنك تهمة نكث الوعد بأن كلفناك بالنظر في بعض الـدواوين، إلا أنك صرت تتظـاهر بالجنون والخبال، فاختلطت معك كل الأوراق والأرقام، وأمست كـل الأقضية تفضي إلى مـا لا تحمـد عقبـاه. ولمـا كـدت أقـر بإعفائك من كل المهام، كشفت مصالحي في التجسس الـدقيق إن إصابتك بالمسّ لم تكن سوى حيلة اصطنعتها للهـروب من خـدمتي والإفلات من عقـابي. وأنتَ اليوم محمـل بعبء هـذا التنكر الماكر الذي لا يكفي تعجبي من حذقك فيه لرفع تبعاتـه عنك».

قال ابن الهيثم: «لعنة فشلي في ترويض النيـل، يا مـولاي، ظلت تـلاحقني وتقض مضجعي. النيـل تحـدى حسـابـاتي وتصاميمي،وأتلف ساخراً معادلاتي وأقيستي. وقـد بات كـأنه يخرج عن مجراه ليتدفق في رأسي محدثاً تيارات ورجات عتية، لم أكن أغالبها إلا بـالتصفير والابتعـاد عن الماء. وذات يـوم، بينما أنا أصفر وأسير لا تفصلني عن النوم قرب الصحراء إلا مرحلة، خطرت لي فكرة التوجه إلى الديوان المعظم قصد تقديم طلب الإعفاء من مهامي كلها، وفعلت ما فكرت فيه. وبعـد مدة من الانتظار، وصلتني من أعتاب مولاي العاليـة بطاقـة تجيب

أن طلبي مرفوض نظراً للبواعث الـذاتية المـريبة التي دفعتني إلى تقديمه. وإثر اطلاعي على هذه البطاقة، بـدا لي أنه لم يبق لي إلا السهـر مع لحيتي المظلمـة، وافتعال الحمق الـذي لولاه لانسـدت أمامي كـل الطرق إلى الحيـاة المرغـوبـة، ولشنقتني حبال اليأس والصحـوة المتصلة. وهكـذا تدهـورت، وصرت في المـدينـة أمشي مكفهـراً لا أرد السـلام، أو مقهقهـاً أطـارد المعـادلات والأقيسة والأرقـام. وأنا الآن، يـا مولاي، بعـد أن كشفت أنوارك عن وهم طنبلتي وانحماقي، أتـرجاك أن تـزيل من سبيلي حواجز المرور وقيود التنفس».

قال الحاكم، وقد تملكته بـوادر الدهشـة: «عجيب ما تنطق بـه يابن الهيثم! لكن لن نـدعك تمـر قبل أن تطلعني عـلى سر امتناعك عن خدمتي».

قـال ابن الهيثم: «خوفي يـا مولاي، إن خـدمتـك، ليس من الشحوب والرسوب، بل من التوفق والتألق. وقـد تعلمت في ظل مهابتك أن كل خادم من طبعه أن يسعى بنجمه إلى السطـوع، وإذا ما نجح ترشح نجمـه للسقوط. وهـذه مفارقـة موجعـة لا أقوى عليها، ولا حتى على الافصاح عنها إلا بقول الشاعر:

أرى فيـك أخـلاقـاً حسـانـا قبيحـةً
وأنـت لـعمـري كـالـذي أنـا واصـفُ
قـريـب بـعيـد بـاذل متمنـعٌ
كـريـم بخيـل مستقيـم مخـالـفُ
كـذوب صـدوق ليس يـدري صـديقـهُ
أيجفـوه مـن تخليطـه أم يـلاطـفُ
فـلا أنـت ذو غش ولا أنـت نـاصـحٌ
وإنـي لفـي شـك لأمـرك واقـفُ

كـذلـك لسـانـي هـاجـي لـك مـادحٌ
كمـا أن قلبـي جـاهـل بـك عـارفُ

قال الحاكم والضحك يخالط كلماته: «تعجبني يابن الهيثم، إنـك والله تعجبني! فـانطلق صـاحبتـك السـلامـة. والآن إليَّ بالشاعر ابن الصعصاع القرمطي».

تقدم القائد غين إلى قفص المتهمـين واقتاد منـه إلى حضرة الخليفـة شابـاً وسيماً في مقتبـل العمر، فـأرغمـه عـلى تقبيـل الأرض وإظهار علامات الطاعة والخشوع.

قال الحاكم: «هيا يا فتى، خبرني بما أنت متهم به في تأويل قصة عليٍّ عليه السلام مع شيعة مؤلهيه».

قـال ابن الصعصاع: «تعلم يـا مولاي أن عليـاً عـلى ذكـره السلام، قبل انبلاج صباح الليلة التي قضّى ثلثيها في الصـلاة والتـرتيل، هبَّ وجيشُـه لقتال نفـر من شيعته كـانوا يؤلهـونه ويفرطون في تنزيهه. وحين أشرف عليهم وطوقهم بايعوه وقالوا:

ـ أنت إلهنا وخالقنـا ورازقنا، ومنـك مبدؤنـا وإليك نعـود. وكفانا فخراً أن تكون لنا ربّاً. وكفانا عـزا ان نكون لـك عبيداً. أنت كما نريد فاجعلنا كما تريد!

فجـرد عليٌّ سيفـه وأمر «الغـلاة» بترك سبـل الغلو والغي، لكنهم أبوا واستكبروا، فقال:

ـ لأشبعنّ اليوم هذا الحفـير من لحمكم وشحمكم، ولبئس المصير!

ولما علموا أنهم لا محالة هالكون قالوا:

ـ لئن قتلتنا فأنت تحيينا من جديد! وإنا نشهد أن عليّاً هو الإمام المهدي، وأنه منتظر.

وحين لم ينفع فيهم التهديد ولا الوعيد أمر عليّ بإضرام النار في الحفير وإحراقهم فيه، وأنشد قائلاً:

لما رأيتُ الأمر منكراً   أضرمتُ ناري ودعوتُ قنبرا

ومن أقصى الحياة أتي عبد ربه هذا الماثل بين يديك، فعلقت على الحديث بقولي: لو ارتد عليّ عن غلوّه في أنه الجوهر الفرد وعن تعظيمه لسجله المدني، لفهم أن علياً من أحرقوا وبادوا في النار ليس هو نفسه، ولكنه عليٌّ الإمام. والإمام منتظر، ولا يمكن انتظار من هو حاضر أو فان. أما إطلاق اسم عليٍّ على الغائب، فو استعمال مجاز أدت إليّه مشيئة الأحداث. وعليه فالمعنى الحقيقي المجرد عليٌّ هو الإنسان. وهكذا انتظر الشيعة الغلاة الإمام الذي اسمه الإنسان، وهكذا غلوا».

قال الحاكم: «لا يدهشني في تأويلك إلا وقوفه على أركان الخيال. ولك الآن أن تزيد في دهشتنا بترك خيالك على هواه يصور خاتمتك على يدي».

قال ابن الصعصاع بلهجة واثقة مقررة: «إنني لا أتصور نهايتي على يديك، يا مولاي، إلا بنحو واحد لا شريك له، فسيأتي في محضر الشرطتين: «نظراً لأن صاحب التأويل المذكور أعلاه قد غلا في قراءته لغلو الشيعة المحروقين؛ ونظرا لعدم انطباق كلامه مع شهادتهم؛ ونظراً لأنه شاعر زنديق معروف بتعريفه الشعر على هذا النحو: هوالبوح بما يوحي به الوقوف وجهاً لوجه أمام جدار في الظهيرة، والناس في قيلولة أو ساهون؛ ونظراً لأنه شاعر ممجد للسلطة، متكالب عليها، ويدعي أن الشعر هو كتابة الانتظار في المسافة التي تفصلنا عن أخذ السلطة، وفي رواية أخرى: إن أشعر الشعراء مَنْ شعر أن شعره تعبير عن عوز وحرمان أساسيين، فسعى وراء السلطة أو الحلم بها؛ فإن قيادة الشرطتين ـ تقديراً لواجبها،

وسهراً على راحة السكان ـ تحتفظ لنفسها بالحق في القبض على الشاعر واستنطاقه إلى ان يفتح لها صدره الزاخر بالأسرار...» وبعد اختفائي الأبدي سيطلع على الناس، يا مولاي، القائد غين صاحب الشرطتين ببيان حقيقة، هذا نصه: راجت أخبار في البلاد مفادها أن الشاعر ابن الصعصاع الذي حبسته مصالحنا قد مات تحت التعذيب من طرف رجالنا. ونظراً لكذب هذا الزعم، فإنه لا يسعنا إلا أن نزيح النقاب عن الحقيقة التالية: إن الشاعر المذكور قد عثر على جثته ومياه النيل تجرفها. وتأكد بعد الفحص الطبي أنه قتل بطعنة خنجر وهو يحارب إلى جانب أهل البغي والردة...».

قال الحاكم مغتبطاً: «أدهشتني يا فتى، أعجبتني! فانصرف بجناح الحر قبل ان تصدق رؤياك على حد سيفي. والصوفي خالع النعلين، أحضره يا غين».

لم ينتظر الصوفي تنفيذ غين للأمر الخليفي، بل سارع من تلقائه إلى المثول بين يدي الحاكم، وهو لا يفعل شيئاً سوى ترديد كلمات: يا لطيف، يا لطيف! ويتبعها بأخرى: استغفر الله، هو حسبي ونعم الوكيل.

قال الحاكم بصوت يعلو على ترديدات الصوفي: يا خالع النعلين، أنت متهم بالإعراض عني وبانطلاق لسانك في بالقبيح. وقد دعوتك مراراً إليّ فاستعصمت، وواصلتك كباقي الأولياء بباقات النرجس فاستنكفت. وأنت الآن في حضرتي تستغفر وتستلطف وأنا عليك صابر!».

قال خالع النعلين: «قال الرسول عليه السلام: «إياكم ومجالسة الطغاة، قيل له: ومن الطغاة يا أعدل خلق الله؟ قال: الحاكمون بأمرهم، الخارجون عن حدود الله بالتجبر والتأله،

القاتلون للنفس التي حرَّم الله، هم في الآخرة زاد جهنم وبئس المعاد، يا لطيف، يا لطيف...».

قال الحاكم غاضباً: «هذا حديث ضارب في الوضع والنحل ولا سند له ولا أساس من الصحة. فكلامك هذا لغو يسفه الواقع ويخونه، وهو في عرف اخلاقنا وديننا كذب وافتراء».

ردّ خالع النعلين معانداً: «ما من كلام حق إلا ونبي الله قائله، وحتى ما أرسله بعد غيبته إلى المؤمنين في مناماتهم ورؤاهم فهو كذلك. وقد رأيته عليه السلام مراراً يعقب بذاك الحديث على قوله تعالى: «يا أيها الناسُ ضُرب مثلٌ فاستعموا له، إنَّ الذين تدعونَ من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا لهُ وإنْ يسلبهُمُ الذبابُ شيئاً لا يستنقذوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطالِبُ والمطلوبُ. ما قَدَرُوا اللهَ حقَّ قدرهِ إنَّ اللهَ لقويٌّ عزيز». وسمعتُ صوته عليه السلام في منامي يوصيني: إياك يا وليَّ الله أن تجعل كلامك على قد واقع الطغاة. وإن فعلت أصاب البوار كلامك توّاً، وأتته الهجانة والفجاجة من كل جانب. فدع خيالك يضرب ذلك الواقع بالصبر والنقض والابداع».

قال الحاكم: «كم تأسفت لقوم ماتوا بغير سيفي، وأنت يا خالع النعلين كم يؤسفني أن أقدِّر موتك! ولو لم يكن تعلقك بالحياة أضعف من خيط العنكبوت لما ترددتُ برهة في إلحاقك بنعشك».

قال خالع النعلين: صدقت يا صاحب الحضرة! والله لو كان الناس مثلي يسترخصون حياتهم الدنيا ويتوقون بأرواحهم إلى الأمثل والأجدى، لما كنتَ ممكناً فيهم ولما خيمت عليهم بالقهر والترهيب...

قال الحاكم مقاطعاً: «اترك غطائي عليَّ ولا تزد في رفعه،

واكشف بدله عن أوراق ضوئك أنت الحاكم بين يدي.فما قولك في السلم والمحبة؟».

قال خالع النعلين: «السلم ميثاق التعايش الكريم بيننا. فإن جنح الآخر له، جنحت بدوري وأقرأته السلامَ، وأهديته ورداً وحماماً، ودعوت له بالسلامة، ثم مضيت آمناً مرتاحاً. وفي المحبة حين تفيض عليّ، أقول للمحبوب كلمات طيباتٍ فيها دلال وطلاوة، وألقي ما استعطت في قلبه حلاوة، وأكون له كشجرة تؤتى أكلها كل حين، ويكون لي المبغى والمعين، ويكون من أقف معه موقف السير. أما إن مات المحبوب بين ذراعيّ وأنا حيٌّ أراه، فإني لا محالة سأبكي بشدة مدركاً كنه الموت، وأن في البدء والختم كان العنف، وكانت القساوة، فأثور وأكاد أرتد».

قال الحاكم والتأثر بادٍ عليه: «وحين تجوع وتغلبك الوحدة أو تجن؟».

قال خالع النعلين: «حين أجوع أرتل الآية وأجعل منها غداءً. فإن جادت الآية شبعتُ، وإن لم تجدُ اصطدت العصافير وصادرت طعام النمل... وحين تغلبني الوحدة، إما أخرج إلى البرية وأصرخ حتى تسأل الوحوش عن حالي، وإما أخطب في الناس واعظاً وأغالي، وإما أرحل إلى الجوار البراني أو أسيح... وحين أجن بجنوني، تحتد بصيرتي وتقوى، وأصير عيناً ترى، وأصير بألف شفة أنطق بالتجليات وأتلو ما أراه. ولأني أفشي الحقيقة وأنصح بالعصيان، أساق دوماً إلى السجن أو المارستان».

قال الحاكم مرتعداً: «وإن مرضتَ وأشرفتَ على الوفاة؟».

قال خالع النعلين: «إذ ذاك أعطيتُ للبهاليل ما كسبت،

وقرأت فاتحة الكون، وقبّلتُ الأحيـاء أحبائي وودعت، ثم كتبتُ على حيطان الأسواق والحارات. كتبتُ عـلى الجذوع والأنهـار. كتبتُ في المقـابر عـلى الشواهـد والأزهـار، كتبتُ تعـاليم المـاء والنهار، وأسلمتُ للعناصر روحي».

قال الحاكم والعرق يتصبب من جبينه: «أه كم أضاهيك من وجه وكم أبتغيك! فلـو مرة صعـدتَ إليَّ في منزل الخلـوة بجبل المقطم، لألفيتني مثلك صفياً خفيّاً، شعثَ الرأس، مغبرَ الوجه، خـاويَ البطن، لا أجالس إلا الفكـرة في ميدان التـوحيـد، ولا أبغي للمطلق بـدلاً... والآن عد إلى بـريتك وصرِّف دعـواتك في الغفران لكل من تاه أو استكبر...».

وقف الحاكم كأنه يتأهب لرفع الجلسـة، وقد ظـل في قفص الاتهام رجل وامـرأتان، وقـال: «وأنت يا شيـخ، ألم تصل إلى سمعك سجلاتي في تحريم شرب الخمر أو حمله أو الاتجار به، وقد صادفتك على جسر ضيق في قائلة النهـار وأنت تهرب عـلى حمار محمّل بما حرَّمت؟ فمن أين أقبلت بسلعتـك اللعينة وإلى أين كنت تقصد بها؟».

قـال الشيـخ بلهجـة حـازمـة: «إني أقبلتُ من أرض اللـه الضيقة وقصدت أرض الله الضيقة...».

قال الحاكم غاضباً: «أراك تزيد في طينـك بلة، وأنت تقـول بأن أرض الله ضيقة».

قال الشيخ: «يا مولاي، لو لم تكن الأرض كذلـك لما جمعتْني وإياك على ذلك الجسر الضيق».

ضحك الحاكم مـلء شدقيـه وأذن للشيخ بـالانصراف، ثم تـوجـه للمـرأتـين بـالسؤال: «وأنتمـا، مـاذا أتى بكمـا إلى الأقفاص؟».

أجابت المرأة الأولى، وكانت شابة حسناء: «مولاي لقد حرمتني من أعز مخلوق لديَّ مرتين: مرة لما فاجأه رجالك في نومه بالموت انتقاماً من كونه كان لي مرافقاً في الوحدة، وملاذاً وقت الظلمة، ودرعاً واقياً ضد الفتنة؛ ومرة ثانية لما حرمت عليّ زيارة قبره والتحدث إلى جثمانه. ولأنك غلقت أمامي كل الأبواب إليه وضعت جسمي في قبر بجوار محبوبي، معلقة نفسي في النهار بقصبة تأتيني بالهواء الكافي، وساعية بالليل إلى البحث عن بعض غذائي. وبقيت على هذه الحال أياماً إلى أن انكسرت ذاتَ صباح قصبتي تحت أقدام متعقبي زائرات القبور، فخرجت من حفرتي نصف ميتة، وأتوا بي للمثول أمام حضرتك».

قال الحاكم مستغرباً مدهوشاً: «تفعلين كل هذا من أجل رجل يا امرأة! ومن يكون زوجك المحبوب هذا؟».

أجابت المرأة والتحدي يملأ عينيها: «إنه ليس زوجي، بل أخي من أبي...».

قال الحاكم وقد تضاعف تعجبه: «أخوك يا امرأة! ألا فاذهبي حالاً إلى أختي ست الملك، وقصي عليها قصتك الرائعة هاته، فلعل الأخت العصيَّة تعتبر وترعوي. وأنت أيتها العجوز، ماذا وراء ظهرك المعروك؟».

قالت العجوز: «حتى العجائز يا مولاي، قد ضاقت صدورهن بمنعك النساء من الخروج ومن التطلع في الشرفات والطيقان. حتى العجائز يقفن مسحوقات بين نارين: نارك يا مولاي، ونار أزواجهن القامعين لهن المقموعين على يديك. وكنت أكتب ضيقي وغيظي في بطاقات أضعها في مغارف الباعة المتجولين، فلا أتلقى مقابلها إلا بعض الفواكه والحلوى. ولما

صدر سجلك المطاع في منع الكشف عن المغطى، سكرت ملء رأسي، وخرجت خلسة في الليل إلى ساحل النيل. وهناك تمددتُ وتغطيتُ بإزار ظللتُ من تحته أتمم سكرتي، وأسترق النظر إلى جمال ربي في الماء والنبات والخضرة. وحين أتاني رجالك وأرادوا التعرف عليّ بكشف الإزار عني، منعتهم وهددتهم قائلة: أنا مغطاة، وأياكم أن تخالفوا أمر سيدنا الخليفة بأن لا يكشف مغطى، فحملوني إليك لأقص على الحضرة قصتي، وتنظر في مآلي».

قال الحاكم منصرفاً والضحك يغلب على كلماته: «وعدتُ بالصفح والسماح كل من أدهشني. وقد نلتُ منك أيتها العجوز، ومن جميع خلانك في الزيغ والمروق، أكثر مما ظننت وتوقعت، وأنا الآن ذاهب بحس مرهف، وصدرٍ منشرح، وقلب رحيم، فتحرري، سامحك الله، تحرري».

III

الجلوس للالهيات بين الدعاة

«وعنَّ (للحاكم) أن يدعي الربوبية، وقرّب رجلاً يعرف بالأخرم ساعده على ذلك؛ وضم إليه طائفة بسطهم للأفعال الخارجة عن الديانة [...]. وشاع الحديث في دعواه الربوبية، وتقرّب إليه جماعة من الجهّال، فكانوا إذا لقوه قالوا: السلام عليك يا واحد يا أحد يا محيي يا مميت».

إبن الصابي كتاب تاريخ، تكملة تاريخ ثابت بن سنان.



في الجناح المستور من دار الحكمة، عقد الحاكم جلوسه للإلهيات ليلاً، بعد انقطاع مديد، وذلك صحبة أكابر الدعاة ونقبائهم ونوابهم وزمرة من الخواص المستنيرين. وبينما شكل هؤلاء حلقة متراصة تهيّؤاً للقول أو السماع، كان الحاكم يقبع في ظلمة مقصورته شارد الذهن، ثابتاً ثبوت الصنم المتعالي.

كان قديم الدعاة حمزة بن علي «هادي المستجيبين» يتميز خِلقياً بهامة عريضة ناتئة، يعول عليها في إقناع المنصت وإفحام الخصيم. وكان ذا حافظة قوية لما صح من الأحاديث الشيعية أو لم يصح. قال مكسراً بهامته صمت التواجه المهيب: «بسم الله الرحمن الرحيم. الحمد لله الذي علا عن كل معلوم وسما عن كل مرسوم، وكبر عن كل موهوم ومفهوم، وصلى الله على ربيب رحمته المعمور، وبحر حكمته المسجور، محمد المبشر به في التوراة والإنجيل والزبور، وعلى أخيه وابن عمه فارس يوم الهياج، ومستودع سر ليلة المعراج، عليّ بن أبي طالب البرزخ بين البحرين العذب الفرات والملح الأجاج، وعلى الأئمة من ذريته هداة من ذرأ الله من خلقه، والمستحفظين لدينه وحقه، والمتممين كلمة عدله وصدقه. معشر المؤمنين، آمنكم الله من الفزع الأكبر، وحشركم مع من تحبون يوم المحشر».

وأضاف الداعية حمزة قائلاً: قال مولانا الإمام الصادق جعفر بن محمد: «مثل شيعتنا مثل النحل لو تعلم الطيور ما في بطونها لمزقتها». وقال أيضاً: «احذروا إفشاء السر، فإنه ينقص العمر ويعمي القلب ويقطع الرزق». وقال مولانا الحاكم على ضوء ما تقدم وفي أذن كل داعية كان أو يكون:

«خذ العهد على كل مستجيب راغب، وشدّ العقد على كل منقادٍ ظاهر، ممن يظهر لك إخْلاصه ويقينه. ويصحّ عندك عفافه ودينُه، وحضّهم على الوفاء بما تعاهدهم عليه [...]، ولا تكره أحداً على متابعتك والدخول في بيعتك... ولا تلقِ الوديعةَ إلا لحفّاظ الودائع، ولا تلق الحبَّ إلا في مزرعة لا تُكدي على الزارع، وتوخَّ لغرسك أجلَّ المغارس، وتوردُهُم مشارع ماء الحياة المعين، وتقربهم بقربان المخلصين، وتخرجهم من ظُلَم الشكوك والشبهات إلى نور البراهين والآيات، واتْلُ مجالس الحِكَم التي تخرج إليك في الحضرة على المؤمنين والمؤمنات، والمستجيبين والمستجيبات، في قصور الخلافة الزاهرة، والمسجد الجامع بالمعزية القاهرة، وصُنْ أسرار الحِكَم إلا عن أهلها، ولا تَبْذُلْهَا إلا لمستحقِّها، ولا تكشفْ للمستضعفين ما يعجزون عن تحمُّله، ولا تستثقلْ أفهامهم بتقبُّله. واجمعْ من التبصرِّ بين أدلة الشرائع والعقول، ودُلَّ على اتصال المُتِلٍّ بالممنون، فإن الظواهر أجسام والبواطنَ أشباحُها، والبواطنَ أنفسُ، والظواهر أرواحُها، وإنه لا قوامَ للأشباح إلا بالأرواح، ولا قوامَ للأرواحِ في هذه الدار إلا بالأشباح، ولو افترقا لفسدَ النظام، وانتسخَ الإيجادُ بالاعدام...[١٣]»

*

وتناول القولَ الداعية حسن بن حيدرة الفرغاني «عون

الهادي» المكنى بالأخرم لانشقاق وترة أنفه الأفطس المثير. وقد كان يغالب خفخفته بميل موفق إلى البلاغة والإنشاد، قال:

أتانا من أقصى الغيبة والغره
مولانا الحاكِم وارث السرِّ والشجره.
فعرّى بلطفٍ راسَهُ وسلّمَ وكبَّر
وبقولِ الانبياءِ حدثنا، والمسكُ يفوحُ منهُ والعنبر،
حدّثنا عن الخيراتِ والنساءِ والكلمات،
وقالَ: هذهِ أوتادُ الحياة،
من جهلها هلك،
ومن تعلمها كان من أراضي الخصب والميلاد،
ونال الغبطةَ الكبرى وحسن المعاد.
وحين انتهى وغاب،
ارتعشنا واكتسحَ الغمامُ الصحنَ والمحراب،
وصارَ في النافورةِ الماءُ ضياء.
فقمنا جميعاً مولّهين مسبحين،
وصلينا صلاةَ العشقِ على مولانا قائمِ الزمان،
ودعونا له بالعودِ والأمان.

ترنح الجالسون المنجذبون القانتون الخاشعون وتهامسوا طُلباً للمزيد، فسأل التميمي «سفير القدرة»: وحين عاد مولانا من غيبته العالية، بماذا نطق فمه الجليل؟

أجاب الداعية الأخرم متحمساً: مولانا، وقد رجع إلينا آمناً مطمئناً، أنطقه الحق بجليل الكلام، فقال:

ـ الشمس لا تقوى على رؤيتها إلا وانت تشيعها إلى مثواها في البحر أو خلف المرتفعات، وكذلك شأن الحياة.

أما احكم الحكماء، فمن حمل في صدره شمساً لا تغيب،

وتأمل في الحياة وهي في فلك النضج والتألقات.

واستنبط مولانا حكماً جليلاً، وقال:

– ليست الحكمة في مسايرة التكرار والأموات، بل في الكشف عن وجه الله في الفتن المعبئة التي قانونها الفيض والتوهجات.

وعاد «سفير القدرة»، فسأل بلهجة ملحة وديعة: ألا سقتنا أيها الداعي المنعم في جليل مناجاة مولانا مع مولاه. وإنا كلنا نروم الستر وإنا له لحافظون.

أجاب الأخرم وقد تألق واحمرت عيناه: سمعت مولانا بأم أذني وسجلت عنه بعض مناجاته الربانية التي قال فيها:

– حزامُ الريحِ في داخلي، وأغاني الهوى للهياكلِ الرملية،
وفقاقيعُ باليه.
ليس لي تحتكَ سرٌ باطنٌ،
يا أيها المارُّ فوقَ حزني.
ليس لي يا إلهي ما يمنعني منكَ أو يقصيكَ عني.
هذهِ الدنيا حلبةٌ عبّدتَها بالمراصدِ والرقباء،
وسقّفتها بداليةٍ عاقرٍ دكناء.
فأين لي أن أهربَ بعورتي يا محطمَ الأعضاء؟
(...)
تعنقدتْ في المساءِ كربتي.
وانهارت كلُّ آلهةِ العهدِ العتيقِ قبالتي،
وأمستْ أرمدةً وهباء.
تعنقدتْ كربتي،
فاتجهتُ إليكَ ولي قوتي،
وانتظرت منكَ رسولاً عظيمَ الصيت:

عيناه بلون الإسمنت،
وعقلهُ في السماءِ ينازلُ الاقدارَ والرعود،
ويداهُ من حولنا تضرمُ نيرانَ البعثِ والخلود.

*

مع روايات الأخرم كان الحضور من حالة السكر والتسليم على قاب قوسين أو أدنى. وفي هذه اللحظة المواتية تجرد للكلام الداعية «سند الهادي» محمد بن إسماعيل الدرزي، صاحب القامة الطويلة واللسان الطليق والفكرة السليطة، فقال راوياً: سمعت مولانا على ذكره السلام يقول، وقد عاد من استطلاعه الغيبي الواحد بعد الألف.

ـ كلما فكرت يا دعاتي في بناء إلهيات جديدة، رأيتني أستوعر النظر وأستثقل النطق في باب الباري وباب أزلية العالم أو حدوثه عن ليس. ولا تطالعني في هذه الاشكالات وما تفرع عنها إلا الأفكار المتساوية الأضلاع، والأدلة المتكافئة القدرات والنعرات.

وقال مولانا مفسراً:

ـ أن ندرس ذات الله!

كأنما من الممكن تحليل جوهرها وتفتيش صفاتها.

كل إلهيات لا تقر بانهزامها أو باستحالتها، تأتي إلى الكبير عن المفهوم بالقدح، وتخطىء فيه التشريف.

المتكلم الجدير بهذا الاسم هو الذي إذا ما قلّب أطراف الله وأعراضه، أو ذهب به فضوله إلى التساؤل عن حيثياتها وتفاصيلها، فإنه لا يتوانى في أن يضحك ملء سنه.

(...)

وقال لي مولانا وله الحمدُ:

ـ رأيت متكلمين ذهبت بهم صراعاتهم في عدّ صفات الله إلى التراشق بالنعال والحجارة. وكيفما كانت مخارج معاركهم، ليسمحوا لي، وأنا من قدامى خدام العقيدة، أن أسجل خفية لفائدة الله القدير، الحي، العالم، الخ، صفة اللباقة.

حقاً، كم هو لبقٌ ربي!

هو الذي له العين التي لا تنام، من المحال أن لا يراني مسيّجاً بالمصائب الزباء، وبشتى أنواع الضائقات العادية. غير أنه، وهو في أبراج حكمته المتعالية، يتظاهر بعدم النظر إليّ، ويصرف وجهه عني حتى لا يحرجني. وذلك من آيات لباقته التي لا يتمتع بملحها ومعناها إلا هو.

(...)

ومازحني مولاي وله اللطفُ، وقال:

ـ قيل إن الصوفية أطفال في حجر الحق. وفي هذا الحجر ترى ماذا يفعلون؟ وفيه بم يتحدث الحلاج ورابعة العدوية إذا التقيا؟

هل يتبادلان الأشعار والشطحات، أم النكت واللمس فالقبلات؟

(...)

وأوصاني مولاي، قبل أن يودعني، وله الشكرُ، وقال:

ـ لا تلق الناس يا محمد ولا تودعهم إلا وأنت توصيهم بالنور خيراً.

سألت مولاي عن الحكمة في وصيته، فقال:

ـ لو لم يُقِمِ الإنسان حول النور أهراماً وهمية بقدر ما هي نافعة، لما استقر له رأي، ولا أقام بالمفهوم في الحقيقة وما

جاورها... بالنور إذن، أي بوهم الانكشاف والعراء والتجلي، وبما يحيل إلى اللامتناهي وما من شأنه أن يحدّ البصر ويشوش عليه: بهذا النور يتنفس الفكر الصعداء، ويطلب لمصالحه البلوغ ولعروقه الراحة والاسترخاء.

*

عاد الداعية حمزة إلى تناول الكلمة وقال:

- «إن أمير المؤمنين بما منحه الله تعالى من شرف الحِكمة، وأورثه من منصب الإمامة والأئمّة، وفوّض إليه من التوقيف على حدود الدين، وتبصير من اعتصم بحبله من المؤمنين، وتنوير بصائر من استمسك بعروقه من المستجيبين، يعلن بإقامة الدعوة الهاديّة بين أوليائه، وسبوغ ظلِّها على أشياعه وخُلَصائه، وتغذيَة أفهامِهم بلبانها، وإرهافِ عقولهم ببيانها، وتهذيب أفكارهم بلطائفها، وإنقاذِهم من حيرةِ الشّكوك بمعارفها، وتوقيفهم من علومها على ما يَلْحَب لهم سبل الرضوان، ويُفْضي بهم إلى رَوْحِ الجنان وريحِ الحَنان، والخلود السرمدي في جوار الجواد المنّان...[14]».

وأضاف حمزة واعظاً:

- أمانة الدعوة الهادية ملقاة على اكتافكم أنتم أيها النقباء والنواب وخاصة الخواص، يا شعل الذكر المفيد والوعي الوهاج! فاذهبوا وتأولوها بالعقل والوجدان وتدرجوا في تبليغها بما يليق بالمقام ويناسب الأفهام. انصرفوا وعليكم من مولانا ومنا ألف سلام.

*

حين لم يبق بالجناح المستور من دار الحكمة إلا أكابر

الدعاة والحاكم بأمر الله، خرج هذه الأخير من صمته وثبوته، وخاطب دعاته وقد اقتربوا منه وجلسوا أمامه منصتين صاغرين:

- بين دعاتي البارزين حمزة والدرزي والأخرم والتميمي لا تفضيل لي ولا اختيار، فسواء ألّهني البعض، أو قال الآخر بانتقال روح آدم إليّ عبر روح عليّ، لن تروني أتبنّى إلا أقربكم إلى الفعل والفلاح.

من الهني منكم ووافقه التوفيق، خلعتُ عليه خلعاً سنية، وحملته على فرس مسرج في موكبي، وباركته في السر ورحبت.

أما الذي دعا إلى ربوبيتي عبثاً ولم تساعده السواعد ولا الأهواء، فبرئوا ساحتي من رسوبه، واقيلوا ناسوتي من دعواه، واقيلوني منه، واتركوا الكرماني يتصدى له بالدحض ويتوعده بالشقاوة وحر السعير.

وأضاف الحاكم قائلاً:

- إن أردتم يا دعاتي أن تدعوا الناس إلى تأليهي، عليكم بجبال الشام، فإن أرضها بكر، وأهلها سريعو الانقياد والتعصب. وما عدا هذا الصقع، ما أصعب ربوبيتي على الناس! وما أدعاها إلى تزنيد الفتن الكبرى بينهم!

وقال الحاكم:

- لكم أبغي، يا دعاتي، أن أحلّق كالإله فوق تفاصيل حياة الناس وأعلو على صغائرهم! لكنهم تكاثروا، وتفاسدوا، وأعاقوا جموحي، ولوثوا فضاء اعتزالي وشموخي. وإني اليوم بهم لثقيل، أغوص في أرض حولوا أديمها إلى مستنقعات دبقة، وجاذبيتها إلى قضبان من حديد.

وقال الحاكم متثائباً منشداً:

– جذِّروني يا دعاتي أصِّلوني، وقولوا عني ما قالته أسفار النبوات في «الكتاب المقدس». ادعوا الناس إليَّ أن يوحدوني وينسجوا حولي خيوط شرودهم في غياهب الغيب والمعاد.

إني لكل من اشرأبَّ إليَّ عنقُه بالدعاءِ والتسبيحِ لبصير.

(...)

ادعوا الناسَ الحفاةَ العراةَ إليَّ يا دعاتي،
وكبِّلوا قلوبهم بأذيالي، وبطونَهم بأهدابي وهباتي.
ومن مات منكم في سبيلي،
فلهُ الجنة من أدناها إلى سدرة المنتهى،
يجولُ فيها وينعمُ بما أحبَّ واشتهى.

*

سكت الحاكم طويلاً وبدا عليه انهيار كبير وأمارات حمى شديدة، فسارع الدرزي إلى لف جبهته بخرق مبللة بماء الورد، ثم عاد إلى مكان جلوسه.

قال الحاكم:

– كل إلّه تنازل عن غيبه وغيابه وعن تعاليه السحيق ليس إلهاً: بل صنماً أو دمية.

ليس إلهاً من حضر وكلّم القوم أو دنا منهم، لاوياً على الشاذة والفاذة في دنيا لغوهم وضوضائهم. بل إنه عجوز شمطاء، ويجوز في حقه اللمز والرمي بالحجارة.

لذا يا دعاتي، بالله عليكم لا تغالوا في تأليهي وأنا حي أحكم الناس، وأتصرف في رقابهم ودنياهم، وأتعقبهم بين الجدران وفي الفيران والهوامش. فادعوا الأقوام من بعدي،

يوم غيابي، إلى أن ينسجوا من أنقاض انقراضي ما شاءت لهم أوهامهم ووساوسهم في افضية الغيب واللاهوت.

*

كانت حمى الحاكم لا تزيد إلا صعوداً، فتتعاقب عليه حالات الحرّ والقرّ، ويتحدث بما يشبه الهذيان الموقّع بالرعشة؛ وفي جليٍّ كلامه قال:

- أنا كالإله المهشم الأعضاء، الذي لن تعثروا على بعض بقاياه إلا في حقول الصخر أو رمال الصحراء. آه يا دعاتي، كم أمرُ وكم تمرُّ مآتمي وأعراسي! وخلف الليل كم سأختفي عن رعيتي وأناسي! ليبقى البحر.

هذي الفاظيَ والأسنان: في فمي تنهار انهياراً. وللأقوام من بعدي أن يوقدوا النار في أمكنتي وأركاني، ويقذفوا بأوامري وعهدي في بواطن النسيان، ليبقى البحر.

فيا عباد الله! كونوا مثل البحر الهائل المعطاء: فهو الوعدُ الوعيد والرعدُ الباحثُ عن راحة الروح والبدء السعيد.

وفي كل حين استفتَوا البحرَ، لا الأموات.

*

ظل الحاكم يهمس بكلمات غير مفهومة، ثم تمدد فوق الأرض مرتعداً محموماً، وطلب ورقاً ليكتب عليه وصاياه الأخيرة، فبادر الدعاة إلى تدثيره بالأغطية، وأجمعوا على رفض طلبه وعلى نقله إلى قصره ووضعه بين يدي طبيبه الخاص. وكان هذا ما فعلوه، قبل أن يهيم كل منهم في وادي تأويله لما سمعه من أحاديث الحاكم وشطحاته، وانتقاه منها على أجنحة الهوى وتحرير الدلالات وفي أبواب استقطاب الأنفس وجذبها.

الباب الثالث

زلزال أبي ركوة، الثائر باسم الله

«.. واقام (ابو ركوة) ببرقــة وترددت سرايــاه إلى الصعيد وأرض مصر. وقام الحاكم من ذلك وقعد، وسقط في يـده وندم عـلى ما فـرط، وفرح جنـد مصر واعيانها، وعلم الحاكم ذلك فـاشتد قلقـه، وأظهر الاعتـذار عن الذي فعله. وكتب الناس إلى أبي ركوة يستدعـونه، وممن كتب إليـه الحسين بن جوهر المعروف بقائـد القواد. فســار عن برقـة إلى الصعيد، وعلم الحـاكم فاشتد خوفه وبلغ الامر به كل مبلغ....».

ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**

كانت بوادي برقة الصحراوية تحيا حياة الضنك والخصاص على رقعة من البسائط الرملية الفقيرة الممتدة جنوباً. وكانت واحاتها الهزيلة المتناثرة ـ كجفرة وأوجلة وجغبوب، وغيرها ـ لا يتمر نخيلها وينمو كلأها إلا بفضل واد ضنين، يستمد ماءه، في شتاء دون آخر، من ينابيع وآبار جوفية بعيدة المنال. والناس في الصقع ـ ومنهم قبيلة بني قرة ـ يتشبثون بالعيش العسير، ويقاومون ببأس شديد ما يتناوب عليهم من زوابع الصحراء المتلفة وندرة الأقوات المفرطة، وما يكلل كل هذا من هجمات عساكر الفاطميين المدمرة. وكانت قبيلة بني قرة لا تقوى على البقاء وتضميد ندوب الدهر إلا بالغارات الموفقة أحياناً على جيرانها من القبائل كلواتة ومزانة وزناتة، مما كان يمكّنها من الغنائم الضرورية لمعاشها في حدوده الدنيا. وهكذا كان أفرادها يقيمون على سراط الشظف والشدة، لا يعيشون سلماً إلا مشوباً بالمخاطر والحذر، ولا ينتهون من حرب إلا ليستعدوا لأخرى. فأينما ولّوا وجوههم فثمة وجه الحرب، لا حياة ولا حلول إلا بها، هي هي دوماً مهما تعددت دوافعها وأسبابها: العدوان أو الثأر أو الوقاية. سنة الكون في الخلائق، ولا غالب إلا هو!

ذات يوم من شهر محرم خمس وتسعين وثلثمائة، ظهر على واحة بني قرة رجل غريب بهيئة المتصوفة، يقبض على عصا غليظة، ويردف ركوة يتوضأ منها، ويكثر من العبادة والخلوة والتأمل. كان الرجل، كما وصفه الواصفون، في الثلاثين من عمره، طويل القامة نحيلها، أسمر المحيا، وافر اللحية، بادي القطوب، تعلو نظراته حمرة الحياة والجد والتقوى. وكان إبان الأيام الأولى من إقامته في ضيافة القبيلة، معززاً مكرماً، لا ينطق إلا إشارة ورمزاً، ولا يركِّب جملاً إلا للعن الطغاة والترحم على السلف والاستغفار بالله. ولما طالت حيرة القبيلة حول ضيفها وأصله ومراده، أقدم شيخها ـ واسمه أبو المحاسن ـ ذات ليلة هادئة مضيئة على مجالسته مرحباً متلطفاً به، مشاركاً إياه في توعداته ومناجاته. وبعد صبر مديد وجهد جهيد، استطاع إنطاقه واستخباره، والليل في هزيعه الاخير. وما أن بزغ الصبح حتى خرج الشيخ على قومه مهللاً مكبراً، وخاطبهم:

ـ ابشروا يا قوم! فالرجل بين ظهراننا هبة من الله إلينا. لقبه أبو ركوة، واسمه الوليد من ذرية هشام بن عبدالملك بن عبدالرحمن الناصر سليل الدوحة الأموية. وسبب خروجه من الأندلس أن الحاجب الطاغية المنصور بن أبي عامر، بعد أن حجر على خلف الحكَم الثاني الصبي المؤيد هشام ونكح أمه صبح، قام بإعمال السيف في أعضاء الأسرة الحاكمة بقرطبة، فمنهم من قُتل ومنهم من لاذ بالفرار، وكان ضيفنا المبجل أبو ركوة، وهو في العشرين من عمره، من بين هؤلاء الناجين. وقد قضى في أسفاره عقداً بين مصر والشام واليمن ومكة المكرمة، يطلب العلم ويعلم للصبيان قول الله ونبيه عليه

السلام. فبشرى لنا بمقدمه إلينا من أرض الكنانة بعد أن طرده منها حاكمها.

وما أن انتهى الشيخ من كلامه حتى برز أبو ركوة إلى جنبه، والقوم في حالة من الذهول والخشوع عظيمة، فقبله على جبهته، وقال بصوت متهدج متأثر:

- يا عرب بني قرة، يا أماجد! الحق ما فضحني به هذا الشيخ الوقور، وأنتم تريدون أن ترفعوا كل الحجاب عني، فلا والله لن أحرمكم من أحوالي وأسراري، وستعرفونها قبل أن أرحل عنكم اليوم مع المغيب.

توقف أبو ركوة لحظة كأنما يستجمع قواه، وبعد أن جلس الشيخ أبو المحاسن وفعل مثله الحضور، قال كلاماً بليغاً بصوت يميل إلى الرقة والانشاد:

- طرَدتني البغيُ والغدرُ من أرض أندلس ،
وتنسكت يا قوم، فلا نساءَ لي اليومَ أحرثُها،
ولا متاعَ إلا ركوتي وجبّتي
وعصاي
أذودُ بها عن حرمتي
وآخر شبر في حماي.
تنسكتُ فسرتُ في دنيا الله أقضي الأوقات
بين تلقين الصبايا وإتيان الصلاة.
دعوتُ الناسَ في مصرَ والشامات إلى الحياة الأخرى،
وقلبي معهم نوّاره،
ألم أوصيهم بالصبر والأناة!
قلتُ لهم: الجَلَدُ الجَلَد، وإن تفسخ الجِلْدُ
وشاعت سطوةُ الحاكمِ الجباره

ألم ألقِ الحلاوةَ في الفعلِ والعباره!
مجدتُ الحبَّ، وسرتُ أمامَ الناس:
أمدحُ التراشقَ بالزهور وأسترُ الحجاره.
(...)
هكذا غيّبتُ حياةَ الحكم،
فآخيتُ تهاليلَ الفصولِ والنّدى،
وقلتُ للتباشيرِ أهلاً وقلتُ مرحى،
هكذا اعتليتُ الصخرَ
وبايعتُ البحرَ،
قلتُ للناس: لا شيء يطيبُ غيرُ أستباقِ اشتياقي إليكم
يا بقيةَ الأحباب.
(...)
قلتُ ما قلتُ وادعيتُ
ومرَّ وقتٌ وأتى الوقتُ...
أتى بمهامه عهدٍ لعينٍ لحاكمٍ بالجبروت،
وبالسلاسلِ والأسلاكِ في الأرجل والرقاب،
أتى يستحيلُ على السمعِ والبصرِ:
بالتوابيتِ الصغيرةِ والدمار،
بـالنساءِ المعتقـلاتِ وبالـرجالِ تسيـلُ على حـدٍّ السيـوفِ
أنفسهم،
أتى بالوجوهِ المرعوبةِ والمحنِ الصماء،
وبالنيل تفيض مياهه بدم الضحايا ورؤوس الأبرياء.
(...)
على ضوء ما رأتِ العين:
نطفةُ كلٍّ سلامٍ وعدٌ كاذبٌ،
فناعورةُ الانتظار لم تعد تجلبُ ريحاً

ويتهاوى الجَلَدُ ويبقى الجِلد...
على ضوءِ ما رأتِ العين، وجبَ الاعترافُ:
حيالَ الحزنِ بالمعنى القاهرِ للكلمه،
تدبيرُ المتوحدِ خدعةٌ وتخريَفٌ.
وجب الاعترافُ:
أحاديثي حولَ الحيلةِ في دفع الأحزانِ شُلّت
وخواطري عن الزهد في الحكمِ باخت،
ورأسي التوي وبار،
فظلَلْتُ أحملُ الدمعةَ الأثريةَ الغبراءَ في بصري،
وأطالعُ الدمَ الفوارَ الصاعدَ في تواريخ المحنِ
وكمياتِ الجراح.

قال أبو ركوة كلمته الأخيرة ثم استوى على الأرض متعباً، والحاضرون مشدوهون كأنهم استمعوا إلى حديث انتظروه منذ أمد بعيد، وكأن جل لآلئه كانت مضمرة في شعورهم الخفي وفي باطن ذاكرتهم وكيانهم، فلا تطلب إلا من يخلصها ويرصع بها وعيهم القائم. وبينما هم على هذه الحال، قام شاب مدجج بالسلاح معروف بين قومه بشجاعته وبلاغته، يسمى شهاب الدين بن منذر، وقال:

ـ الحياةُ عندنا يا غرّةَ الهادينَ ليست كما نشاءُ ونبغي!
فصولُ الضيقِ وحرقةُ الأيامِ هدتنا.
اغتربنا وافترشنا الاحجارَ وطفنا سنينَ عجافاً لا نعقلُ ولا ندري.
فالينابيعَ والوديانَ قصدناها قائلين:
لعل الخلاصَ في الماء، ففاض الماءُ وأتلف الأقواتَ وبعضنا.
قلنا: لعلَّ في الشمسِ والرملِ الخلاصَ،

لكن يبسنا، تفشى العياءُ، يئسنا.
وعلى حافة الاندحار، رأينا المخرجَ في الغارات على الغير،
فظفرنا بمعركةٍ وأخرى خسرنا...
الحياة عندنا يا غرّةَ الهادينَ ليست كما نشاءُ ونبغي!
يلفنا الصمتُ بعدَ كلٍّ موتٍ أو مجاعة،
وإن رفعنا الهاماتِ أتى عسكرُ الحاكمِ فينا بالسبي والاحراق.
فيبقى اليأس، كما ترى، كالفأسِ يحفرُ في آفاقنا الخنادق والغيران.
فباللهِ عليك، وأنتَ ابنُ دوحةٍ وتعرفُ مثلنا سحقَ الضيمِ والطغيان،
لا تغب عنا وإن غابت شمسُ هذا اليومِ أو شموسُ أيامنا المقبلة.
لا تغب عنا وأنت الآتي إلينا لتطهرَ الرؤوسَ وتشلَّ ذاكرةَ المأتم.
لا تغب وقد نعتَّ لنا المحجةَ المخرجَ كي نحوّلَ اليأسَ والجرحَ إلى مغنم.

قامت أصوات كثيرة كأصداء لكلام شهاب الدين، تكرر هذا القول أو ذاك، وتجمع كلها على ترغيب أبي ركوة في البقاء مع القبيلة لينظر مع مشايخها في أحوالها ومآلها. ووقف شيخ بني قرة فخرج عن صمته وشرع يسكت المتكلمين، ثم قال بصوت حازم:

– يا رجال، بالله عليكم، إن كنتم ترومون من بقاء أبي ركوة تحكيمه فيما شجر بينكم وبين قبائل زناتة، فأنا معكم؛ وأما إن كنتم تبغونه لينصركم على خصومكم الأقربين،

فاتركوا الرجل وشأنه، وحرروه من هواجسكم وحساباتكم، وأخلوا سبيله إلى الله.

لاحت بين الرجال علامات الاعتراض والخيبة، وتميزت بعض الوجوه غيظاً. ولما أدركها أبو ركوة سارع إلى القول:

ـ الرأي الصواب ما يقوله هذا الشيخ الموقر. وحق فاطر السماوات ومبدل الأحوال، لن تروني مقيماً بينكم ولو هنيهة، إن كانت نفوسكم لا تتوق إليّ إلا لحاجة خسيسة في صدوركم. فإني لم آت وفي نفسي تغليبكم على خصومكم الوهميين، أولئك الذين لا يقاسمونكم في عراء هذه الصحراء إلا سعير العيش فيها. فأنتم وهم، في نظري واعتقادي، سواسية عند وهاد الضنك والضيق، تتقاتلون لأنكم أشباه ونظائر، كلٌّ يريد محو عوزه بمحو من يحمل مثله أو أكثر، تتطاحنون لأنكم تغيّبون صانع بؤسكم جميعاً أو تستعظمون جبروته ووقاعه... فاعلموا أنكم أنتم وخصومكم من زناتة وغيرها لا يجري في عروقكم إلا دم واحد لا اختلاف فيه ولا شبهة، هو دم التقوى والعقيدة السمحاء، ولا عدو لكم إلا من حرقكم جميعاً وحلبكم ورمى بكم إلى عرض الصحراء، حيث يشح القوت ويندر الماء.

طافت برؤوس القوم ذكرى التحريق المشؤوم الذي سلطه عليهم سابقاً الحاكم الفاطمي، وفي فورة أجيجها أدركوا من دون عناء تلميحات مخاطبهم وقصوده، فبدت عليهم أمارات الفهم والقبول، لم يلبث أبو ركوة أن استغلها مضيفاً:

ـ يا عرب العزّ! أيرضيكم أن يبعث الحاكم بأمره دعاته في مصر والشامات ليشيعوا عنكم أمام الناس صوراً تمسخكم وتذلكم؟ يقولون إنكم جبابرة وغصابون، وإنكم أجلاف العرب تعيشون بقطع طرق الحجيج إلى بيت الله، وإنكم تسفكون

دمـاء الصبيـان والنسـاء، ولا تحلـون بـأرض إلا أتيتم عـلى أخضرهـا ويابسهـا ونشرتم فيها شعـائـر الـردة والخـراب... يقولون هذه الفظائع وأشنع منها وذممكم منها برايا. فإلى متى وأنتم صـاغرون قـانعون بسـوء الصيت وبالمسكنـة؟ إلى متى وأنتم تصرفون الأيام في حروب رديئة غاشمة ضد المستضعفين أشبـاهكم؟ إلى متى والصحراء تُفيض عليكم الفقـر والعذاب؟ وحق من له الحول والقوة، لأعودن إلى مخـابئي وغيراني إن لم تغيّروا ما بأنفسكم وتحققوا في هذه الدنيـا وعود اللـه بالعـدل والعزة والتوحيد.

كان كلام أبي ركـوة يهز وجـدان سامعيـه، وتنزل غـاياتـه عليهم برداً وسلاماً، وتقابلـه الأفواه بـالتعجب والتبريـك. وفي هذا الجو المشحون بالهيبة والانفراجات الواعـدة، بادر شيـخ بني قرة إلى دعم أبي ركوة وتقريبه من الجماعة، وقال:

ـ حقاً ما قاله ضيفنا المبجل يـا قوم! انقضـاض الضعيف عـلى الضعيف جبن وشمـاتـة، وفـوز الضعيف عـلى الضعيف حشـو وحماقـة. فلا حـرب لنا بعـد اليوم ضـد المستضعفـين نظـرائنا، ولا شغـل لنا بعـد اليوم إلا الاضطـلاع بـالمهم من الامـور. والمهم الأهم أن نُظهر للعـالمين أننـا عرب الشهـامـة، والإباء، ليس من طبعنا اقتـراف الفواحش مـا ظهر منهـا وما بطن، ولا إيتاء المنكرات من قطع الطرقات إلى الله أو سفك دم القاصرين والأبرياء. المهم الأهم اليوم: أن نتطلـع مع أنـدادنا وأشباهنا في الحال إلى قطع طرق الحيف والطغي ونقل الجهاد إلى قلب دولة الفواطم، حتى نقتلع الشر من جذوره، وننال بهذا فضل الدنيـا وجزاء الآخـرة. ونحمد اللـه أن بعث إلينا إمـام الوعي والهدي الوليد أبا ركوة هذا.

ما إن أتم الشيخ أبو المحاسن كلامه حتى نهض الشاب شهاب الدين بن منذر، وقال:

- يا أبا ركوة، السعد كل السعد أن نتبناك ونسير وراءك. فنحن اليوم لا رشاد لنا إلا معك، وأنت لا قوة لك إلا بنا. ولكن قبل أن نوثق العهد بيننا ونبايعك على الامامة، أجبنا بربك: ألا ترى أنك تتعجل الأمور وتستبقها وأنت لا تُمضي على السلم الذي تدعو إليه إلا بأيدينا وحدها، ولا تأخذ برأي الذين بيننا وبينهم عداوة؟

وردّ أبو ركوة على هذا الاعتراض الحصيف بصوت واثق مطمئن:

- لتعلموا، أكرمكم الله، أني قبل حلولي بينكم، أقمت مدة مع عشائر الزناتيين، أعلِّم صبيانهم، وأنصت لشكاويهم من حكم الفواطم المزيفين، وأرى بلاياهم تحت نير الطاغية الحاكم بأمره، وفاتحني وجهاؤهم وعقلاؤهم غير ما مرة بما في صدورهم إزاءكم، وأيقنت أنهم يجمعون على أن حروبهم معكم لغو وهباء منثور، لا يخوضونها إلا مكرهين، وبقلوب ملؤها الحسرة والمرارة. فثقوا وتأكدوا، أيدكم الله بنوره، أنكم إن جنحتم للسلم مشياً، فسيجنحون إليه هرولةً، وإن طلبتموه محدداً، فسيطلبونه مؤبداً. فلا تكونوا أشداء حيث لا تنفع الشدة، ولا متكبرين حيث يهون الربح. يا عرب بني قرة، إن كنتم ترومون السلام الذي لا رجعه فيه بينكم وبين الزناتيين، وكل الذين تربطكم بهم قرابة الاسلام الحنيف، فإني ساع به غداً، أمهد بساطه وأدقق معكم ومعهم معانيه ومراميه؛ وأما إن كنتم تخشونه وتستوعرون عواقبه، فلا مناص لكم من أن تخلوا سبيلي إلى الصحراء، أتعمق فيها وأترك رملها يعلو عليّ.

تبادل شهاب الدين وشيخ القبيلة نظرات التـوافق والتآزر، فأقبلا على أبي ركوة يضمـانه ويقبـلانه، ثم تعـالت الأصوات بالقبول والتأييد والتـرحيب، معززة بـزغاريـد النساء وهتـاف الصبيان. وكان هذا إيذاناً بالاجماع على السلم الذي لا محيد عنه وتمهيداً لمبـايعة أبي ركـوة على الامـامة. ووافق هـذا كله أذان المؤذن لصـلاة الظهر، فهبّ القـوم إليها مصطفـين وراء ضيفهم الكبير، طالبـين منه ان يؤمهم، فنـالوا بعـد إلحاح مـا أرادوا، وصلوا صلاة خيمت عليها علامات سكينة وخشوع، لا عهد لهم بها من قبل... وما إن انتهـوا وسلموا وتعـانقوا حتى همّ نفر منهم بذبـح ناقـة، تكريمـاً لأبي ركوة وتيمنـاً بمقدمـه السعيد، إلا أن هذا الأخـير منعهم وأقسم ألا يفعلوا إلا يـوم يعقد الصلح بينهم وبين جيرانهم من القبائل. وبعد أن أقنعهم اكتفى منهم بكسرة خبـز وحفنة تمـر وقدح من اللبن الطـري، وكانت هذه وجبته المعتادة مرة كل يوم. ولما انتهى من تنـاولها حمـد الله ثم استـأذن القوم بـالغياب عنهم، فـدخـل خيمتـه واستقـر هناك سـويعات، يصـلي النوافـل، ويقرأ القـرآن تارة ويكتب الأحاديث متأملاً طوراً.

*

كـان النهار يميـل إلى الأفـول، وشفق المغيب ينشر حـولـه أكاليل هائجة الأشكال، ما لبثت أن شدت إليها أبا ركوة، فظل يـرمقها من ثقب في خيمتـه، وينسـخ من وحيهـا الفكـرة تلـو الفكرة، وذلك إلى أن حلّ الليل بـربوع هـذه الصحراء. وكـان الناس بشيبهم وشبابهم يعيشون هم كذلـك حالـة من الوجـد والانفـراج الأخاذ. وهكـذا تبدّى لهم هـذا الليل متميـزاً عمـا سـواه: آمَن من حمام مكـة، وله نكهـة السمو وطعم الجنـات.

فالسماء المفروشة باللآلىء ما أقربها إلى الأرض وأرحمها بالخلق! والقمر الفياض بنوره واكتماله ما أسخاه بالتباشير والآمال على القلوب! والرياح كأنها تعاقدت على التهادن والتنافس في لفّ الرحاب ومن عليها بالرقة والخفة والشروح. فما كان من عشائر المخيم إلا أن تجمهرت حول خيمة إمامها، وشكلت الدوائر تلو الدوائر. فهذه دوائر الصبيان يلعبون ويرتعون فيها وقد صار الواحد منهم أنشط من ظبي مقمر، وهذه دوائر النسوان يتضاحكن ويرددن الأهازيج المحببة لديهن، وهذه دوائر الشيوخ والشروخ يتناوبون على ملء الفضاء بالأوراد الدينية تارة، وبأناشيد الفروسية والإباء المصحوبة بالرقص طوراً.

ظل القوم على هذا العرس والفرح والابتهاج ما شاء لهم تحمسهم وتوثبهم، ووسعتهم حدود السهر. ولم تبد لوائح الخفض والتراخي تسري بينهم إلا بعد أن تنبه الرجال إلى غياب أبي ركوة وفرسه من المخيم كله، ثم إتيان شهاب الدين ابن منذر ببطاقة بتوقيع الامام الغائب تقول: «لم أشأ استئذانكم في الغياب، حتى لا أفسد عليكم أفراحكم ومسراتكم، يا أحبائي. فإني ذاهب إلى ربي أستعين به وأستفتيه. ولن أغيب عنكم أكثر مما يطيقه شوقي إليكم وتقتضيه حاجة سعيي بالسلام بينكم وبين الذين تعادونهم. وبالله التوفيق ونعم الوكيل».

وما إن انكشف فحوى هذه البطاقة حتى تفرقت الجموع، وعاد كل إلى ملاذه طلباً للنوم أو قصد الانتظار، فسقط المخيم في سكون مبرم لا يشوبه إلا نباح كلاب أو حركات الحراس.

*

طلع الصباح واستفاق الناس على شعور عوز وخصاص، ومر عليهم يوم فبضعة أيام، وهم في حالة من الترقب والقلق صار يستغلها رهط بزعامة رجل اسمه حماد الماضي، فيشهّرون بأبي ركوة، ويشككون الناس في نسبه وأقواله، ويفسدون قلوبهم عليه. وكان الماضي سباقاً إلى اغتنام كل فرصة سانحة لمخاطبة الجموع بكلمات تفور بالتحريض والغيظ، فكان يقول:

– يا بني قومي وأبناء الدم الواحد، إني والله لم أعد أرى لوجوهكم وجهاً، ولا لحلمائكم حلماً. فكأني بكم قد أضعتم كل رشد ودهاء، حتى صرتم أخبط من حاطب ليل وأحمق من ماضغ ماء، تلوون على السراب وتحسبونه حقاً، وتتبنون ضالاً كأن به الخلاص والخير الأبقى. فما لكم وهذا الغريب المتلبس بالنسك والذلاقة والتقوى، قد بايعتموه على الامامة والاستسلام، وليس هو، وحق قرابتنا، بأنفع من بائع أوهام، لا يشعّ إلا بنور مشبوه سيلقى فيكم صرعاه، ولا تأتي رياح مأربه ودعواه إلا بما يهلك وتبسوء عقباه. من أنتم وما قوتكم حتى تنقادوا إلى قتال جيش الفواطم الجرار! تالله إن فعلتم فستظهرون أغبى من الفراش المترامي على النار، وأعمى من الوطاويط في واضحة النهار. حذاركم حذاركم! لا خلاص لكم من هذا الحدثان، وحق دمنا، إلا في نبذ فالية الأفاعي، والعود إلى مبارككم وما تعارفتم عليه من الحروب الصغيرة والمساعي.

كان وقع كلام الماضي على نفوس الناس يقوى بقدر ما يطول عندهم انتظار عودة أبي ركوة. ولولا تطمينات الشيخ أبي المحاسن وشهاب الدين، لكانوا قد أعلنوا الردة وفسخوا عهد البيعة وشقوا عصا الطاعة. وبينما كان الماضي ذات خميس في سوق هذا اليوم يكرر على الجموع تنديداته، إذ

صعد في الأفق غبار كثيف لم يلبث أن تكشف عن فل فرسان يتقدمهم أبو ركوة. وما أن لحقوا بالمخيم وترجلوا حتى ظهر أن الرفقاء هم من أعيان قبائل زناتة ولواتة ومزاتة، فاستبشر بنو قرة خيراً وأظهرو للزائرين كل علامات الحفاوة والتكريم. أما الماضي ورهطه فقد لاذوا بخيامهم، واعتصموا بها صاغرين. ولما أن حان وقت صلاة الظهر، قام الجميع بأدائها وراء أبي ركوة، ثم جلسوا لمشاركة ما تهيأ من الطعام، على أن يأخذ الضيوف بعد هذا قسطهم من الاستجمام والراحة، استعداداً لاجتماعات الصلح في يوم الغد الذي هو يوم أول جمعة من ربيع الأول سنة خمس وتسعين وثلثمائة.

في صبيحة هذا اليوم المشهود، قام الزائرون وشيوخ بني قرة عن بكرة أبيهم، فالتحقوا كلهم بالامام في خيمته، وصلّوا صلاة الصبح وراءه ثم جلسوا للإفطار، فتلاوة آي من القرآن. ولما خيمت على المكان علامات التواصل الروحاني ونفحات الخشوع والتعالي، برز أبو ركوة مقتعداً مخدتين، وشرع يقول بصوت رخيم مؤثر:

أحمدُ اللهَ رازقَ نعمتي ومالىء ركوتي.
ها إني قد اغتسلتُ وتطهرت،
وعلوتُ ثم علوتُ فوق وحدتي واندلعت،
علني أوحِّدُ القلوبَ وألقى الفرح،
علني أعملُ كالعضوِ، وسائراً أحلمُ بالسيرِ والجماعة.
(...)
سميتُ مثلكم هذي النارَ التي تحرقنا عافيةً،
وغطسنا كلنا في الوديان حمانا.
ودِدنا، آهٍ كم وددنا لو احتفلنا بمن تبقى من الأحباب،

وجعلنا الكلامَ مسكاً وانرنا الأركانَ!
وددنا لو بكتِ العيونُ غبطةً وانتشتِ الديار...
لكنْ كيفَ والشوكةُ في اللحمِ صحت
وصحَّ الجرحُ وضيقُ الحال؟
كيفَ السبيلُ والعيشُ الحقُّ أضحى عينَ المحال؟
(...)
صحّ ما ترونه وأراه:
أجسام أناسكم وبنيكم تجفُّ ببطءٍ عروقها،
وتظلُّ جاحظةَ العيونِ وجلادُ الحاكمِ يكشطها.
عمرها؟ لو أهلُ الاسلامِ تعرفوا كيفَ تقضيّ عمرها،
لتحولتِ الزيوتُ في خوابيهم دما، وفاضت دموعهم على الشفاه.
والآه! صحَّ أن الآهَ في ربعكم كنهُ الحياه.
فهذا الوادُ الواحدُ يعبركم بالمياهِ الفقيره،
وهذي الفصولُ تأتيكم بالعلاماتِ الخطيره،
وهذي التربةُ الضنينة،
من أحشائها لا شيء يطلعُ.
صحَّ ما تقولونَه:
فَسدَ الوقتُ والقوتُ غلت على المقهور أسعارهُ،
صحَّ ما صحَّ والحبُّ بينكم تداعت دَعائمهُ،
وضاقَ الانسان والترحالُ لا ينفعُ.
(...)
هنا أنتم: بين جدب الأرضِ وأسلحةِ الجندِ،
تمرونَ من ضيقٍ إلى ضيقٍ،
ومن مدِّ العوزِ إلى اللحدِ.
(...)

صحَّ ما صحَّ، ولكنْ صحَّ أيضاً ما تحكونهُ عن الأجسامِ العنيده:

قد برزتْ فيكم بين الردمِ والصبّارِ والأشجارِ الشريده،
وراحت تغالبُ الموتَ وتبحثُ عن صَباحاتٍ جديده.

سكت أبو ركوة هنيهة، وظهر أن القوم أجمعين كانوا بكلامه مولهين منفعلين، وكان الكثير من شباب العشائر قد طوقوا خيمة الاجتماع بأسماعهم وجميل مشاعرهم. ثم استأنف أبو ركوة الكلام بلهجة حازمة تروم التقرير والاقتضاب، قال:

- أيها الاخوة في التقوى والعقيدة السمحاء، قد علمتم بما سعيت به بينكم من سعي حميد، وأدركتم أن لا خلاص لكم إلا في أن تهرقوا على جمركم، وتتوحدوا في الجهاد ضد قوى البغي والطغيان. فماذا ترون وبمَ تشيرون؟

انتصب شيخ الزائرين واقفاً، وكان طرماحاً وقوراً، وغمر الجالسين بنظرة ود ووئام، ثم خاطب أبا ركوة قائلاً:

- صدقت القول، أيها الصالح المقدام. إنّا لا نراك في مساعيك الميمونة إلا محفوفاً بأسباب العز والفلاح، ونحن في القبائل التي ننطق باسمها في هذا المقام الجليل، سنذكر لك أجيالاً بعد أجيال حصافة رأيك وجميل صنعك. وكيف لا، وأنت تنجز فينا وفي جيراننا من بني قرة ما عجزنا عنه جميعاً، ويئسنا منه بالمرة: وحدة بعد شتات، وإحلال الاخوة في التقوى والعقيدة السمحاء محل التعصب للدم والقرابة، وتهييء الجهاد المقدس ضد الظالمين الطغاة بشرط الكف عن حروبنا المزمنة الرديئة. فجزاك الله عنا خير جزاء.

عاد الشيخ إلى جلوسه، مصحوباً بإشارات التأييد

والتبريك من الحضور. وقام بعده شيخ بني قره، وقال:

- نِعم القول قول شيخ زناتة المبجل، فاحمدوا الله يا قوم ان هدى الامام أبي ركوة إلينا، وهدانا به وبفكره السديد. احمدوا لله الذي أزال عنا همنا المقيم، بأن جردنا من أسباب العراك والشقاق، ويسر لنا شروط التآزر والوفاق. ونحمده أن جعلنا بوحدتنا وتكتلنا قادرين على الجهاد في سبيل الحق، غير هيابين من تجبر متجبر وطغي طاغوت. خير الرأي ما سبقته المشورة، ولعلي بالامام أبي ركوة يطالبنا بما نراه في باب الحيلة والمسار، بعد أن تحددت معالم الغاية والمرمى.

كان الشاب شهاب الدين يترنح في مكانه ويتربص فرصة الظهور برأيه ومواهبه. وما إن جلس أبو المحاسن حتى قام وقال:

- أيها الاخوة في العقيدة السمحاء، ويا نزلاء السلم والوئام، حمدنا لله لا حصر له، وتيمننا بوحدتنا لا حد له. أيّ غاية أكبر من أن نتعاون في صبّ جام غضبنا على مصدر قهرنا وانسحاقنا، بعد أن كنا نصبه على بعضنا بعضاً! لكن الغاية هاته، لن نعرف نعمتها ونتملى ببهائها إلا بالسعي إليها والحصول عليها. فإلينا بالفكرة نبلورها، وبالشروط والأسباب ننظر فيها ونرتبها. ولنا أن نتوكل على الله ونستعين بأضواء إمامنا المقدام.

شعر أبو ركوة بضرورة التجرد للأسئلة المضمرة، التي تدور في خلد الحاضرين: حول تحديد الأهداف الترابية واقتسامها، وحول ميزان توزيع الغنائم بالقسطاس، وقال:

- بهجتي الكبرى وسعادتي، يا سادة، في أن تعلموا وتتيقنوا أن لا مطمح لي ولا مطمع إلا في إعلاء كلمة الله

ونصرة العدل والحق. فإن كنتم تريدونني لهذا، فأنا معكم فيه في السراء والضراء، أقاتل معكم، وأبارك أعدادكم، وأترقب منكم في باب إعداد القوة كل مزيد. وإني لأراكم مستبشرين بوحدتكم خيراً، وعازمين على رصها وتطعيمها بالجهاد في سبيل الله.

صعد من بين الزناتيين صوت فظ مستفسراً:

ـ سبل الله التي تطلبنا للجهاد، يا ولي الله، لا حصر لها، فحدد لنا فيها المبتدأ وعين المنتهى.

أجاب أبو ركوة بلهجة حازمة آمرة:

ـ برقة معبرنا ومصر والشام غايتنا.

تهامس جل الحاضرين مستعظمين خطب المهمة: «برقة معبرنا ومصر والشام غايتنا!»، فسارع شهاب الدين إلى نجدة الفكرة، ووقف قائلاً:

ـ الصواب يا قوم ما يراه إمامنا، فأنتم إن قنعتم ببرقة فوالله لن يكون حكمكم عليها إلا كسحابة صيف؛ وأما إن أردتم لوحدتكم إشعاعاً ولقوتكم دولة، فلا بد لكم من أرض مصر والشام، تقتلعون منها حكم الطاغية الفاطمي، وتقيمون فيها حدود الله.

وارتفع صوت من بين رجال بني قرة سائلاً أبا ركوة:

ـ يا إمامنا المجاهد، هب أننا نلنا بسيوفنا مجتمعين ما تتوخاه لنا وتبغيه، فكيف نتقاسم البلاد وكيف ندير؟

شعر أبو ركوة بلزوم أخذ المبادرة في الرد على هذا السؤال الوعر، وقال:

ـ لا أرى إلا مـا يقره العقـل في هذا البـاب: الأرض أرض اللـه، فـإذا مـا كتب لنـا النصر، فبـلاد مصر لكم ولي نحن السـابقين، نحكمهـا بالعـدل والشـورى، ولا نهتـدي فيهـا إلا بمصابيح التدبر والاجماع، وأما الشـام فنولي عليهـا من لحق بنا على دروب الجهاد.

تـرددت بين الجمـع أصـوات التـأييـد والتسليم، تكـاد لا تشوبها شائبة ريب أو نزاع، ثم برز رجل من الزناتيين، وقال:

ـ يا أبا ركـوة، لمَ لا تباشرنـا بما يتـوق كل القـوم هنا إلى معرفته عن المغانم، فاضبطها أيدك الله، وحدد لنا فيها قسمنا لندرك كيف نجرد سيوفنا، ونتبين من أمرنا رشداً.

أجاب أبو ركوة، وكله ميل إلى تليين حدة السؤال:

ـ قال تعالى: «تبتغون عرض الحياة الدنيا فعند اللـه مغانم كثيرة»، وقال النبي عليه السلام: «الغنى غنى النفس».

رد الرجل لتوه معانداً:

ـ مغانم اللهْ الكثـيرة لن تنفعنا إلا في الآخـرة، أما عنـا في هذه الدنيا فقد قال تعالى: «فكلوا مما غنمتم حلالاً طيباً».

قال أبو ركوة بصوت مهادن:

ـ «فكلوا مما غنمتم حلالاً طيباً واتقـوا الله»، صـدق الرب الكـريم. يا قـوم لا تقوى في تـوزيع الغنـائم إلا بالقسطـاس. خُمس للفقـراء والمعوزين وأبنـاء السبيل، وخمس لبيت المـال، وما تبقى فخذوه حلالاً طيباً، لا فـرق فيه بـين المجاهـدين. ولا مغـانم تؤخذ إلا من أقـوام قتلونـا وظلوا شـاهرين السيـوف علينا. وأما المسالمون والأبـرياء، فـلا خوف عليهم ولا عـلى ما ملكت أيـديهم. كل من نهب وسطـا، أو أحرق شجـرة أو أتلف

غلـة، فليس منـا ولا نحن نقصر في عقـابـه. هـذا قـولي إليكم فاعتبروه.

لم تبد على الوجوه إلا علامات الموافقة والـرضى، فاغتنمهـا شيخ بني قرة فرصة لدفع القوم إلى مسك الختـام والانشراح، إذ دعـاهم إلى قراءة الفـاتحة، فقـرأوها خـاشعين، ثم وقفـوا وانتشروا خارج الخيمة وهم يتصافحون ويتعانقون.

في الخـارج كانت النسـوان منهمكـات في إعـداد صحـون الطعام. وأتى رجال من القبيلة المضيفة بجمل، فطرحوه أرضاً أمام أبي ركوة طالبين منه أن يباركـه بنحره، فتـوضأ الامـام، وصـلى ركعتين، ونحـر والنـاس من حـولـه يكبـرون. ومـا ان انتصف النهار حتى كانت خيمة الضيافة تضم إليها الزائرين وأكابر المضيفين، وهم يأكلون ويشربون هنيئاً مريئاً، ويتبادلون النوادر والطرائف. ولما انتهوا سـارعوا إلى أداء صـلاة الظهر وراء أبي ركـوة، ثم عـادوا إلى خيـامهم قصـد الاستـراحـة والقيلولة.

مضت مـدة والمخيم كله غـاص في محيط سكينـة شـاملـة. وكانت ريح لياع تهب على الأبدان، والمِعَدُ تعاني لحظات هضم عسـير. ورغم هذا وذاك، فـإن النفـوس كـانت عـاليـة بعيـدة التحليق، تحلم بخـيرات برقـة ومصر وكل المـدائن المـوعـودة، وترى المغانم ما ظهر منها وما بطن على طول أميـال لا تنتهي، وتـرى في ملكها حقـول الخصـوبـة المتجـددة والنيـل المحـاط بالبركـات، وترى الـذهب والفضة والخيـل المسومـة والأنعام، وترى الجاه والصولة والصولجان. ولـولا نداء المؤذن لصـلاة العصر، لظلت النفـوس تلاحق رؤاهـا تباعـاً، زاهدة في الـوقت واليقظة.

بُعيد الظهر، شرع الـزائـرون في التهيؤ للـرحيـل. كـان التصافح المكلل بالعنـاق بينهم وبين مضيفيهم حـاراً صادقـاً؛ وتواعدوا كلهم باللقاء القريب، وتواعـدوا بالتـآزر والنصر. وفي غمـرة هذه العـواطف الجياشـة، أتى أبو ركـوة أمام شيـوخ زناتة، فأخرج من كمه حزمة أوراق، وقال وهو يسلمها لأكبرهم سناً:

- هـذه، أيدكم اللـه، وثيقة الصلـح بينكم وبين عـرب بني قرة، حررتها بمداد الوفاء والخلاص. ومعها كمـا ترون وثيقـة هي سر بيننـا وبينكم، وفيها قيـدت ما تعـاهدنـا عليه في بـاب الجهاد ورفع المظالم والظلمات. فأطلعوا عليهـا كافـة عقلائكم، ثم ردوها إلينا موقعة بخواتم الشرف والاباء حتى نعيـد اليكم نسخها بخواتم مثلها من بني قرة. ومـا إن يتم لنا هـذا بحول الله حتى يكون ربيع الآخر الآتي من هذه السنة المباركة شهر لمِّ شتاتنا، وتوحيد صفوفنا، ودخولنا برقة آمنين مفلحين. وأما الآن فعـودوا إلى عشائـركم مستبشرين ومصحـوبـين بـاليمن والسلامة.

لما أن أتم أبو ركوة كلامـه وقبل الضيـوف واحداً واحـداً، امتطى هؤلاء خيلهم وانصرفوا ملوحـين بالتسليم، تـاركين بني قرة في حالة غبطة وانشراح. وحين غابوا قال أبو ركوة:

- «الحمد لله الذي هدانـا لهذا. ومـا كنا لنهتـدي لولا أن هـدانا اللـه». أيها القـوم، أنتم منـذ الآن في حـالـة استنفـار قصوى من أجل يوم عظيم، فأعـدوا لعدوكم مـا استطعتم من قوة، وتدبروا أموركم بـالجملة والتفصيـل، وأنا معكم كعضـو منكم، أشـارككم في التنظيم والتـرتيب، وأعـزز نظـركم في مـا صعب من شؤون التخطيط والتصميم. وإن طلبتمـوني لهـذا،

فاطلبوني في مساء كل يوم من شهرنا الجاري. وأما الصباحات، فإليّ بأطفالكم، أعلمهم كلام الله وما صحّ من الأحاديث، إذ العلم في الصغر أبقى من وحي في حجر. إليّ بصغاركم منذ غد، أتقلد تعليمهم أمانة في عنقي ومهمة أتشفع بها يوم القيامة. وما بقي من هذا اليوم، فلي فيه حاجة إلى خلوة أكيدة، لأستجلي نفسي وأستفتي ربي.

*

سارت حياة بني قرة على ذلك النحو الذي ارتآه إمامهم. وكان كل يوم من ربيع الأول والآخر يأتيهم بتيسير أو خبر سعيد: فها هم زناتة وحلفاؤهم يبعثون بوثائق الصلح والتعاقد على الجهاد ممضاة بالموافقة والتأييد، وها هم الكتاميون في افريقية يعرضون مشاركتهم في كل حرب ضد الحاكم الفاطمي، وها هي الاعدادات الجهادية على قدم وساق تسير من حسن إلى أحسن. وكان أبو ركوة، بالرغم من انشغاله بالتعليم والقراءة والتفكير، يتتبع كل خبر ويتلقاه من الشيوخ بالابتسام وآي الشكر والتبريك. ومما كان يسمعه أو يلاحظه أيضاً، هو عن تفوق الفتى شهاب الدين في تدريب الفتيان على استعمال كل أنواع السلاح الأبيض، وخوض غارات ومعارك وهمية، وتنظيم الأفخاخ والكمائن. وذات ليلة استدعاه أبو ركوة إلى خيمته وأجلسه قريباً منه سائلاً:

– أراك يا شهاب الدين تبلي البلاء الحسن والحرب لما تشتعل، فهل تبغي الزعامة؟

أجاب الفتى بصوت متردد بين الحيرة والوثوق:

– أيها الامام، إن بيني وبين ما أبغيه مسافة لا يقطعها من كان مثلي إلا هلك.

- ومن وضع المسافة وأقام عليها رقيباً؟ أهم العشائر؟

- ومن غيرهم يقدرون على تطويق كل جانح بالموانع والمتاريس إذا كان منهم! لو قدر لي أن أتصدرهم وأسوسهم، إذن لكان عليّ أن أكون أنت.

قال أبو ركوة متظاهراً بالفضول والدهشة:

- أن تكون أنا؟ أفصح أيها الفتى.

- لقد أحاط بحر فهمك بما أعنيه. وإن أردت بياني فاعلم أنك أنت ما ينقصني. هذه القبائل هكذا هي: لا تروم السمو إلا بفعل مهدي يأتيها من خارجها، متحدثاً بلسان شعورها الباطن، واعظاً بالتقوى والتطهير، واعداً بانكشاف الغمة والفتح القريب، داعياً إلى الخير وقلب الدنيا والموازين. ولا يهم أن يأتيها متنكراً بزي الناسك أو متلبساً بنسب عريق، بل الأهم والأجدى أن يأتيها مع الظرف الموعود والدفع الميمون.

شعر أبو ركوة لأول مرة أنه بمحضر ندّ يكلمه بكلام المرايا وحديث النفس للنفس، فظل ينصت ببله، محملقاً في الرمل من تحته وكأنه تحول إلى بركة ماء شفاف. وأضاف الفتى موضحاً:

- إني يا أخي وإمامي لا أرد عليك نسبك أو زهدك، وكيف لي بهذا الفعل اللاغي وأنا لا أرى الحقيقة إلا فيما تحقق، فأتى بالخلاص والنفع! وأنت قد تحققت في بني قرة، وحققت فيهم خيراً عميماً وهم من التلف قاب قوسين أو أدنى.

أخذ أبو ركوة طبقاً من التمر كان بجواره، واهتم بتقديمه إلى شهاب الدين من حين لآخر. وإذ تضايق هذا الأخير من سخاء جليسه قال:

ـ أتريديني في متابعة الكلام أم في مضغ التمر؟

ـ لا واللـه لا أرغب إلا في تكـريم الحـلاوة في خطـراتـك بحلاوة أخرى.

ـ كيف لي أن أردّ عليك حلاوتـك وأنا لم أردد عليـك نسبك أو زهدك! فانظر ما أفعله بالتمر لتدرك مقدار معزتك عندي.

قال هذا وشرع في بلع التمر واحدة تلو الاخـرى، حتى كاد يأتي على الطبق لو لم ينتزعه منه أبو ركوة قائلاً:

ـ أنت غني عن هذا الامتحان، وأنا بك واثق.

أجاب شهاب الدين بصوت يغالب الفواق والتأثر:

ـ قد كان عزمي ألا أفضي إليك بمـا ينوء بـه صدري حتى بعد أن تراني على ساحة الوغى، أحقق في ظلك مع القـوم أول النصر في ديار برقة. غير أنك وقد عجلت لي بهذا اللقاء، فـإليك بالبقية في جعبتي. قلت عنـك إنك تنقصني، والأصـح من هذا أنك أنت لا تنقصني إلا بقدر ما أنا أنقصك. فإن التقينـا على الرحب والوفاق، اكتملنا ومهدنا الظفـر تلو الظفـر: أنا بسيفي البتار وأنت بدرعك الواقي، أنا بضم التربـة إلى التربـة وأنت بالسقي والاستسقاء، أنا بالترهيب وأنت بالترغيب، أنا بالردع والوعيد، وأنت بالوعد والتيسير، فهلا ضممتني إلى بحر فهمك، وحملتني إلى ما تبحث عنه وتسعى إليه؟

ـ ويحك يا فتى، أراك تستبق الأحداث بكل جوانحك وتروم الدولة!

ـ وهل لنا من مخرج غير الدولة ونحن نريد الانتشار؟

ـ ولكن لمَ الحـديث عنها قبـل الأوان؟ هل ربحنـا المعارك كلها، وطوينا الهموم قاطبة ولم يبق إلا الهم بالدولة؟

ـ الدولة العـامة أمـر عظيم، وإن كنا نبغيهـا ونتقصدهـا،

فـالحلم بها قبـل النصر أخصب وأجـدى من الحلم بهـا بعـد النصر. ألست أنت القائل: «برقة معبرنا ومصر والشام غايتنا». فأنّى لنا المعبـر والغايـة من غير أن نظهـر على النـاس بجهاز حكمنا والاحتكام إلينا؟ دعنا بـربك نتعـاهد أنت وأنـا على مـا نتقـاسمه ونتـوق إليه، فنـرتب للحلم فضاءه ونمـده بأسبـاب التحقيق.

– هبني واطأتك على عهد، فما أنت قائل لقومك؟

– تسألني وأنت أعلم بالخفـايا، وتـواضعني وكأني في بني قومي كالطين اللازب، لا حق لي أن أخرج بهم ولا فيهم، فكفى مواضعة ومـداهنة، وانظـر إلى نفسك فيّ تـرى ما أراه: كـلانا صنـو الآخـر، ولا نـريـد لهـذه الاقـوام إلا أن يخـرجـوا من هـوامشهم وغيرانهم، ويـرموا خلفهم رمـال تفرقهم وشتـاتهم؛ وهم لا يريدون أن يسيروا إلا وراءنا، ولا أن يتسيـدوا إلا بنا، مسترشدين بهدينا وعلو مرامينا.

– ليت لي ما لك من غليان وحماسة حتى أرى مرمى أوعـر وأعز من القضاء على الحاكم الفاطمي ودولته.

– ضريع هذا المـرمى هو الخـروج بأقـوامنا وأحـلافنا إلى المدائن ومجالات الفعل والحضور.

ربت أبو ركوة على كتف شهاب الدين وعلق مقاطعاً:

– هـو ذاك يا صنـوي، هو ذاك. أنت حقـاً الشهاب الـذي ينقصني ويعوضني عن تردداتي وشكوكي.

– هل مثلك أيها الامام يعرف الشك والتردد؟!

– من لا يعرف هذا فلا إمامة بل لا إيمان له. تـراك فكرت مـرة في ما سنؤول إليـه كلنا إن نحن رسبنـا وهُزمنـا. لو كنتَ تعـرف طغيان الحـاكم الفاطمي كمـا أعرفـه، لـو كنتَ تعـرف

شراسته وعلو كعبه في تقتيل الخارجين عليه وحتى الداخلين في طاعته، لو عرفتَ ما أعرف لتخيلتَ ولو مرةً مـا أخشاه: أوديـة من الدماء بيننا تجري، وتـلال من الرؤوس المقطـوعة، لا قـدر الله، يقف عليها دعـاة الحاكم يسبّحـون باسمـه ويدعـون إلى عبـادته وتـأليهه. أرى هـذا فأقـول: أيحقّ لي أن أدفـع هؤلاء الأقوام إلى درك اندحارهم وزهق أرواحهم؟ وبماذا أجيبهم إن واجهوني كلهم غداً يوم القيامة قائلين: لقد وعدتنا بـالنصر ولم تعدنا بالخسر، وخيبت آمالنا خيب الله مآلك؟

كانت عينا أبي ركوة تلمعان بالدمع، ورنة صـوته يخـالجها تهدج وانكسار. وانتاب شهاب الـدين شعور بـانفلات الأرض من تحته، وقال متغلباً على حيرته واندهاشه:

– عجباً يا أخي! أيرتاب في النصر من لـه إيمانـك، ويريـد نصرة كلمة الله على الأقوام الظالمين؟

– ليس خـوفي من هؤلاء الأقوام، بـل من ضربات الخيـانة والغدر أن تأتيني من أتباعي وأنصاري.

– إذا كنت تقصد حماد الماضي ونفره، فأنا معهم أسهر من النجم، وإن أردتَ سحقتُهم غداً واحداً واحداً.

– ليس الماضي وقد ارتاع في لحمي إلا زبد الأفاعي الخفية، فلا تنفذ فيـه الوعيـد حتى نرى كيف يحـارب معنا في معـركة برقة الآتية.

– حسنـاً نطقت! وأحسن منه أن تطـرد من بالـك الشكوك والمخـاوف كلها، فـاعقلها وتـوكل عـلى الذي هـو حسبك. أمـا أقوامنا فـإن انتصروا فلهم الدنيـا والآخرة، وإن هُـزموا فمـا فقدوا إلا أصفادهم وأيامهم النحسات، وما أراهم يوم القيامة

يحاسبونك وهم في سدرة المنتهى، ينعمون بما وعد الله به المجاهدين في سبله.

– هو ذاك يا شهاب الدين، هو ذاك! إما ملك وإما هلك، أليس كذلك! وإن خسرنا فلسنا بأول من غرهم السراب. والآن ماذا تريد من السلطان؟

– لك الامامة كلها والسلطات الروحية ما ظهر منها وما بطن، ولي دونها دفة الحكم، أديرها بوحي منك، وبما قلّ ودلّ من الأتباع، فمدَّ لي يد التعاهد.

– لك إن خلصنا إلى مصر هذه القسمة، وليس الإمامة أطل منها عليك مراقباً راعياً، لا أقبل من الأتباع إلا أتباع الحق، ولا أغمض جفني وسيفي إن رأيتك إلى التفرد بالحكم نزّاعاً أو إلى الفواحش توّاقاً.

قام الرجلان وتصافحا، ثم تعانقا عناقاً حاراً، وافترقا على أمل اللقاء في السر قريباً.

*

في أواخر ربيع الثاني، كان بنو قرة قد أنهوا كل استعداداتهم وتدريباتهم، وظلوا يتطلعون إلى يوم المعركة على أحرّ من الجمر. وارتأى الشيوخ أن يذهبوا إلى قبائل زناتة في زيارة تفقدية، فبعثوا من يخبر بمقدمهم، وطلبوا من أبي ركوة مرافقتهم، فبارك الفكرة وشد الرحال معهم. وما أن حلوا بين حلفائهم حتى وجدوا منهم كل علامات الترحيب والتكريم، وسمعوا على لسان أكابرهم بيانات التأهب والتشمير. وشعر أبو ركوة أن عليه الآن أن يأخذ بشآبيب جذوة الحماسة وفورة الاندفاع عند أتباعه، فقال فيهم مقتضباً:

– أيها القوم، نحن اليوم على عتبة يوم عظيم، يوم

انطلاقتنا إلى برقة، نخلصها من مخالب الطغي والجبروت. وأعظم من هذا اليوم يوم يكتب لنا النصر في مصر حيث مصدر الداء وعلة الوباء، فوفروا وادخروا لذلك اليوم الأعظم، أيدكم الله، أعدادكم وعتادكم، ولا يطلبن مجاهد منا فوزاً ولا استشهاداً إلا في يوم الحسم ذاك. أما برقة، فقد تضرعتُ إلى الله وتوسلت أن يسلمها إلينا هبة من عنده، فرأيت في منامي مرتين أننا، بحول الباري، ندخلها آمنين مطمئنين، لا نفقد فيها قطرة من دمائنا ولا نسيل دماء المعاندين.

تبادل جلّ الحضور نظرات التعجب والاستغراب، وارتفعت بعض الأصوات سائلة:

- وإن شهر المعاندون السيوف في وجوهنا وطلبوا قتالنا؟

قال أبو ركوة، وهو يغالب أصواتاً كثيرة تلهج بالسؤال نفسه أو تحوم حوله:

- ذلك بعيد الاحتمال، وإن فعلوا فتطففوا في إزهاق أرواحهم وتأففوا. فنحن نؤثر قبضهم أحياء، حتى نبادلهم بالأسرى من كتامة في معاقل الحاكم الفاطمي.

سأل سائل من بني قرة:

- وما يهمنا نحن من شؤون الكتاميين وأسراهم؟

فرد أبو ركوة:

- نحن بهذا الفعل الخيّر نستميل كتامة القاطنين مصر والعاملين في دولة الفاطميين وعسكرهم، وبه أيضاً نعلن قبولنا لعرض العون والدعم من قبل كتاميي افريقية... كل من عادى الحاكم الفاطمي في الظاهر أو الباطن فهو حليفنا يوم الحسم،

نفـرش له الطـريق إلينـا بـالـورد والـود، ونعـده، بمـا نطيق ونستطيعه. ألا هل بينت؟

ظل الحاضرون واجمين لا يبدون حراكاً، كأنما استبدت بهم نـوبة تمعن وتخمـين. ولم يخـرجهم منهـا إلا صـوت الشيـخ أبي المحاسن الذي دوى من خلفهم كالرعد، وقال:

- مـا بالكم، يـا قوم، تؤثـرون الصمت حيث يلـزم الكـلام بالتنعيم والترحيب؟ أخرجوا ما في صدوركم لنتبـين من أمرنـا رشدا.

نطق رجال من الفريقين وتوالت أقوالهم تباعاً:

- يلـزم أن نسيل في بـرقـة مـا استطعنـا من دمـاء، حتى نرجف بها الحاكم الفاطمي.

- كيف نقنـع مقاتلينـا بدخـول برقـة آمنـين مطمئنـين، لا يهتدون إلا بضوء رؤيا أبي ركوة في المنام؟

- أما الكتاميـون، فإننـا بأعـدادنا وعتـادنا في غنى عنهم، والحساب عندنا أنه كلما كثرت الأحلاف كلما قلت المغانم.

عاد أبو المحاسن إلى الكلام، ولكن بصوت منهك متداع:

- أرى دار لقمان لا زالت على حـالها، ويحـزنني حزن أبي ركـوة وهـو يـراكم لا تنجـذبـون إلا إلى الـدمـاء والمغـانم، وتستـوعرون السهـل وتستسهلـون الـوعـر، وتبيعـون الغـالي بالرخيص والعلو بالقريب. أما آن لكم أن تصحـحـوا مدارككم وتغيّروا ما بأنفسكم؟ أما بكم حاجة إلى مقامات العفة والرفعة؟

تبادل أبو ركوة وشهاب الـدين نظرات استنجـاد، وبدا أن هذا الأخير يؤثـر أن تكون كلمـة الفصل من فم الامـام.. قال أبو ركوة:

- يا قوم، لست حـزيناً إلا لكـون بعضكم لم يفهم بعد مـا أريده وأرضاه لكم جميعاً. فاعلموا اليوم قبـل أن تتبعوني إلى ساحة الجهاد، اعلموا أن القصد عندي غـير ما قـد تظنون أو تتوهمون. القصد عندي ليس مجاراة الحاكم الفاطمي في إراقة الدماء التي حرم الله، أو في البطش والتقتيل بالمجـان؛ القصد عنـدي ليس تعريض أرواحكم للنهش والاتـلاف. أرواحكم بيد الله وليست بيدي. واللـه الذي تنصرونـه يريـد لكم نصراً ولا يبغي لكم خسـراً. فآزروني فيمـا أقصده وأجنـح إليه. بـرقـة معبرنا ومصر والشام غايتنا، لا تنسوا هذا الذي اتفقنـا عليه، ولا تعطوا للمعبر ما تعجزون عنـه أمام الغـاية. وإني لا أقـول وأرى عن برقة إلا مـا أعلمه؛ لقـد طفت بها وهي أرض بـور، وحرثتها مع الدراويش ومعطـوبي الطاغـوت الفاطمي، وزرعت فيها معهم بين الأهالي تهاليل الترقب والرجاء، وأشـواق البشر والانعتاق. فبرقة اليوم لكم غلة ميسورة، لا أراكم تأخذونها إلا بالسلام والعناق. أما مصر فلا بد لنا فيها من حروب، وحروبنا تلـك ليست كما عـرفتم وعهدتم. فـوالله لن تنفعكم فيهـا حيل الغارة الخاطفة ولا مكاسب الكرّ والفرّ، ووالله لن تربحـوها إن لم تدخلوها بأعداد تقارب الجحـافل الفـاطمية، وتقـاتل بنفس سلاحها وفنونها. لهم خيالتهم ومشاتهم ورمـاتهم ولكم مثلهم؛ لهم قـدرات عـلى الحـرب في المـاء والبـر والخنـادق ولكم مـا يضـاهيها؛ لهم أنصـارهم وأحلافهم ولكم مثلهم أيضـاً. فـإن وعيتم كـل هذا، إذن لكنتم أحـرص من كتامـة على التحـالف معهم وقبول عروضهم. فهم لنا على أبواب مصر كما في داخلها خير عون وأجدى نصير.

ما أن ختم أبو ركوة كلامـه حتى تعالت من كـل الحاضرين بـلا استثنـاء هتـافـات التـأييـد والتـرحيب، يؤجـج لهيبهـا

أبو المحاسن وشهاب الدين، فبدت على الامام علامات الابتهاج والانشراح، وقال:

ـ الحمد لله الذي هدانا إلى ما فيه خيرنا وصلاحنا في هذه الدنيا والآخرة. وباسمه أعلن يوم الفاتح من جمادى الآخرة من هذه السنة المباركة يوم دخولنا إلى برقة الميمونة، آمنين مظفرين. وبهذا فليبلغ الحاضر منكم كل الغائبين.

كانت هذه الكلمات إيذاناً لبني قرة بتوديع شركائهم، فودعوهم وواعدوهم على اللقاء في اليوم العظيم، ثم امتطوا خيلهم وانطلقوا فرحين نحو مخيماتهم، يتقدمهم أبو ركوة على فرسه.

*

في فجر اليوم الموعود التقى كل أتباع أبي ركوة على مدخل برقة الجنوبي، حيث شكلوا جيشاً واحداً وعينوا قيادة مشتركة. ثم بادروا إلى تنفيذ وصية أبي ركوة بمحاصرة المدينة وتسريب رسل التحريض والتبشير إلى السكان. وما أن انقضى اليوم الأول حتى تقوت صفوف المحاصرين بالجنود الفارين من جيش الحاكم الفاطمي، وبأفواج غفيرة من الأهالي. وفي اليوم الثاني، وقد ضاق الخناق على والي برقة ينال الطويل التركي وبقية جنده، اقتحم أبو ركوة المدينة في فلول من أتباعه محاولاً استدراج مدافعيها خارج خطوطهم وتحصيناتهم، لكنه لم يفلح. فقفل راجعاً إلى معسكره والقلق يساوره على خطته السلمية، وانزوى في خيمته طالباً للراحة والتفكير. وفي اليوم الثالث، بدأت تدب بين بني قرة وحلفائهم مشاعر الامتعاض والضيق من الترقب والامساك عن الهجوم، التي كان يثيرها سراً حماد الماضي ويذكيها. وقد تناهت كلها

إلى سمع أبي ركوة المعتصم بخلوته في شكل احتجاجات وأسئلة عسيرة. وكان أبو المحاسن يتدخل لدى المعترضين إبان هياجهم، ويلقي بكل ثقله لحملهم على الانضباط والصبر، حتى يخرج الإمام عن صمته وينطق بما جدّ من رأيه. وقبيل نزول الليل، لوحظ غياب شهاب الدين عن المعسكر، فتعالت صيحات التنديد والاستنكار، وعمّ جو من الجلبة والاضطراب. فانتهز حماد الماضي هذه الفرصة السانحة وخاطب قومه قائلاً:

ـ يا بني قرة، أرجال أنتم أم ربات حجال؟! تنقادون وراء إمام يختفي عنكم وقت الغمرة، وتنخدعون بواحد منكم يخونكم عند الغرة. أمعركة هذه التي ترومون أم مهزلة؟ ألا إن كنتم تطمعون في برقة فاطلبوها على حد سيوفكم بالاجتياح، وليس بالترقب والتمني والنباح. أما إن كنتم تخشون العاقبة، وتدركون نقمة الحاكم الفاطمي وشدة ثأره، فارجعوا إلى خيامكم ومستقر أيامكم. وإني أرى لكم هذا أحسن وأجدى.

لم ينه الماضي نذيره إذ انقض عليه فارس مهيب من قومه، وانهال عليه باللطم والعفس صارخاً:

ـ يا أشأم من حفار! خسئت من رجل لا يسير إلا بالغبينة والحسيفة، ترونه صغيراً ذليلاً في السراء ومنتفخاً متنطعاً في الضراء.

كان الفارس موشكاً على صرع الماضي حين سارع أبو المحاسن إلى إبعاده ونهيه، وقال:

ـ يا قوم، قد اجتمعت بالامام في خلوته، وإنه يخبركم أن شهاب الدين ما خان ولا تقهقر، وإنما بعثه في مهمة سترون نتائجها الميمونة عما قريب، إن شاء الله. فعليكم بجميل الصبر والأناة. أما أنت يا حماد فحبلك على غاربك، لا أنت منا

ولا نحن منك، فلا يبزغن فجر غد إلا وقد ذهبت بـرهطك حيث ذهب الحمار بأم عمرو.

كـانت السكينة قـد عـادت الى قلـوب المجـاهـدين، وعمت أفئـدتهم نوازع التعقـل والتأني. ولمـا أخذوا يتهيـأون للنـوم سمعوا حراسهم يصيحون بالإخبار عن ثلاثة رجال يقصـدون المعسكر، ويتقدمهم رجل يحمل مشعلاً وخرقة بيضاء. وخـرج أبو ركوة وهو يعلن بأعلى صوته:

ـ أبشروا يا قوم، أبشروا، إنه شهاب الدين يعود إلينا بينال قـائد الأعـداء حياً. وإن شـاء اللـه، لن يطلـع الصبـاح حتى تدخلوا برقة آمنين مسالمين.

لم يصـدق الناس قـول أبي ركـوة حتى رأوا بـأم عيـونهم شهاب الدين الذي بادر إلى إزالة الدهشة عنهم، وقال:

ـ يا قوم، ها أنذا أؤوب إليكم، وقد نفذت بتـوفيق من الله فكرة إمامنا المفدى في القبض على قائد الحامية ورأس الحربـة ينال الطويل التركي هذا. وقد ساعدني وأنار طريقي إلى هـدفي هذا الجندي الكتامي، الذي نكّرني بزي كـزيه، وكـان من أول اللاحقين بنا والناصرين لنا.

عاد أبو ركوة إلى خيمته ولحق بـه شهاب الـدين لاوياً عـلى سجينه. فكان على الرجلين أن ينظرا في مصير هذا الأخير، وفي إمكانية تسلم مواقع الفـاطميين داخـل المدينـة من دون إراقة دماء، سأل شهاب الدين ينال قائلاً:

ـ إنك ولا شك تريد أن تبقى على قيد الحياة.

فردّ ينال بصوت متهدج يفصح عن انهياره:

ـ لا رغبة لي في الحياة إطلاقاً طالما أني بينكم في حالة اعتقال.

ـ تبعث بأمر الاستسلام إلى جنودك فنخلي سبيلك.

ـ لن يقتنع جنودي بهذا الأمر إلا إذا بعثتم إليهم برأسي مقطوعاً، طريّ الدم. أما إن آثرتم إخلاء سبيلي، فلن يكون مؤداه إلا موتي بتدبير من الحاكم بأمر الله.

ـ تعطي الأمر وتبقى بيننا محمياً مصاناً.

ـ بينكم وبيني مسافات تعمرها المهالك.

ـ وكيف ذلك يا معاند؟

ـ أنتم مغاربة وأنا تركي، وأنتم كالترك ترومون القوة والسلطان، ولا أرى الغلبة إلى جانبكم، بل مع أبنا قومي الآتين.

ـ خسئت يا منبىء السوء، هل تريد ليدي أن تسبقني إلى صرعك حالاً؟

ـ ليتك فعلت! فهل تريد أن ألطم سيدك أو أبادره ببصقة حتى تعجل بي؟

خرج أبو ركوة من صمته وقال مقطباً متذمراً:

ـ أما اللطمة والبصقة فلم أرهما في منامي.

ثم تناول سيف شهاب الدين، وضرب به عنق ينال ضربة طوحت برأسه قريباً من الجموع على مخرج الخيمة. وظل كل من شاهدوا الحادث مذهولين مذعورين، وكان شهاب الدين أشدهم ذهولاً وذعراً. فقال متمتماً مرتبك الثغر:

ـ أأنت فعلت ما نراه؟ وبيديك الكريمتين فصلت رأساً بعنف لم أره من قبل؟ والله لم أكن أتوقع منك هذا، وستبقى معرفتي بك على وجه دون آخر.

قال أبو ركوة وهو يمسح السيف من الدم ويعيده إلى صاحبه:

- أفعل هذا وأكثر مع كل من أغلق الأبواب كلها في وجهي، ولم يترك له منفذاً. والآن خذ الرأس الملعون وابعث به إلى جنود الفاطميين المحصنين، وارفقه ببطاقة تعرض عليهم الاختيار بين الاستسلام الفوري أو الموت المحقق.

- لن يطلع الصباح حتى يكون لك ما تريد ونريد بحول الله.

كان هذا ردّ شهاب الدين قبل أن يخرج متعثر الخطى لتدبير أمر وصية الامام. وبعد أن عرض الأمر على كل الشيوخ، أشاروا عله بطلب تطوع رجلين لأداء المهمة، مصحوبين بالجندي الكتامي مساعداً ومرشداً. وتطوع رجال كثيرون، فكان على شهاب الدين أن يختار اثنين من أشدهم بأساً وحنكة، واحداً من قبيلته والآخر من زناتة.

لم يمض على ذهاب البعثة سويعات حتى عاد أعضاؤها مصحوبين بكل جنود الفاطميين وهم يرفعون أيديهم، ويلوحون بالخرق البيض، ويطلبون الأمان. كان استسلام هؤلاء موافقاً لوقت السحر. ولما أطلت الشمس في مهد مشرقها ببواكير أنوارها، شاع الخبر في كل المعسكرات، فانضم مجاهدوها إلى معسكر الامام، وسادت أجواء من الفرحة العارمة، كل يطير بها على هواه، هذا الفريق يضرب على الطبول ويزمر، والثاني ينشد ويغني، والثالث يرقص ويتلاعب بالسيوف والعصي. ولم تهدأ هذه الفوضى الجامحة إلا بعد أن رأى المجاهدون أبا ركوة ممتطياً فرسه يردد بصوت عال: «الله أكبر!»،

فيكبرون معه مراراً بصوت واحد مرعد، ثم أصغوا إليه في خشوع وهو يقول:

- يا قوم، الحمد والشكر لله الذي صدقني الرؤيا، ويسر لنا أول النصر هبة منه سبحانه. ونحن اليوم أكثر من الأمس «رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه». برقة معبرنا، فلنطأها آمنين مؤمنين، لا غازين ولا غاصبين. برقة مرآتنا نبث فيها للقريب والبعيد آيات عدلنا وتقوانا. ألا فادخلوا المدينة أفواجاً أفواجاً، وانتظموا على أرضها الحمراء بين الأهالي في دوائر العون والاغاثة والاصلاح، وتعالجوا بزيتها وتربتها الغبراء شفاءً لكم ورحمة، وتهيأوا ما استطعتم لمعركة الحسم في مصر ضد الطغاة الفواطم. أما السجناء فهم أحرار إن قووا صفوفنا وحاربوا معنا، أو هم رهائن نبادل بهم من أراد اللحاق بنا من معتقلي الحاكم بأمره.

تعالت من صفوف المجاهدين كلمات الطاعة والتأييد، ثم امتطوا جميعاً خيلهم وانطلقوا الى أرجاء برقة، يتقدمهم أبو ركوة وكل الشيوخ. ولما بلغوا أحياء المدينة وساحاتها، استقبلهم الأهالي بعرس مشهود، عبرت فيه كل الفئات عن فرحها الفياض بالتحرير والانعتاق. وكان أبو ركوة في طليعة موكبه يلقاه الرجال بالأمداح والهتافات العاطفية الحارة، والنساء، بالزغاريد المتواترة والرشق بالورود الفياحة. كان المشهد مؤثراً حقاً حتى أن أبا ركوة لم يستطع حبس دموعه، فمال على شهاب الدين قائلاً:

- إن هؤلاء الناس يطوقونني بمشاعر حب لا أقوى على استحقاقها، ويقلدونني مهمة قد لا أطيقها، والآن إلى أين المستقر؟

أجاب شهاب الدين وبسمة الابتهاج تعلو محياه:

- إلى حيث يليق المقام بالامام، إلى دار الامارة بالطبع والتأكيد.

- دار الامارة؟! ما شاء الله! رمنا التواضع والبساطة، وها نحن على بوابة الأبهة والتعقيد.

لما وصل الموكب أمام دار الامارة، ترجل أبو ركوة وهرول إلى داخلها متبوعاً بخدمها وبالشيوخ. وفي أقرب بيت مفروش استقر جالساً، وخاطب أتباعه مقتضباً:

- أيها الشيوخ الأماجد! ما تبقى من هذا اليوم المبارك قضوه لراحتكم وتجديد قواكم. وغداً، إن شاء الله، نظموا أحوال جنودنا ونشاطهم داخل المدينة وخارجها. وبعد غد، نصلي كلنا صلاة الجمعة، شاكرين ربنا، مجددين عهدنا على ما نريده من خير وعدل لأمتنا المسلمة. وسلام الله عليكم.

ومن بين الحضور هتف صوت جهوري لشيخ مهيب قائلاً:

- السلام على مقام الامام الجليل أبي ركوة، وأهلاً بك وسهلاً في هذه المدينة المباركة، هذه المدينة التي دعوتها إلى الخير فاستجابت، وإلى الاصلاح فلبت وأيدت. وها هم رعاة هذه الدار قد أعدوا لك ولصحابتك أكواباً من لبن برقة وأطباقاً من تمرها احتفاءً بمقدمكم المظفر السعيد، فلا تردوهم قبل أن تتناولوا ما بأيديهم.

تقدم كبير الخدم إلى أبي ركوة بالتمر واللبن، فأخذ هذا منه اليسير، ثم أقبل كل الحضور على ما بالأكواب والأطباق بكثير من الاستساغة والنهم. وقام أبو ركوة وتقدم صوب

الشيخ المرحب به وسأله عن اسمه ومكانته، فأجاب باقتضاب ووقار:

- أنا زيدان المزاتي، ومزاتة، كما تعلم أيها الإمام، من البرابرة المعربين. وبرقة هذه مكان ولادتي ومقامي، لم أغادرها إلا مرة واحدة لأداء فريضة الحج، وإني بين سكانها أفتي بالمذهب الحنفي، وأرسخ ذكر الله رغم أنف الحاكم الفاطمي وشيعته المردة..

قال أبو ركوة وعلامات التأثر بادية عليه:

- بوركت أيها الفقيه العادل، وبارك الله في نباهتك وعلمك. رجائي أن تبقى قريباً مني، لتعينني على نصرة كلمة الله وإظهار الحق وإزهاق الباطل.

ردّ الشيخ وهو يشيع أبا ركوة إلى غرفة نومه:

- غداً، بحول الله، أعرفك على قبر الصحابي رويفع طيب الله ثراه، ثم أعاهدك هناك على العون والاخلاص.

*

في الساعات الأولى من صبيحة أول جمعة لجمادى الآخرة، رافق أبو ركوة الشيخ المزاتي للترحم على روح الصحابي رويفع، واستمع من رفيقه إلى كلام مؤثر في العدل والتوحيد، وفي وجوب الجهاد ضد الظلم والجبروت، ثم تلقى منه عهد المبايعة والولاء. وبعد هذا قام الرجلان وتوجها إلى الجامع، فألفياه غاصاً عن آخره بالمصلين، وأديا معاً بعض النوافل قبل أن يقعدا لتبادل الكلام في ما يناسب المقام من أحاديث نبوية وآيات قرآنية.

ولما انتصف النهار بقليل، ألقى خطيب الجامع خطبة أبدل

فيها اسم الحاكم الفاطمي باسم الإمام أبي ركوة، منوهاً بخصاله الدينية الحميدة وداعياً له بالنصر والتمكين. وما أن انتهى حتى اقتعد أبو ركوة المنبر، فخيم على الجمهور صمت رهيب لم يقطعه إلا صوته مجلجلاً مدوياً بين أبهاء الجامع وفي صحنه، قال:

ـ الحمد لله، نحمده ونستعينه، ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا. من يهد الله فلا مضلّ له، ومن يضلل فلا هادي له. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله.

(...)

عباد الله!

«اذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض تخافون أن يتخطفكم الناس فآواكم وأيدكم بنصره، ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون». صدق الذي لا حكم إلا له ولا احتكام إلا إليه.

ألا فاذكروا الله كثيراً، وأحضروه فيما شجر بينكم، يرفع عنكم أسباب التنازع والشقاق، ويوحد قلوبكم وصفوفكم. واذكروه هو الذي له العظمة كلها ولا يظلم مثقال ذرة. إنه تعالى زادكم وقوتكم ضد من تخافونه وتخشون طغيانه، يمدكم بثبات الصمود وفورة التصدي، ألا إني أذكره بكرة وأصيلاً، وقياماً وقعوداً وعلى جنبي. وأعوذ به من هذا الليل الفاطمي الشاسع السواد، الكثير المذابح والفضائح. وأعوذ بالله ملبياً طائعاً متطلعاً حثه على القتال حتى لا تكون فتنة ويكون الدين له كله. وأيّ فتنة أكبر من فتنة فاسدي النسب الفواطم، الذين يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويعوضونه بحدودهم الوهمية، وأقوالهم الهذيانية عن الأفلاك والموجودات، وهم لا

منزع لهم إلا تلويث رحاب العقل والصفاء، ولا غاية لهم إلا تدجين البلاد والعباد بركوب الطغي والاهواء! وأيّ مروق عن دين الله أكبر من مروق الحاكم الفاطمي الذي تألّه وتجبر، وأرهق الناس طغياناً وفتكاً، وساسهم بوساوسه، مسلطاً على مصائرهم جفاف دماغه وزيغ مزاجه!

(...)

عباد الله!

هذا الحاكم الفاطمي منكر كله، ينسى الله وما فعله بعاد وثمود وفرعون. وترونه يفتك بالبعيد والقريب، والفقيه والصوفي، وبكل من رفع رأسه احتجاجاً أو سار يريد حباءه. وكم من موؤودين بيديه المجرمتين ماتوا غصباً وظلماً! إن هذا لهو العبث الأعظم! لا وعظ ينفع في الطاغوت ولا نصح. وكيف ذلك وجلد الخنزير لا يندبغ!

عباد الله!

الذين يكتمونني يعلمون أنني أهدد الخنوع والهوان، لأنيَ شيء من الجوع وكثير من الرفض. لا أقول إلا ما أمرني ربي بقوله وهو خير القائلين: «إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين».

والذين إذا ما صادفوني في المدائن تركوا طرقي، أو ولوا راجعين، يهربون من غدهم، لأنّي أذكر غدهم، وغدهم كثير من الخوف وكثير من الموت.

في هذه الأصقاع وفي ما سواها تحت الحاكم بأمره، ما عاد أحد يسأل عن المصير، وما مرَّ عام بخير. والبشر، كل هؤلاء البشر، ليست حياتهم حياةً، وليست أرزاقهم إلا فتاتاً.

هل نظل، عباد الله، عرضة للمؤامرة الكبرى والحصارات، نقيم سلفاً في أقرب المنازل إلى الهلك، متلفين أعمارنا في الفجائع، معرضين عن حدود الله وحقوق الإنسان فينا، مكتفين من الدين بالقشور والشعائر؟

(...)

حاكم وشيعتهُ خدروكم وأحسنوا التخدير،
قد بثوا سموم الغدرِ والتخويفِ في مناطقِ الحلمِ بالتحرير،
واستقروا فوقكم، فوق خيام سباتكم...
قد عرفتُهم وأتيتُ من كلِّ جهاتهم إلى النقضِ .
فهلا رأيتموهم يستهلكونَ خيراتِ هذه الأرضِ ،
ويرتادونَ أجواءَ اللذةِ والسلوان:
بالنكهةِ والاستنشاق،
واللمسةِ والاشراق،
ويقطفونَ ويبرقون؟!
هلا رأيتموهم فوقَ كلِّ حقلٍ مغتصب من ترابكم،
يتجشأونَ ويحمدونَ واهبَ الأنعامِ والعطايا،
ويعيثونَ فيكم وفي آياتِ الله بغيا وخطايا؟!
(...)

لو رأيتم ووعيتم لتسابق المجاهدون منكم إلى خوض الحرب ضد الطاغوت، أو لجمعوا الفقراء وقالوا لهم: الموت وراءكم والعدو أمامكم، لاقتحموه بفل انتحاري، فأناروا لأفواج القادمين المساري، ملبين أمر الباري: «فقاتلوا أئمة الكفر، إنهم لا إيمان لهم لعلهم ينتهون».

(...)

هكذا التففتُ التفافاً شديداً حولَ وحدتكم
التففتُ وتجمهرت
قلتُ وكلّي تضرعٌ إلى صاحب العزةِ والملكوت:
آن للحاكمِ ضدَّ كتابِ اللهِ وسنةِ رسولِهِ أن يفوت،
آنَ انهدامُ الممكنِ في أرضِ الكنانه
المتمكنِ في أهاليها بالسحقِ والمزاجِ الممقوت،
آن لليلِ العهدِ الفاطميِّ أن يموت.
وذلكَ النيلُ قادرٌ أن يطهرنا من براثنِ هذهِ الغمة.
ربنا مكِّنا من لمِّ شتاتِ هذهِ الأمة،
ربنا أعِنا على الخروج من سراديبِ العجز والظلمة
(...)

وأنتم يا مغاربة العزّ والذكر التليد، إني لا أراكم، وحق فاطر السماوات ومبدل الأحوال، إلا مستحيلين على كل طاغية عنيد، تشقون عصا الخنوع والتبليد، وتُعدون ما استطعتم من قوة: لاستئصال شأفة المنكر والأزمة، ولصرع عدوكم وعدو الله. وإن قلت غير هذا أو وعدت بغيره فقد لغوت، لذا دعوت كل العناصر الحية أن تعلوَ في الوحدة الكبرى. وإني لأسميها شعلَ البحر. وأقول لها تأججي يا شعل الخلاص والغيث، تأججي بين الضلوع وفي العيون والرؤوس. ضُمّي أشبال أمتنا ضميها، طيوراً مشتعلة صيّريها، نساءً ثائرات، رجالاً رجالاً أشداء.

(...)

ربنا إنك تعلم ما نريده ونروم: حدودك بيننا وحقوق الإنسان الكادح إليك كدحا.
«ربنا لا تزغ قلوبنا بعد أن هديتنا، وهب لنا من لدنك رحمة».

«ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين».
«ربنا وأتنا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة».
«ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير».
ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفرٍ عنا سيئاتنا وتوفَّنا مع الأبرار».
«سبحان ربكَ رب العزة عما يصفون. وسلام على المرسلين. والحمد لله رب العالمين».

*

كان المصلون في أثناء تضرعات أبي ركوة يرددون «آمين» بصوت واحد يتأرجح بين هدير المد وخفوت الجزر. وبعدها نادى المؤذن للصلاة، فأداها خاشعين خلف الامام المصلون الذين امتلأت بهم حتى سطوح الجامع وكل الرحاب المجاورة. ولما انتهت الصلاة وأراد أبو ركوة اللحاق بدار الامارة، كان لا بد له من اختراق صفوف المزدحمين الراغبين في رؤيته أو مصافحته والدعاء له. وقد قضى وقتاً طويلاً وهو يشق طريقه مبتسماً، مسلماً وشاداً على الأيدي تلو الأيدي. وكان شهاب الدين يتبعه وعيناه تحملقان في كل اتجاه، ويده على سيفه.

لم يصل أبو ركوة ومرافقوه إلى دار الإمارة إلا بعد جهد جهيد، وما أن دخلوها حتى أقبل عليه شهاب الدين معاتباً،وقال:

– أيها الامام، كيف تحتك بتلك الجماهير الغفيرة ونحن غير واثقين بها، وتخاطر بحياتك ونحن في أول الطريق؟

قال أبو ركوة وهو لا يزال يتصبب عرقاً ويسترد أنفاسه:

– الآن وقد اجتزت هذا الامتحان، لنا أن نقول بأننا قد وثقنا بالناس بعد أن وثقوا بنا، فكان هذا مصداقاً لقول ولي

من أوليـاء الله: «في المخـاطـرة جـزء من النجـاة»... آه كم في نفسي أن أخلـد إلى خلوة، أنـاجي فيها ربي واستفتيـه في مـا سلطه علي من أحداث ومهام!

قال شهاب الدين محتجاً:

ـ لك ذلك بعد أن تأكل وتقتات، فإن لمعدتك عليك حقاً.

ـ إن نصيبي من الغذاء سيبقى هو هو وإن مكننا الله من الأرض كلها. فابعث لي به إلى خيمة تطلب من أهل هذا القصر أن ينصبوها لي على سطحه.

ـ ـ خيمـة! تدخـل قصـّراً وتسكن خيمـة في سطحـه! مـا أعجب ما أراه منك! ألا تعلم أن الملك يؤخذ كله أو يترك كلـه؟ لقد دخلتَ هذه المدينة منتصرا، وقطعت الـدعوة الفـاطمية من الخطبة، ولعنت الحاكم وآباءه، فما يبقى عليـك إلا أن تتلقب اليوم بلقب وتعين حاجباً وتضرب السكة.

ـ قـل للقوم أن يلقبـوني بلقب «الثـائـر بـاسم اللـه»، إن شـاءوا، واطلب من كبير رعـاة هذا الـدار أن يدخـل عليّ بمن أراد ملاقاتي، إن شاء. واضرب أنت السكة باسمي، إن شئت. أمـا ما أشـاء أنا فخيمـة في السطح، والـدار هـذه دار اللـه، يسكنها من لا مسكن له، بـدءاً بالـدراويش والمعطوبـين الذين مهدوا هذه المدينة وفتحوها لنا فتحاً.

وضرب شهاب الدين كفا بكف وقال منصرفاً:

ـ ما شاء الله، ما شاء الله! سيكون لك ما تريد!

*

قضى أبـو ركوة زهـاء شهرين عـلى النحـو الـذي ارتضـاه لنفسه، فكان لا ينـزل من خيمته إلا ليؤم بـالمصلين، أو ليقضي

بالعدل في النـزاعات المستعصيـة. وكان من حـين لآخر يتفقـد بنفسه أحوال الرعية والجنود للتحقق من صحة التقارير التي تصله في شأنها. وبقدر ما خامره شعور التفاؤل بحياة النـاس وتحسن حقـوقهم، بقدر مـا سـاوره قلق من تحـرشـات بعض الفئـات في الجيش، التي ملت مـوقف الانتظـار والـلاحـرب، واستخفت بضعف الغزوات والمغانم. وفي متم الأسبـوع، بينما هو يفكر ويتدبر الحيل لطمأنـة المجاهـدين وتمنيتهم، إذ دخل عليه أبو المحاسن وشهاب الدين لإبلاغه بأخبـار تقدم عسكـر الحاكم الفاطمي نحو شرق برقة. قريباً من ذات الحمام، فهتف قائلاً:

- الحمـد لله والشكـر له! هـذا خبر مفـرح يثلج صـدري ويرفع عني غمة أزعجتني طوال هذه الأيام الأخيرة.

قال أبو المحاسن مؤيداً:

- الحق ما تقول يا أبا ركوة، جيشنا، ككل الجيوش، كـأنه لم يخلق إلا ليحارب، ولا يحارب إلا طمعاً في النصر والمكاسب. فعلينا الآن أن نعدّ له العدة من أجل أن يخوض غمار ما خلق له، والله المستعان.

وعقب شهاب الدين بلهجة حازمة مقررة:

- جيشنا لم يحارب حتى الآن إلاعلى جبهة الملل والأعمـال الصغيرة. ولن يكون لفرحتنا شأن إلا بعد أن يحقق أول نصره على جيش قوي مثل الجيش الذي يتقصدنا.

استقام أبو ركوة واقفاً، وقال آمراً:

- إذن اتفقنا ولا سبيل للمزيد في الكـلام. انزلا إلى القـوم، وتدبروا معهم ومع كل حلفـائنا أمـور المواجهـة والقتال. قـولاً

لهم: عليهم بغور الآبار والاستعداد لحرب التطويق والتناوب في الهجومات الخاطفة. ولا يرجعن أحدكما إليَّ مستقبلاً في أمر ذي خطر إلا مصحوباً بشيخ أو شيخين من زناتة.

لم تمض ساعة على هذا الأمر المصحوب بالانذار حتى عاد أبو المحاسن ومعه شيخان زناتيان، وقال:

ـ أيها الامام. كل شيء على أحسن ما يرام. قد هيأنا العدة، ونظمنا المشاة والخيالة صفاً صفاً، فلا ننتظر منك إلا إشارة الانطلاق. ورجاؤنا جميعاً ألا تشارك بنفسك في هذه المعركة القريبة حتى لا يصيبك مكروه ولا نفقدك عبثاً.

قال أبو ركوة غاضباً:

ـ ويحكم، هل جننتم! أتجمعون على ما لا أرضاه وأبتغيه. أما علمتم أن لا إمامة لمن ظل محتمياً وراء الصفوف؟ أنسيتم أن الأعمار كلها بيد الله!

قال أبو المحاسن مهدئاً هائجة الامام:

ـ إنه الاجماع يا أبا ركوة، ولا ضير أن تقبله ونحن في أول الطريق إلى الديار المصرية. وقد كنا مضطرين إلى اقراره لسبب تقدم به الزناتيون. وكلفوا هذين الشيخين منهم لإطلاعك عليه. وإني أتركك معهما وسأرجع إليك بأخبار النصر إن شاء الله.

ما أن انسحب أبو المحاسن حتى اقترب أبو ركوة من الشيخين مبتسماً ملاطفاً، وقال:

ـ ما وراءك يا حمو؟ وما الخبر يا يحيى؟ الخير كل الخير، أليس كذلك؟

أجاب يحيى مقتضباً:

ـ بلى أيها الامام، أما ما نريد إطلاعكم عليه فهو أننا نحن الزناتيين أكثر الناس حرصاً على حياتك وسلامتك، لأنك مرجع وحدتنا مع عرب بني قرة وضامنها. وقد زاد حرصنا هـذا بعد أن خفنا من افتضاح سر لنا في القتال، ما كنا بدونه في المـاضي نقوى على الصمود أمام خصومنا.

قال أبو ركوة مقاطعاً متعجباً:

ـ أيّ سر الذي تتحدث عنـه؟ هل أعـدتم الكرة إلى عـلائق الاحتراس والتوجس وسوء الظن؟

قال حمو موضحاً:

ـ يا أبا ركوة، إن لنا اليد العليا في معـرفة مـواضع الميـاه السطحية والجوفية بنواحي بـرقة. ولنـا في إخفائهـا عن عيون الأعداء طرق فعالة لا يحسنها غيرنا. هذه الطـرق نريـد اليوم استعمالها في المفـازة الفاصلـة بيننا هنـا وبين ذات الحمـام، وذلك حتى نسلط العطش المرير على العدو قبل مـواقعته، ولكن برجاء بقائك حيـاً بين هـذه الأقوام، الـذين ألفت بين قلـوبهم ووقفت على وحدتهم شاهداً ووكيلاً.

ضرب أبو ركوة كفاً بكف وقال مستسلماً:

ـ يخـاف القوم عـليّ من سهم طائش يقتلني، ولا يفكـرون أني قد أموت عـلى فراشي بأمر من بيـده كل الأرواح! لكن مـا حيلتي وقد سيجوا بإجماعهم عدولي عن رفع سيفي في ســاحة الـوغى. والآن اذهبا، وليفعـل كل مجـاهد مـا يحسنـه، وإني سأكون على مشارف المفازة التي تذكر أن، أراقب المعـركة عن كثب، وأنتظر بقلب خفاق لوائح النصر منكم ومن الله.

*

ظل أبو ركوة في خيمته يقتعد حصيرته ويهدىء اضطرابه بالدعاء والتوسل إلى مولاه أن تسيل الدماء قليلة في صفوف المجاهدين، وأن يتم أسر الكثير من الأعداء. ثم ما لبث أن توجه رفقة حراس إلى ربوة مطلة على ساحة العراك، وظل فوقها يغدو ويروح، ورأسه يعج بمشاهد التطاحن. وينصدع بوطيس جعجعته ولهيب جحيمه. ولم يكن يتلقى بعض الانشراح الا بتركيز ذهنه على أتباعه وهم يتنافسون في الإيقاع بالعدو وهزمه. فهؤلاء يشتتون شمله ويديرون عليه الدوائر. وأولئك يقنصونه محصَّنين آمنين، وآخرون يستدرجونه إلى الماء وقد حولوه إلى سراب فيأسرونه أسراً.

وبينما المشاهد تتوالى على عيني أبي ركوة، إذ أتاه شهاب الدين ويحيى وحمو يبشرونه بانتصار المجاهدين على جيش الحاكم انتصاراً ساحقاً، وبقطع طرق انسحابه بحيث لم يفر منه إلا القليل. قال حمو بحماس واندفاع:

- لقد أذقناهم عذاب الظمأ الذي لن يعرفوا مثله إلا يوم يبعثون لسعير جهنم. وكنا نلقاهم بسيوفنا، وألسنتهم خارج أفواههم تلعق العرق وهي أعطش من الرمل.

ردّ أبو ركوة معاتباً:

- استغفر الله يا هذا، وقل بأنكم أبليتم البلاء الحسن. يا شهاب الدين، لقد أبلى زناته البلاء الحسن، أليس كذلك؟

قال شهاب الدين وقد وعى مقصود الامام:

- بلى يا أبا ركوة، وقد فعل مثلهم كل مجاهدينا الذين مكّنونا بعونه تعالى من نصر مبين. فالمغانم كثيرة، ولا يزال الرجال الأكفاء يحصونها ويهيئون توزيعها، وخسائر العدو في

أجناده ألف بين قتيـل وجريـح، والأسرى ألفان ويـزيد وعـلى رأسهم القائد التركي ينال الطويل.

ـ ينال الطويـل؟! كم عندهم من ينـال؟ هل هـو غير الـذي هلكناه قبيل دخول برقة ظافرين؟

ـ ينال الذي تشرف بموته على يديـك لم يكن سوى جنـدي بئيس، خـدعنا بـانتحالـه لصورة سيـده ينال الحقيقي، حتى يمكنه من النجاة منا. وقد أفلح في هذا لعنه الله.

ـ سنـرى هذا الأمـر بعـد أن تحـدثني عن عـدد قتـلانـا وجرحانا.

ظـل شهاب الـدين واجماً لحظـة، ثم تدارك غضب سـائله قائلاً:

ـ قليل هم والحمد لله: مائـة وعشرون مجاهـداً موعـودون للجنة، وواحد وخمسون جريحاً من بينهم.

ـ من بينهم من؟

ـ أبـو المحاسن أيهـا الامام، إنـه قد أصيب بطعنـة بليغة غـادرة في الظهر. وقـد تركنـاه طريـح فراشـه محاطـاً بأمهـر مطببينا.

ـ اللهم لطفك يا رب! خذوني إليه حالاً، ثم اذهبوا وابلغـوا أمري بالسهر على علاج كل الجرحى وبالرفق بالأسرى.

هـرول أبـو ركـوة خلف الـرجـال الثـلاثـة في اتجـاه مقـر أبي المحاسن. ولما وصل بابـه بادره كبـير المطببين بكلمـات في أذنه: «حالة الجريح خطيرة وقـد بذلنـا ما في جهـدنا لإيقـاف نـزيف دمه، فـاطلب له اللطف من اللـه يا أبـا ركوة». وأشـار الإمام على الحـاضرين بالـذهاب إلى شؤونهم، ثم جلس قـريباً من أبي المحـاسن واضعاً يـده تارة عـلى جبينه وأخـرى عـلى

صدره، وقال حابساً دموعه:

- ليس هذا وقت توديعنا يا أبا المحاسن. فحاجتنا اليك ما زالت عظيمة وتعويلنا عليك ليوم معركة الحسم.

وقاطعه أبو المحاسن متمتماً:

- أستغفر الله يا أبا ركوة. ألم تقل مع القائلين: الأعمار كلها بيد من له الحول والقوة؟

- أستغفر الله ونعم الوكيل. صدقت أيها المؤمن النبيل، فاعذرني واعذر خوفي من تضييعك وأنت بيننا ركن ركين، نهتدي بنضيج رأيك ومحكم فكرك.

- أحمد الله أن أنعم علينا بهذا النصر، كما أحمده أن كتب عليّ الشهادة مع أول المستشهدين. وما وددت إلا ما ودّ النبي عليه السلام: أني أقاتل في سبيل اللهِ فأقتل ثم أحيا فأقتل ثم أحيا فأقتل. ولك العزاء عن غيابي المحتوم في شهاب الدين إن ضبطت جموحه وفي رجال زناته وبني قرة وفي اللاحقين. فأحط نفسك بهم، وتعزز بوحدتهم وتآخيهم، تنل مرادك، وتجعل لخير سلف خير خلف، وانا لله وإنا إليه راجعون.

وما أن أتم أبو المحاسن كلامه هذا حتى أخذ يكرر الشهادة ويتبادل العناق مع أبي ركوة إلى أن شهق شهقة وأسلم الروح. وظل الإمام هنيهة يرسل دمعاً حاراً، ثم قام وخرج على القوم بعينين محمرتين، ومال على يحيى قائلاً: «اطلب من يعينك على دفن الشهداء المقتولين في المعترك كما هم وعلى غسل جثمان أبي المحاسن ومن مات مثله حتى نصلي عليهم، إن شاء الله».

*

مر يوم فيومان على وفاة أبي المحاسن، وأبو ركوة في خيمته يتلقى التقارير تلو التقارير من مساعديه، ويخرج بين الفينة والأخرى للتأكد مما ترويه من بشائر الخير والنعمة. ليس بين الأهالي فحسب، وإنما أيضاً بين المجاهدين الذين ارتفعت هممهم، وفاضوا قوة وحماسة، واشرأبّت أعناقهم إلى موعد حرب الحسم. وكان كلما سأله هؤلاء عن هذا الموعد وألحّوا في السؤال، يجيب مهدئاً مازحاً: «الصبر عندكم أعزّ من مخ البعوض. فوالله لن تظفروا بتمرة الغراب وأنتم ميالون إلى فرصة العجزة». ويسألونه: «وما فرصة العجزة؟ أبقاك الله»، فيردّ: «إنها العجلة!». ويخلون سبيله وهم يردّدون منشرحين: «إمامنا يعلم من أين تؤكل الكتف».

*

كانت الشهور الزاخرة بالأحداث تتوالى بسرعة لم يعهدها أبو ركوة. فكل شهر كان يأتيه بمستجدات يتلقاها بالتفكير والإمعان، ويكتب بإيعاز منها الخطرات تلو الخطرات. وذات ليلة من رمضان سنة ست وتسعين وثلثمائة، بينما هو منكبّ على القراءة والتدوين، إذ تسلل إلى خيمته رجل مدجج بالسلاح، قوي البنية، جميل المحيا، فبادر إلى التسليم عليه والجلوس قريباً منه، وقال:

ـ لا تؤاخذني ايها الإمام على طريقة زيارتي لك هاته، ولعلك تعذرني إن علمت فحواها ومقصدها.

قال أبو ركوة وهو أبعد ما يكون عن الخوف أو الإنكار:

ـ خيراً إن شاء الله يا فتى! قل لي أولاً من أنت ومن أين أتيت؟

ـ أنا علي بن الحسين بن جوهر الصقلي.

ـ هل تكون ابن قائد القواد في جيش الحاكم؟

ـ ابنه بالذات ورسوله إليك يـا أبا ركـوة، وإني لم آت إلى برقة بل كنت فيها قبلك، أرعى مصالـح ابي وأتظاهـر بخدمـة الحاكم كقائد لحاميتها. ولما دخلتَها وجيشك منتصراً، اختفيتُ في مطمورة بضعة أيـام أفكر في أمـري وأتدبـر المخرج. ويـوم خـرجت متنكراً في زي متسـول، كنتُ قـد عقـدت العـزم عـلى اغتيالك والهرب إلى مصر.

ـ كيف تغتـالني وبـين الحـاكم وأبيـك شنـآن وبغضـاء؟ ولحساب من أردت أن تقوم بهذه الفعلة النكراء؟

ـ لو كنت فعلت ذلك، لا قدر الله، فليس تقـرباً إلى الحـاكم الذي أكرهه وأمجّه كباقي الناس، بل لرفع الشكوك والشبهات التي يحيكهـا جواسيس الحـاكم حول تعـاون أبي معك سـراً وتشجيعك على دخول مصر.

ـ وماذا دهاك عن انجاز منكرك؟

ـ خطبتك أيها الامـام! إنها كلمـاتك التي نـزلت عليّ بـرداً وسـلاماً، وأيقنتني أنـك إمام الحق والصـادق الصديق. ولمـا ختمتَ، غادرتُ المسجد نكـرة وأنا أشتم نفسي وأقـول إن قتلك كقتل الصالحين المصلحين حرام، وأي حرام! ثم أخذت فرسـاً من أحـد أعواني السـابقين، وانطلقت عليهـا إلى حيث يعسكر أبي بضواحي القاهـرة، حتى أخبره بمنـاقبك وخـيرك. واليوم ها أنذا أعود إليك محملاً بكتاب منه وتزكية من صهره قـاضي القضاة عبدالعزيز بن النعمان، وإنه يسلم عليك فيه، ويـدعوك إلى التعجيـل بفتح مصر وقلب حكم الطـاغية المغضـوب عليه، ويعـدك بعون الصقليـين والكتاميـين جميعهم وبكـل الأجنـاد الداخلين في طاعته.

تناول أبو ركوة الكتاب من زائره، ونظر فيه بعناية وتمعن، ثم قال:

- الليل الآن متقدم، والتعب باد عليك، فاتركني صحبة كتاب أبيك، وانزل في غرفة تختارها لتنام قليلاً، وغداً، إن شاء الله، لك أن تحضر بين قادة مجاهدينا في اجتماع التهييء لفتح مصر، فاذهب يا علي، صاحبتك السلامة.
- سمعاً وطاعة أيها الإمام، وإني غداً انتظر إشارتك للمثول في اجتماع اليمن والتخطيط.

خرج الزائر متسللاً كما أتى، وأقبل أبو ركوة على مطالعة كتاب ابن جوهر، ثم أطفأ الشمعة واستسلم للنوم.

*

مع طلوع صباح اليوم التالي، وكان يوم خميس، أتى أبا ركوة خبر مقتل القائد السجين ينال الطويل على يد شهاب الدين، بعد مشاكسة كلامية حادة بينهما. وفكر الامام لتوه في استدعاء هذا الأخير وتوجيه لوم شديد اللهجة إليه على ما بدر منه، لكنه عدل عن ذلك وأطفأ غضبه مراعاة لوحدة الصف واقتراب موعد معركة الفصل. وبينما هو يفكر إذ دخل عليه شهاب الدين، متوتر الأعصاب، محمر الوجه، فسلم وقال:

- لا شك أيها الامام أنك قد علمت بما حدث في فجر هذا اليوم، وعذري في ما فعلت بينال الملعون أني خفت أن يفلت منا مرة ثانية، فيصير كحماد الماضي ونفره شوكة في أقدامنا أو حجر عثرة أمام تقدمنا. وما كنت أروم إلا بتر ساقه، غير أنه قدح في إمامتك ورماني ببصقتين قائلاً: «الأولى لك، والثانية لإمامك المزيف»، فلم أستسغ الإهانة، وثارت ثائرتي، فناولته سيفاً، وتبارزنا مدة إلى أن بادرته بطعنة في بطنه وبأخرى في

رأسه شقته شقاً، فخرّ غارقاً في دمه النجس المنحوس.

قال أبو ركوة محاولاً تهوين الموقف:

ـ حماد الماضي شوكة في أقدامنا، والله لقد صدقت. هل فكرت كيف نكسر هذه الشوكة؟

ـ بالحيلولة دون تأخير سيرنا.

ـ علينا إذن بالإسراع والتعجيل بمعركة الحسم، أليس كذلك؟

ـ بلى يا أبا ركوة! فالوقت الآن سلاحٍ خطير الشأن، إما نغتنمه فنَقطع به وننجز، وإما نضيعه فنُقطَع به ونهلك.

ـ والسجناء المتبقون، ماذا ترانا فاعلين بهم؟

ـ كلهم ميالون إليك، كلهم آثروا أن يعززوا صفوفنا بدل الرجوع إلى مصر حيث ينتظرهم موت محقق.

ـ ومع هذا فأطلق سراح من أراد من المعطوبين الالتحاق بذويه وأقاربه... والآن عد إلى القوم واخبر الشيوخ بأني بعد صلاة العشاء لهذا اليوم أنتظرهم في خيمتي لنتشاور جميعاً في حربنا المقبلة. ولا تنس استدعاء حمو ويحيى. فانطلق واطلب لي الشيخ زيدان المزاتي.

ما أن غاب شهاب الدين مدة حتى دخل على الامام الشيخ المزاتي مسلِّماً، متلقياً من مضيفه كل الترحيب والتقدير. وظل الرجلان مقتعدين الحصير، يعبّان كؤوس الشاي الأخضر، ويتجاذبان أطراف الحديث في مواضيع شتى: في المذاهب الفقهية السنية، وفي الشيعة والاسماعيلية، وفي الحاكم الفاطمي وهل يجوز تكفيره.. وكانت نقط الخلاف بين الرجلين تطفو من حين لآخر على سطح الكلام، ومنها مثلاً أن الشيخ

المزاتي الحنفي النزعة كان كثيراً ما يأسف لتوزع أهل السنة إلى فرق ومذاهب، ويقول:

ـ الأئمة في الاسلام يا أبا ركوة رجال مثلنا ولنا أن نجتهد كما اجتهدوا. ولأن أبا حنيفة النعمان قال هذا فأنا معه. وأما أتباع الأئمة وتابعوهم فقد أخطأوا في حقّ وحدة الدين لما تفرقوا وتمذهبوا، بل وأتوا بالبدع والمنكرات حيث تراموا بالفسق والتكفير وتفاتنوا. فهل يعقل يا أبا ركوة أن يكون الحق واحداً وأن يذهب فيه المتلقون كل مذهب؟!

ـ الحق يا زيدان واحد، ورسالات الله لا تتغير، لكن الخلق كثير متكاثر وأحوالهم متحولة متبدلة دوماً، فلهذا توزعوا مللاً ونحلاً، وداخل الملة الواحدة إلى فرق ومذاهب، فكان الاختلاف في التأويل وكانت الفتنة، وتلك سنة الله في عباده.

ـ إذا كان الأمر كما ذكرت، فلماذا لا تترك الحاكم الفاطمي وشأنه؟

ـ لأنه لا يتركنا وشأننا... وحتى لو تركَنا خوفاً منا وتقية، لظل الجهاد ضده وضد دولته فرض عين على كل مسلم. إذ كيف نسكت عنه وقد لوث صفو الحياة ونكل بنفوس بني آدم التي كرمها الله؟ كيف نسكت عنه وقد تعدى التأويل إلى الفتنة، وجاوز الفتنة إلى القتل، وذهب الجنون به إلى التأله، فاستقر في الضلال البعيد؟ لا وحقّ رب المشارق والمغارب، الذي لا إله إلا هو، لأقاتلنه حتى يتخلص العباد منه، فتعود بينهم آيات العدل والعز والتكريم؛ وإن عجزت فالله وكيلي ومحقق وعيده في المشركين: «ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق».

ـ نِعم الجهاد جهادك يا أبا ركوة! وليكن الله في عونك،

وينصرك على القوم الظالمين. وإني معك بما تبقى من قوتي المتآكلة، أعطي الرأي تارة وأستقبل أفراحك أو همومك طوراً.

ـ بارك الله فيك أيها الشيخ الجليل وأطال في عمرك. وبرقة، عرج بنا عليها وحدثني عنها قليلاً.

ـ لو تركنا جند الحاكم ورفعوا سيوفهم عنا لكنا أسعد الناس بأرضنا. فبلادنا هذه بلاد مباركة، حبا الله تربتها بمناقب لا توجد في غيرها، فهي في بعض البقع مع الزيت علاج لداء الحية والجرب والكحة، وهي في كل البقع حمراء بحمرة لطيفة، أرى أن ثيابك، يا أبا ركوة، قد نالت نصيبها منها، كما هو حال ثياب كل قاطنيها، ولا خلاص لك منها إلا إذا غادرت برقة ونواحيها.

ـ أهلاً بالحمرة وسهلاً، وإنها لحمرة حتى الفوز!

ـ أما الخضرة فهي تحيط بنا من كل جانب، فذلك الجبل ـ الذي تراه يعانق المدينة ـ يطلّ علينا بغابة عريضة من شجر العرعر؛ وتلك السفوح تنحدر مراعي خصبة ترتع فيها قطعاننا آكلة آمنة، وألسنتها تلهج بالشكر لله.

ـ أشجار العرعر والمراعي الخضر، يا زيدان، حاضرة دوماً في سويعات خلوتي منذ أقمت على هذا السطح.

ـ والخضرة تمتد إلى العرصات شمالاً، حيث تكثر الثمار من الأترج والسفرجل والجوز، وتتناوب أصناف الفواكه على ملء الفصول جميعها.

ـ لو لم نكن على أهبة خوض حرب الحسم مع الحاكم الفاطمي لطلبت منك، يا أخي، أن تأخذني غداً إلى تلك العرصات لنقضي فيها اليوم كله نزهاً وجولات، فعِدني بها إن كتب لنا النصر.

– إن كتب لـك النصر يا أبـا ركوة فهي لـك، وإن لم يكتب فلك أفضل منها وأعلى في جنات الخلد والنعيم.

– صـدقت يـا زيـدان... ومـاذا عن خـيرات هـذه الأرض الأخرى؟

– إنهـا لحوم الـذبائـح الطريـة، والعسل الحـر والقطران والصوف والقطن، وكلها خيرات يحملها جند الحاكم إلى مصر، إما بأبخس الأثمان أو غصباً وعدواناً. وكانت قبائل برقـة، من عرب بني قرة وبربر زناتة ولـواته وبـربر مـزاتة المتعـربين، لا تعرف لعدوها المشترك اسماً ولا لخيرات أرضهـا طعماً إلى أن أرسلـك الله إليهـا لتوحـدها في دينـه، وتنصر بها كلمتـه عـلى الطاغية العنيد.

قال الشيخ كلماته الأخيرة ووقف قصد الانسحـاب، فنهض أبـو ركوة، وشيـع زائره إلى خـارج الخيمة وهـو يمسكـه من ذراعه ويقول:

– لا تنس النزه التي وعدتني بها ما إن كتب لنـا النصر، يا زيدان. وزد على هذا أني أترجـاك أن تؤمّ بالنـاس كلما تغيبت لسبب من الأسبـاب. ولا تنس أن تحضر اجتمـاعي بمشـايـخ القوم ليلة هذا اليوم.

كان زيدان يطـأطىء رأسه مـوافقاً، ويـربت على كتف أبي ركوة مبتسماً داعياًا له بالفوز والتمكين.

*

بعيد صلاة العشـاء بقليل بـدأ مشايـخ القوم ورؤسـاؤهم يتوافدون على خيمة أبي ركوة، فيصافحونه ويقتعدون أماكنهم مستلمـين كؤوس الشاي ومتبـادلين كلمـات المجاملـة والتواد.

وكان آخر الـوافدين شهـاب الدين وحمـو ويحيى مصحوبـين بعـلي بن جوهـر والشيخ زيـدان المزاتي. فمـا أن سلموا عـلى الامـام وعـلى الحـاضرين واستـووا في جلستهم حتى بـادر أبو ركوة إلى الكلام وعلامات البشر تعلو محياه، قال:

- مرحبا بالسادة الأمـاجد، هـذه ليلة عظيمـة والله! ونحن هنا، كما تعلمون، نجتمع لننظر في آخر الاجراءات قبل انطلاق مجـاهدينـا الأبرار إلى مصر، ليـدخلوهـا فـاتحـين لا غـازين، ومبشرين بالعدل والتوحيد لا ظالمين ولا باغين. وقـد صرنا الآن أكثـر من أي وقت مضى مطالبـين ببدء السـير ودخـول جهـاد الحسم، متوكلين عـلى الذي لـه العزة والملكـوت، فالـرقاع من المصريين تأتينا بلا انقطاع، وكلها تسجل تظلمات الأهـالي من الحاكم المتجبر ونداءات استنجادهم بنا ودعواتهم لنـا بالنصر والتوفيق. وهذا قائد القـواد في الجيش الفاطمي، الحسـين بن جوهر الذي تسمعون به ولا شك، قـد أرسل إلينـا بابنـه علي، الذي تعرفتم عليه، وكلفه بتبليغنا آيات تآزره الصادق ودعمـه الأكيد، وحمّله كتاباً قرأته، فأبيت إلا أن تعلموه حتى تـروا ما يحيكه الحاكم من مؤامرات ضدنا، وما يعده لملاقاتنا. قال فيه بعد البسملة والحمدلة والتسليم عليّ:

«أيها الامام،

لقد جلتَ في مصر، ورأيت بأم عينك طغيان الحاكم الفاطمي وعبثـه بالبـلاد والعباد، ويبقى مـا رأيته وسمعتـه دون هـول الخفايا والتفاصيل. وقد عرفتَ أهـالي مصر الطيبين، يقـاومون الظلم حـين يقـدرون، ويستقـرون في الصبـر والنكتـة حـين يعجزون. وقد صاروا اليوم لا قوة لهم ولا حيلة في وجه الحاكم وأتراكه وعبيده. فحتى النكتة لم تعـد تجلب لهم إلا انتقامـات

الطاغية المتبوعة بالمآسي والـويلات. ويعـز عليّ أيهـا الامام أن أرى الأهالي قد باتوا يعتصمون بالصمت والهمـود، خوفـاً من وقوع استنكارهم واستلطافهم على مسامع أو عيون جواسيس الحـاكم المدسـوسـين في الـدور والصفـوف، حتى أن سمـوم التوجس والحذر صارت تسري بين أعضـاء الأسرة الواحـدة. ولئن بقوا على هذه الحال، ولـو لعهد قـريب، فسيصابـون ـ لا قدر الله ـ بالمس والهوس، وبئس المصير!

أيها الامام،

إن شعباً كاملاً من المسحوقين والمذعورين يترقب رفـع هذه الغمـة على يـديك، بـإذن وعون من اللـه، وينظـر إلى أسبـاب الخلاص في قدومك المبارك إلى مصر على جناح القـوة والسرعة؛ وإنّا معشر الصقليين مـع الكتاميـين جميعهم نبث بين النـاس لوائح الرجاء فيك، ونستنهض هممهم بالاعتماد والتعويل عليك معززاً بالـذي له القـوة والملكوت. ولكن بـربك لا تجعـل شعار التأني حجاباً على عينيك وقيداً في يديك، فإن في بعض الامهال إهمالاً؛ ثم حذاريـك! فالحـاكم الطاغيـة ليس عنك بمـدبر ولا غافل، بل إنه طوال هذه الأيام في طلب الإيقاع بك مجدّ مثابر، لا يجتمع إلا بمن يريدون بك سـوءاً، ولا تجود قـريحته معهم إلا بالحيل والمكائد: ومنها أنه أصبح على غـير عادتـه ميالاً إلى اصطناع العدل والحكم بالقسطاس المستقيم، فأمسك ـ قـاتله الله ـ عن الفتك وسفـك الدمـاء؛ ومنها أنـه أمسى يستقدم من الشام جيوشاً من الصنائع والمرتزقة ليحتمي بها منك، فيجـزل لها العطايـا والهبات، وينفق من أمـواله وأمـوال الخزينـة ولا يدخر. وإن أشد ما أخافه أن تنقاد إليه وتغتر بمكره النفـوس الضعيفة أو اليائسـة من الفرج والـرخاء. وحتى لا يقـع هذا

المكروه فيعم الانخداع والبلاء، أبعث إليك بابني حاملاً لك هذا الكتاب، وأناشدك فيه بالله أن تأتي إلينا بمجاهديك من غير تلكؤ ولا إبطاء، وأن تحقق ونحن معك وعد الله بالنصر على القوم الظالمين. وإننا منذ اليوم في انتظارك وجندِك على أبواب مصر غرباً، نمهد المجال، ونوطىء المساعي، ونعدّ الزاد والعتاد، ونستجلب ما استطعنا من الفرسان والمشاة، ولا توفيق إلا بالله، عليه توكلنا وإليه المصير، وسلامه عليك وعلى صحبك وتابعيك». ويحمل الكتاب إلى جانب توقيع الحسين بن جوهر توقيع صهره عبدالعزيز بن النعمان القيرواني قاضي قضاة مصر.

أيها القوم،

هل بعد الذي سمعتموه من هذا الكتاب يحلو لكم الاسترسال في التجالس والتشاور؟ هل نبقى هنا منْ حلقة إلى أخرى نحوّل التأني إلى تقاعس والانتظار إلى إرجاء وتسويف؟ إنكم تعلمون ولا ريب أن الوقت سلاح ذو حدين، يخدمنا حين نحسن استعماله، وينقلب ضدنا حين نهمل فرصه وفضائله. فلنتعظ بالحكمة في إدارته وتطويعه لصالحنا، قبل أن يهجر دوائرنا وحظوظنا ويفوز به عدونا. ألا هل بلغت! فاذكروا رأيكم في ما نحن فيه حتى نبدأ السعي غداً أو بعد غد بحول الله وعونه.

خيم على الحاضرين صمت عميق كأنما يلمحون به إلى موافقة أبي ركوة على أن الوقت وقت فعل وعمل، وليس وقت كلام وتناظر. ولم يكسر ذلك السكون إلا علي بن جوهر إذ قال:

- نِعم الصمت صمتكم أيها السادة الأبرار! فوالله لقد أدركتم خطورة الأحوال في الديار المصرية، وكفاكم في هذا

الكتاب أبي الذي أتى بالقليل الدال، وأعفاكم من طـول المقال، حتى تبادروا إلى شد الرحال وخوض فرصة الجهاد قبل فوات الأوان. فالمعول عليكم، ومقـاتلو الصقليـين والمغاربة برجـالهم الألفين في انتظاركم عـلى أحر من الجمـر، والله المـوفق للفلاح والتمكين.

قال أبو ركوة بصوت ملؤه الامتنان والحزم:

- بوركت يا علي، وبورك في أبيك وبني قومـك. والآن ما هـي أعدادنا بالضبط وما هو عتادنا؟

بادر شهاب الدين إلى الرد:

- إن مجاهدينا، أيها الإمام، قد وصـل عددهم هنـا ببرقـة وما جاورها ستة آلاف رجـل، من بني قرة وزنـاتيين ومـزاتيين ولـواتيين مختلطـين، ألفان منهم من الخيـالة والبـاقي مشاة. وهناك فرق صغيرة مدربة أحسن تدريب على الرمي بـالحجارة والنبـال، وفرق أخـرى مختصة في شغـل العدو بـالمنـاوشـات والمخادعات. وما عدا هذه الفرق فكل المقاتلين هم كما نعـرفهم يحسنون حرب المصادمة والمنازلة المنظمة.

ثم تناول حمو الكلمة مضيفاً:

- أما عتادنا أيها الإمام فهو والحمد لله على ما يرام. فلكل مقاتل سيفه وخنجره ودرعـه، لا فرق بـين فارس وراجـل، ولنا احتياطي من السيوف والسهـام يكفي لحرب عـدة أيام. وأمـا القوت والماء، فلن نعرف فيهما خصـاصاً إن ظللنـا على حـالنا من التقشف والاقتصاد.

وسأل سائل من القوم:

- وجيـوش الحاكم الفـاطمي، ماذا نعـرف عن أعـدادهـا

وعتادها؟ عرِّفونا بعدونا قبل ملاقاته جزاكم الله!

نظر الحاضرون إلى أبي ركوة، ثم إلى علي بن جوهر، فأجاب هذا الأخير مقتضباً:

ـ الجيش الفاطمي يا سادة، من دون الصقليين والمغاربة الكتاميين أنصاركم، ليس سوى غول من قش، متنافر الأطراف متضاربها، لا تجمع بينها إلا شهوة المال والطمع في العطيات. وهذه الأطراف من أتراك وروم وعبيد وغلمان الحمدانية وأجلاف البدو لا تفوق أعدادكم إلا بالضعف. وجيش كهذا، عديم العقيدة والإيمان، سوف لن ينفعه عتاده ولا طبوله وأبواقه يوم جهاد الفداء والحسم.

وتعالت من الحضور عبارات الثناء والمصادقة على كلام علي ابن جوهر، ولم يوقفها إلا سؤال سائل إذ قال:

ـ والمسلك إلى مصر حيث نروم المواجهة والصدام، هلا أطلعتمونا عليه حتى نتبين المسار ونقيس عبء الترحال؟

أخرج أبو ركوة من كمه خارطة، وقال وهو يسويها:

ـ لقد سألت بهذا السؤال العارفين منكم بأحوال المسالك من برقة إلى ضواحي الإسكندرية، فاستقر رأيي معهم على أن نسلكَ الساحل إليها، ثم منها إلى مصر حيث نخوض بحول الله معركتنا الأولى. ولن تتعدى مسيرتنا إلى غايتنا شهراً لا عسر فيه ولا إرهاق. وهذه الخارطة، التي أهداها إليّ الشيخ زيدان المزاتي مشكوراً، تدلنا على أهم مراحلنا نحو الاسكندرية، فخذها يا يحيى واقرأ لنا ما فيها.

تقدم يحيى متثائباً وتناول الخارطة ثم قال وهو يصطنع النظر إليها:

ـ طريقنا إلى ضواحي الإسكندرية أيها الإمام يوجد في ذاكرتي بكل تفاصيله ومحطاته، فلا محيد لنا إليها من قصر الندامة، ومنه إلى تاكنسث فمغار الرقيم فجب حليمة فوادي مخيل فجب الميدان فجناد الصغير فجب عبد الله فمرج الشيخ، ومنه إلى العقبة فحوانيت أبي حليمة فخربة القوم فقصر الشماس فسكة الحمام فجب العوسج، ومنه إلى كنائس الحرير فالطاحونة فحنية الروم فذات الحمام فثونية فالإسكندرية. وهذا الطريق الأقصر الأقوم تكون مراحله الواحدة والعشرون قريبة من اثنين وسبعين وخمسمائة ميلاً، وهذا ما لا أراه في الخارطة والله أعلم العالمين.

ونطق الشيخ زيدان المزاتي بصوته المتعب قائلاً:

ـ لقد علمك الله يا فتى بالتقدير المصيب. فالمسافة بين برقة والإسكندرية كما ذكرت بالذات، وهي ليست مضنية طالما أن مراحلها تزخر بالمياه الشروبة، ما ظهر منها وما بطن، والله وليّ النعمة وهو المستعان. وأما الطريق من الاسكندرية إلى الجيزة قريباً من مصر فسهل، ولا يزيد عن مائتين وخمسين ميلاً، أليس كذلك يا علي بن جوهر؟

أجاب علي مندفعاً مؤيداً:

ـ بلى أيها الشيخ العارف. والله ليس لي ما أضيفه إلا أن أبشركم بأن صفوف مجاهديكم ستتقوى بالحلفاء والمعاضدين، حيثما حلت وارتحلت على طول مسالكها إلى مصر.

أجال أبو ركوة نظره بين الحاضرين، وقال كأن به ميلاً إلى رفع الجلسة:

ـ ألا فاشهدوا أن فقه الشيخ المزاتي يشمل أيضاً قياس

المسافات. ما شاء الله وهو خير الواهبين! أيها القـوم، إذا كنا قد استنفدنا الأسئلة فلنتـرك ما سيبـدو منها لـوحي الميدان. وادعـوكم الآن إلى قراءة الفـاتحـة قبـل أن نقيم الصـلاة، ثم نفترق على أمل اللقاء في فجر منتصف شوال المقبـل، وهو يـوم انطلاق قوافلنا لخوض الجهاد المقدس.

قرأ الجمع الفاتحة بإكبار وخشـوع، ثم نزلـوا لأداء صلاة العشاء قبل أن يعود كل واحـد إلى مستقر راحتـه ونومـه بين أسرته وذويه.

*

في فجر اليوم المذكور، كان جيش أبي ركوة عـلى أهبة تـامة للاقلاع وطي المدى بعد أن ودع أفراده الأهل والأحبـاب. وما أن امتطى الامام جمله وتفقـد صفوف المجـاهدين حتى أخـذ يكبر، والكل يردد تكبيراته في اندفـاع منقطع النظـير، ثم نطق بكلمات قصيرة مـوصياً بـالتناوب عـلى ركوب الجمـال والخيل وبـالتـآزر وحسن البـذل والانتظـام، وأخيـراً تقـدم جمـوع المجـاهدين وأعطى إشـارة الانطلاق، فـانطلقـوا ـ والألـويـة الخضراء تعلـو قوافلهم، وزغـاريد النسـاء وهتافـات الأطفـال والمعطوبين والعجزة تودعهم ـ ولمـا أن غادروا بـرقة، أخـذوا يقضون وقت ركوبهم بين ترديد أناشيد حماسية وتراتيل دينية وبين الخلود إلى الصمت أو الكـلام اليسير. وسـاروا على هـذا النحو يطوون المراحل تلو المراحل، في كل يوم عشر سـاعـات أو يزيد، ولا ينزلون إلا للصلوات والاستراحات اللازمة.

كان أبو ركوة طوال الأيام الأولى لا يمتطي جمله أو فـرسه إلا ويستبد به قلق غريب، فتتناوب عليه بعض الرؤى الكئيبة، يـرى فيها الخيـانات تعصف بتخطيطـاتـه وأسراره، وجيشـه

مهـزوماً مشتت الشمـل والقوى، ورجـالَـه في وطيس معـركـة ساحقة يتساقطون قتلى وجرحى أمام جيوش جـرارة متكثرة لا يحـدها البصر. ودفعـاً لهذه الـرؤى المقنطة كـان يعوذ بـالله، فينـزل من مطيته ويمشي عـلى القدمـين ساعـات طوالاً مـرتلاً الآيـات وقارئـاً اللطيف. وحين يعـود إلى ركوبه كان يتجـاذب أطراف الحديث مع علي بن جوهر حـول أرض مصر وطبيعتها، أو ينادي على شهاب الدين فيسـأله: «أحقـاً أن حماد المـاضي شـوكة في أرجلنـا؟»، فيرد المسؤول: «إنـه كذلـك أيها الإمـام، ولكننا، بحول الله، سنزيل الشوكة ونقطع دابرها».

بعيـد قطع نصف المسـافة الإجمـالية بقليـل كانت جمـوع المجاهدين الزاحفة قـد وطئت أرض الكنـانة، فتطـايرت بينهم كلمات الحمد والتبريك، لا سيما وأن الأهالي أخـذوا يلاقـونهم بالتهليل والترحيب بدل المقاومة والمجافاة، وبالتمر واللبن بـدل العصي والحجارة. وكانت كل هذه العلامات الحسنة تثلج صدر أبي ركـوة وتنزل عليـه برداً وسـلامـاً، فينسى كـل وسـاوسـه وتطيراته، وينـادي على عـلي بن جوهـر ويحيى وشهاب الـدين وآخرين ويسألهم: «هل يعقل أن تكـون هذه البشـارات وعوداً كـاذبة؟ هـل نحن نسير في سحـائب الحلم أم بـين تضـاريس اليقظـة؟ باللـه أجيبوني يـا جنود الخـير والرحمـة!»، فيجيبه الجميع بالتأكيد عـلى صدق البشـارات وواقع اليقظـة غير أن الشيـخ زيـدان المـزاتي كـان يضيف: «إلا أن الـرأي ليس التظني، ورأس الدين صحة اليقـين، فلا تسلخـوا جلد الـدب قبل حبسه». وكان أبو ركوة يعقب مؤيداً: «صدقت يا زيدان، رأي شيخ خير من مشهد غلام».

*

لما انقضى شهر تقريباً على مسيرة المجاهدين، كانت قوافلهم قد بلغت بوادي الاسكندرية. وتجنباً للدخول في حرب عقيم مع حامية هذه المدينة، أخذوا، بأمر من أبي ركوة، في النزول الحثيث جنوباً صوب مصر. وعلى مقربة من هدفهم بعشرين ميلاً، عسكروا طيلة ليلة كاملة بقصد الخلود للراحة واستجماع القوى والاستعداد. وفي صبيحة اليوم التالي، وكان يوم ثلاثاء، انعقد رأي الجماعة على تقسيم الجيش إلى فيلقين: فيلق بقيادة الامام يقتحم الجيزة ويحتلها، وفيلق بقيادة شهاب الدين وحمو ويحيى يكسر عسكر الحاكم الفاطمي في الفيوم، ثم يتم التقاء الفيلقين عند الهرمين قبل الدخول إلى القاهرة. وقال أبو ركوة معللاً: «هكذا يمكننا تيسير مقاتلة العدو في عقر داره، بعد إضعاف صفوفه الأمامية والخلفية معاً». وكان هذا ما أقروه مكبرين متواعدين باللقاء والنصر. فانطلق رجال كل فيلق نحو هدفهم بثقة وعزم كبيرين، مسترخصين أرواحهم، متنافسين في التضحية والإباء. وما أن غابت شمس يوم الثلاثاء المشهود حتى اجتمع شمل جيش أبي ركوة عند الهرمين كما تقرر، وكان الاستبشار بالانتصارات الأولى بين المجاهدين عظيماً. وقام الإمام بتفقد أحوالهم سائلاً عن عدد الشهداء والجرحى، فقال شهاب الدين: «مائة وثلاثون شهيداً وستون جريحاً. هذه هي خسائرنا البشرية التي قد لا تمثل إلا خمس ما فقده عدونا»؛ وأضاف حمو: «ومن بين الذين سقطوا في ميدان الجهاد يحيى رحمة الله على روحه الطاهرة». ونطق أبو ركوة بكلمات كلها شكر لله وترحم على أرواح الشهداء، ثم سأل عن الأفواج الجديدة التي انضمت إلى جيشه، فأخبره علي بن جوهر قائلاً:

– إنهم، أيها الامام، الجنود المغاربة والصقليون الذين

وعـدك بهم أبي... فقد تظـاهروا في بـداية المعـركـة بمقـاتلـة مجاهديك، ثم ما لبثـوا ان انضموا إليهم، معملـين سيوفهم في رقاب أعدائنا، فكان فضلهم في انتصـاراتنا الأولى هـذه فضلاً كبيراً. وإني الآن على رأسهم أطيع لك الأمـر، وأنوب عن أبي الذي يختفي خلف هذه الأبواب في مكان مجهول من القاهرة.

قال أبو ركـوة بعد أن أتاه مساعـدوه يخبرونـه باستحـالة اقتحام القاهرة نظراً لعلو أسوارها وانغلاق أبوابها:

- لن ننسى للمغـاربة وحلفـائهم الصقليـين فضلهم علينـا. ونحن اليوم كما ترون قد هزمنا جيش الحـاكم بقيادة عـلي بن فلاح، ولكننا لم نربح المعركة بعد، ما دمنا دون الظفر بالقاهرة حيث يقوم بيت الداء، فماذا ترون؟

بادر شهاب الدين، وحمو يؤكد كلامه:

- أرى، أيها الامام، أن نضرب على هذه المـدينة المحصنـة حصاراً شديداً نرغم فيه الحاكم وجيشه على الخـروج لقتالنـا أو على رفع ألوية الاستسلام.

وأضاف حمو:

- هذا هو الرأي الصواب ما دام أننا نفتقر إلى كل وسـائل تسلق أو هدم أسوار هـذه المدينـة المنيعة، وأننـا نؤثر تجنيب الأهالي داخلها مجازر جماعية لا تحمد عقباها.

قال أبو ركوة وبوادر الحيرة تغزو محياه:

- وأنت أيها الشيخ زيدان، مالك واجم لا تدلو بدلوك في ما نحن واقفون عليه ومحتاجون إليه.

تردد زيدان قليلاً، وقال ووجهه يميل إلى التقطيب:

– خير الرأي أيها الإمام ما كان بإجماع، وخير إجماع ما استند إلى علم وخبر صحيح. وأنا، وربما حتى أنتم، لا نعرف عما يبيته العدو ويعد له إلا اليسير. فكيف لي، والحال هذه، أن أحكِّم عقلي أو أدعي حصافة رأيي؟ لكن يا علي بن جوهر، قل لنا، وأنت أعرف بهذه الديار منا: هب أننا صبرنا على تشديد الحصار على الحاكم ولم تحدث بيننا فتن وقلاقل، فكم من الزمن يمكن لعاصمته أن تصمد أمامنا؟

رد علي بن جوهر كأن جوابه جاهز عنده منذ مدة:

– إني، والحق يقال، لا أرى لحصار القاهرة من فائدة على حسم الحرب لصالحنا، فالحاكم محمي بعبيده الأوفياء، ولا خوف عليه من الأهالي المستضعفين العزل. وخزائنه ومطاميره فيها من الخيرات والأقوات ما يكفي لبضع سنوات. وهذا وإن الخطر المحدق بنا إن نحن ضربنا حصارنا وأطلناه لهو الخطر الآتي من الشامات، المتمثل في توافد الجحافل من الترك وأجلاف البدو ومرتزقة الروم وكل أصناف المصطنعين الطامعين في عطيات الحاكم وهباته. وإن كل الأخبار التي حملها إليّ حلفاؤنا المنضمون إلينا لتجمع على صحة ما أقول. فجيش الحاكم الذي هزمناه وبعثرناه في أعمال الصعيد، قد أخذ يستعيد نظامه ويلمّ شمله في صحراء الفيوم بقيادة رجل معروف بدهائه ومكره، هو الفضل بن صالح. ولقد صار هذا الجيش يتقوى يوماً عن يوم بالأعداد المهولة القادمة من الشامات. كما أن هناك خطراً آخر يتهددنا إن نحن تشبثنا بخطة الحصار، هو أن يندس في صفوفنا المخبرون والجواسيس والساعون بالشائعات المغرضة وأسباب الضغينة

والانشقاق. هذا ما أعرفه والله أعلم، ولكم سلطة الرأي والقرار.

ما أن أنهى علي بن جوهر كلامه حتى سمعت أصداء جلبة وضوضاء، فسأل أبو ركوة عن الخبر، وإذا بنفر من جنوده يتقدمون نحوه وهم يلوون على رجل بزيّ كزيهم، فأعلموه بأنه جاسوس ضبط وهو في حالة تلبس، وبحوزته وثائق وصرر من قطع النقود والذهب. فتسلم شهاب الدين الوثائق والصرر، وطلب أبو ركوة من الجند الالتحاق بمراكزهم، ثم أمر الجاسوس بالافصاح عن هويته وباعثه ومراميه، فاستقام الجاسوس وهو لا ينطق بكلمة، وبعد أن هدده حمو بسيفه، قال:

– إني رجل من رجال حماد الماضي الذي يعمل منذ زمن لحساب القائد الفضل بن صالح. وقد كلفني الماضي بالتسرب إلى صفوفكم وتقصي أخباركم، فتمكنت من ذلك وسجلت عنكم في هذه الوثائق ما رأيته فيكم وشاهدت. أما الصرر فهي للتغرير بجنودكم وترغيبهم في الغدر بكم والالتحاق بجيش الحاكم في صحراء الفيوم. وهذا كل ما لديّ أن أقوله عن مرامي مهمتي بينكم، فافعلوا الآن بي ما شئتم ورضيتم.

قال حمو بلهجة لا تخلو من المكر والتشنيع:

– أنت إذن كالخائن اللعين حماد الماضي من بطون بني قرة. أليس كذلك؟

– أخطأت، بل أعرابي متكسب من بادية الشام، وشاركت في حروب كثيرة بالتنكر والاتجار في الأخبار، وإن كان يهمك اسمي فهو...

قاطع أبو ركوة الجاسوس وصعق في وجهه قائلاً:

ـ لا يهمنـا من اسمك شيء، بـل قل لنـا كل مـا تعلمه عن جيش الحاكم، مقابل أن نتركك على قيـد الحياة، وإن قلت مـا يفيـد نظرنـا في إطلاق سراحـك. وإن دللتنا عـلى الجـواسيس والخونة بيننا رددنا إليك صرتين قبل رحيلك.

ـ لك أيها الإمام ما شئت ومـا شاء صحبـك. فاعلمـوا أن جيش الفضل قد ربـا على عشرة آلاف مقـاتل، وهـذه الأعداد تركت حجمها في اتساع وعتادها في تراكم. أما المخططون فقـد أجمعـوا على استثمـار الوقت لصـالحهم بترككم عـلى أبـواب القاهرة تحلمون باقتحامها وتتداولون في حصارها. وفي نظرهم، كل يوم يمضي فإنه يـأتيهم بالتعـزيزات بقـدر يأتي جمـوعكم بقنوط الانتظار وعقم الترجي. وهـم يعولون على بثّ الجواسيس بينكم لإغراء مقاتليكم بـالفرار من صفـوفكم للالتحـاق بجيش الحاكم أو العودة من حيث أقبلـوا. وقد كلفـوني، إضافـة إلى الاستخبار عنكم، بالتفرس في رجال منكم يمكنهم الإقـدام على قتلك يا أبا ركوة مقابل مـال كثير. وأمـا عن الرجـال مثلي وعن خونتكم فيحتمل وجـودهم بينكم، ولكني لا أعرف عنهم مثقـال ذرة، ولست من الخبث بحيث أقـدم أبـريـاء قـرابـين لطمعي وجشاعتي.

وتناول أبو ركـوة صرتين من شهـاب الدين ورمى بهمـا إلى الجاسوس، ثم نادى على بعض جنوده وقال:

ـ فكوا يديّ هـذا الرجـل، واعطوه فـرساً وزاداً، واتـركوه يرجع من حيث أتى. أما أنت أيها الجاسوس فعد إلى أربابـك، وخبرهم أننا صامدون هنا وعازمون على حصـار القاهـرة حتى نظفر بها أو نهلك دونها.

ظهرت على وجوه أعوان أبي ركوة علامات الفزع والـدهشة

والجاسوس لما يغب عن المكان، إلا الشيخ زيدان الـذي همس مؤيداً:

- أحسنت والله أيها الإمام! فالحرب خداع، ولا أرى الجاسوس إلا فرحاً بما ناله وقادراً على إقناع أوليائه أننا باقون هنا، ملبون خططهم وحساباتهم.

قال أبو ركوة وقد عاد الآخرون إلى رشدهم وأدركوا حيلة إمامهم:

- الآن يا قوم قد اتضح السبيل ونضج الرأي. فما فات لعلي بن جوهر أن نبهنا إليه قد أكده جاسوس قواد الحاكم. أفليس الرأي عندكم أن نترك الجيزة ونتوجه في فجر غد بمجاهدينا إلى صحراء الفيوم، فنباغت هناك أعداءنا ونكسر شوكتهم قبل أن تستفحل وتتعاظم؟

فأجاب الأعوان بصوت واحد:

- هو ذا الرأي الصواب أيها الامام المظفر!

- إذن فلنتوكل على الله ولنجهز أنفسنا بعد أخذ قسط يسير من الراحة.

*

نُصبت خيام أوى إليها بعض المقاتلين المنهكين أو الجرحى، واستسلم الكثير في الميدان إلى إغفاءات متقطعة، يحرسهم بالتناوب رجال كتاميون من أهل البلد. أما أبو ركوة، فقد جلس متكئاً على جذع نخلة بعد أن أجهد نفسه في إقناع صحبه برفع الحراسة عنه وأخذ حظهم من الاسترخاء والنوم.

كان الإمام يعلم أن عينيه في ليلة كهاته لا يمكن أن تكتحلا بالنعاس، فالخطب عظيم وأسباب الأرق متوالدة

متكاثرة. وما كان لـه، في لحظات عسـيرة كهاتـه، إلا أن يغالب أشبـاح المنكر والإحبـاط باستظهـار مـا تيسر من الآيـات، أو بإمعان النظر إلى النجوم وعمق السماء. وبين الفينـة والأخرى كان يغمض عينيه، لا لكي يراود نوماً مستحيلاً، بل ليفتش عن ذكرى أرق شديد عرفه من قبل، فلم يجـدها. وأدرك السبب في كـون يده لم تعـد تفارق قـربها من خنجـره أو سيفه، فهمس مرات والمرارة مستبدة به: «ها أنذا أمـر بالتـدرج من الخوف عـلى الثـورة إلى الخـوف من الثـورة. هـا أن جنـود الغـدر المحجوبين أشمّ وجـودهم ولا ألوي عـلى واحد منهم! وهـا أن أبا ركوة بدأ يسقط بـدوره، كأي خليفـة وأي أمير، في مـزالق التوجس والريبة والفزع، فيرى أصمة الأمان قابلة للانفجار في أي وقت تحت ضغط المجهـول وشدة الحـال...». وتوالت عـلى الامـام الخطرات تلـو الخطرات، وكلهـا سائـرة من قبيـح إلى أقبح، فلم يجد بداً من الوقوف والطواف حول مكانه وهو يوبخ هواجسه السوداء، ويلعن نفسه الأمارة بالسوء. وظل على هذا النحو إلى أن أخذ يصيح بأعلى صوته: «إيه يا قوم! أفيقـوا يا جنود الرحمن! الصلاة خير من النوم! الجهاد خـير من النوم! حيّ على الفلاح، حيّ على القتال في سبيل الذي لا تأخذه سنـة ولا نوم! حيّ على الفلاح يا قوم!». وظل يردد هذه الكلمات إلى أن نهض كل من في المعسكر من رجـال ودواب. وأحاط أعـوان أبي ركـوة بإمـامهم محاولـين تهدئـة روعه وصراخـه، فنهرهم قائلاً: «ألستم من دعاة التعجيل بمعركة الحسم! واللـه لا خير في نوم تعمره الوساوس والهواجس، ولا راحة لنا بعد اليوم إلا مـع النصر، فقولـوا للمجاهـدين أن يهيئوا أنفسهم ويجهـزوا مطياتهم، فإننا منطلقون إلى ساحة الجهاد مباشرة بعـد صلاة الفجر إن شاء الله».

لم يجرؤ الأعوان على مناقشة تعجل أبي ركـوة واستنفاره، بل طأطأوا رؤوسهم واصطفوا وراءه كباقي كل الجنود، وأدى الجميـع صلاة الفجـر على جنـاح السرعة، ثم تجهـزوا وبدأوا نزولهم إلى صحراء الفيوم في صمت رهيب، لا يداخلـه إلا وقع الأقـدام والأصوات الخـافتـة. وفي أثنـاء هـذه السفـرة كـان أبو ركوة يجهد نفسه لتحسـين أساريـر وجهه وبعث الثقـة في جموعه، فلا يبخل في مـلامسة الاكتـاف وتلقي الوجـوه بالبشر والابتسام.

وكـانت الجموع لا تفصلهـا عن معركـة القتال إلا بضعـة أميال حين أمرها أبو ركوة بالتوقف قليلاً للاستراحة واسترداد الأنفاس. فاغتنم شهاب الدين هـذه الفرصـة ليختلي بـالإمام، وبعد تردد وتلكؤ أخبره بفرار بعض الجنود إلى معسكر العدو. وقبل أن ينهي خبره التحق بهما حمو صارخاً مهدداً:

ـ سبعون من الفارين أيهـا الامام، وقـد تيقنت من عددهم هذا، وتعرفت على هويتهم واحداً واحداً.

ضرب أبو ركوة يداً بيد، وقال متنهداً:

ـ الصرر فعلت فعلهـا في المنافقـين مرضى القلـوب! «متـاع قليل ولهم عذاب أليم».

قال حمو معقباً مشهراً:

ـ وكلهم من بني قرة. سبعون منافقاً أخزاهم الله!

عنـد سماع هـذا الكلام المهـين، استشـاط شهـاب الـدين غضباً، وقال متحدياً:

ـ ليس ما تدعيه صحيحاً كل الصحة، فمن ذلك العدد قوم غر بهم الشيطان، وهم قلـة، وآخرون بعثت بهم ليتسربـوا بين

صفوف العدو ويتقصوا أخباره، ويستميلوا إلينا قلوب إخواننا وأبناء عمومتنا العرب جنود الحاكم الفاطمي. ومثل هذه الأعمال لا يقدر إلا رجال من قبيلتنا، ولا طاقة للزناتيين بها.

وصرخ ابو ركوة مقاطعاً، وقد أقبل على الجمع الشيخ زيدان المزاتي وعلي بن جوهر:

ـ تباً لاختلافكما ومنازعكما، أهذا وقت الشجار والتقاذف بالقذى، أم وقت لم الشمل ورص الصف؟ ألا فليعلم كل مجاهد منا أن الإيمان في كفتنا، وأن المال في كفة أعدائنا، وسننظر أي الكفتين أرجح. فإن اكتسحنا وعلونا فذلك ما نروم ونرضى، وإن تردينا وسقطنا فإنا لله وإنا إليه راجعون.

قال الشيخ زيدان:

ـ صدقت أيها الامام. فمثل هذا الظرف لا يعود إلا بالويل على الماشين بالريبة والشقاق، ولا ينفعنا فيه إلا التقدم والاقدام، معولين على سيوفنا وصمودنا وعلى الذي بيده الملك والملكوت. اما بشارات الخير فاسمعها على لسان علي بن جوهر.

قال علي بلهجة متأرجحة بين الفرح والحذر:

ـ أيها الامام، قد عاد إلى معسكرنا بعض مخبرينا الذين احتكوا بالعدو سراً، فأبلغونا انه يعلم الشيء الكثير عن أعدادنا وأعتدتنا، وأن زعماء العرب المحاربين معه يعاهدونك على الانضمام إليك ساعة الحسم. فلا خوف علينا إلا من جواسيس حماد الماضي ورهطه، ومما لا نعلم ولا نتوقع من حيل ومكر قائد العدو الفضل بن صالح.

قال أبو ركوة وقد امتطى فرسه ورفع سيفه:

– «ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين». اركبوا دوابكم، وهيئوا الجيش فرقاً تقدم على المناجزة تباعاً حتى نضيق الصحراء على عدونا، فيطلب المصادمة العظمى أو الاستسلام. وأما زعماء العرب، فأخبروهم بأن يأتونا ليلة هذا اليوم حتى نشدّ على أيديهم، ونعدهم بالشام أرضاً لهم لقاء دعمهم لنا وانتصارهم للحق. والآن اتبعوني نحقق ما وعد الله به المجاهدين في سبيله.

كان اندفاع جيش أبي ركوة شديداً كثيفاً بحيث قطع المسافة بينه وبين معسكر القائد الفضل في وقت وجيز، واكتسح ساحة القتال من كل جانب، فصارت سيوفه تهبر الأعداء وتبطش بهم بطشاً. وكان أبو ركوة من حين لآخر يخترق الصفوف المتشابكة، وينازل أمهر المقاتلين فيصرعهم، ثم يعود إلى مكان مستور يطلب فيه أعوانه للتشاور والتقرير. ولم يقترب نهار ثالث ذي الحجة من نهايته حتى كانت كفة النصر تميل لصالح جيش أبي ركوة. إلا أن الفرح الذي كان يبدو على هذا الأخير وصحبه لم يكن يوازيه إلا قلقهم من صحة الأخبار عن جحافل المرتزقة، التي سيرها الحاكم لتعزيز جيشه وإنقاذه. فاشتدت حاجتهم إلى وعود العرب بالانضمام إليهم تواً، من دون تسويف ولا إبطاء.

«فلما كانت ليلة الميعاد جمع الفضل رؤساء العرب ليفطروا عنده، وأظهر أنه صائم، وطاولهم ثم أحضر الطعام وأحضرهم، فأكلوا وتحدثوا. وسير الفضل سرية إلى طريق أبي ركوة، فلقوا العسكر الوارد من عنده فاقتتلوا، ووصل الخبر إلى العسكر وارتج. وأراد العرب الركوب فمنعهم وأرسل إلى اصحابهم من العرب فأمرهم بالركوب والقتال، ولم يكن عندهم علم بما فعل

رؤساء العرب، وقد فاتهم ما عزموا عليه فباشروا الحرب وغاصوا فيها (...). وكتب الحاكم إلى الفضل كتاباً ظاهراً يقول فيه: إن أبا ركوة انهزم من عساكرنا ليقرأه على القواد، وكتب إليه سراً يعلمه الحال، فأظهر الفضل البشارة بانهزام أبي ركوة تسكيناً للناس؛ ثم سار أبو ركوة إلى موضع يعرف بالسبخة كثير الأشجار، وتبعه الفضل، وكمن أبو ركوة بين الأشجار وطارد عسكر الفضل. ورجع عسكره القهقرى ليستجروا عسكر الفضل ويخرج الكمين عليهم؛ فلما رأى الكمناء رجوع عسكر أبي ركوة ظنوها الهزيمة لا شك فيها، فولوا يتبعونهم، وركبهم أصحاب الفضل وعلوهم بالسيوف فقتل منهم ألوف كثيرة[١٥]».

كانت أرض السبخة المشجرة قد اكتظت بالجثث والجرحى من الجيشين، وارتوت بالدماء الساخنة الفوارة، فأضحت حاجزاً وعراً أمام ما تبقى من جيش أبي ركوة الذي كان ينشد تحويل المعركة إلى ميدان عار أكثر وضوحاً واتساعاً. وظل الصدام على أشده والقتل متفشياً وكثيراً إلى أن شقّ أبو ركوة مخرجاً ضيقاً وأمر أتباعه بالانسحاب منه تباعاً، فمنهم من استطاع ومنهم من عجز ومات أو سجن في الكمين. واتجه الإمام والذين معه جنوباً على جناح السرعة حتى وصلوا إلى حدود النوبة، فتوقفوا قليلاً لفهم ما جرى وتقرير ما يلزم، لكن التعب المستبد بهم كان يمنعهم من التفكير أو التحادث المسترسل. وقبيل غروب شمس هذا اليوم الآخر من أيام الشدة والعسر، كان أبو ركوة لا زال يحملق إلى وجوه أتباعه الناجين ـ وهم دون المائة ـ ويبحث في العيون عن أثر حنق أو غضب عليه فلا يجده. بل كانوا كلهم، بقلوب مطمئنة، ينصحونه بالعودة معهم إلى برقة، حيث يتسنى له تدبر الأمور

والإعـداد لحرب جـديدة ضـد الحاكم الفـاطمي. وكان يتلقى كـلامهم الطيب الوديـع بابتسـام عريض ويقـول: «هيهات أن أقوى، يا أحبتي، على العودة إلى أهل برقة بالهـزيمة! الجهـاد القادم ضد الطاغية الفـاطمي موكـول إليكم، فاختـاروا له من بينكم إماماً جديداً، يأخذ عني ما صلح، وطـاب، ويستفيد من ثغراتي وأخطائي».

ولما جنّ الليل، طلب أبـو ركوة قلمـاً وورقـة، وأخـذ يحـرر وصيته الأخيرة وكأنه يـودع الدنيـا والأحياء ويستعجـل آخر فصل في حياته المليئة الثرية. وما أن خط آخر كلمة حتى التحق بالجمع حمـو وشهاب الـدين على فـرسيهما لاهثـين منهارين، فترجلا وأخذا في تقبيل أبي ركوة، وهذا الأخير يبادلهما العناق ويحمـد الله عـلى سلامتهمـا. وحين سـأل عن الشيخ زيـدان المزاتي وعلي بن جوهر وعن آخرين ذكر بعضهم بـالاسم، قال له حمو مقاطعاً:

ـ كلهم إما استشهدوا أو سقطـوا في قبضة العـدو. والآن أيها الامام ما بقي لك إلا أن تعود معنا إلى بـرقة. ولا بـد من التعجل في الأمر قبل أن يداهمنا جنود الفضل على حـين غرة، فنلقى موتاً لا حاجة لنا به.

وقال شهاب الدين، وهو يخرج من كيس معه رأساً مقطوعاً مضرجاً بالدم:

ـ هـذا، أيها الإمـام، رأس الخائن اللعـين حمـاد المـاضي، قطعته بسيفي ليطاف به في برقـة ونواحيهـا ويكون عبـرة لكل مارق ومنافق. وإني أرى من الأسلم لـك ولنا جميعـاً أن نعود إلى برقة على جناح السرعة، فننظر ثمة في أمورنـا ونعد العـدة

لحرب أخرى ضد الحاكم الفاطمي. فقل لنا يا أبا ركوة ماذا ترى.

كان الجنود قد وقفوا كلهم مستعدين للرحيل، وكان أبو ركوة يدرك في قرارة نفسه أن ذهابه معهم سيعرضهم لا محالة لهلاك محقق في معركة خاسرة مع ملاحقيه وطلبة القبض عليه، فاصطنع الثقة بالنفس والتفاؤل بالمصير، وقال مطمئناً مبتسماً:

ـ المعول عليكم يا أحبتي في متابعة الجهاد، جهاد الحق الذي لا ينتهي. فانطلقوا وأبلغوا سلامي وحبي لأهل برقة البررة، وعاهدوهم على النصر بصحبتي أو في غيبتي. وهذه وصيتي حررتها بوجيز العبارة، لتقرأوها على شباب برقة، وتذهبوا في شرحها وتأويلها مذهب الانتصار للحق والانحياز للعدل. هي وثيقة الاخلاص بيني وبينكم، وبيني وبينهم. إنها حجر الأساس، فابنوا عليها ما اجتمعنا من أجله وأجمعنا عليه من قيم ومبادىء. فاذهبوا بها، رافقتكم السلامة. وأما أنا فإني قاصد ملك النوبة للجوء عنده هناك حتى تنفرج الغمة وتزول الصدمة. فهذا الملك رجل فاضل رحيم، يكرم الضيف ويحسن مثوى كل ساع إليه بطلب الحماية والأمان. فالله أسأل أن يقيكم كل مكروه، وإنه سبحانه سميع مجيب.

أخذ أبوركوة يضم إليه حمو وشهاب الدين معاً ويبادلهما العناق والتقبيل، وهما لا يقويان على الكلام من شدة التأثر والانفعال، ثم عانق كل جندي على حدة. ولما انتهى ركب فرسه، وانطلق نحو بلاد النوبة. وحين غاب امتطى أتباعه الناجون خيلهم وتوجهوا صوب برقة مسرعين.

*

كان أبو ركوة، وهو يقطع المسافات نحو مقصده، قد علا فوق سهاده وضناه، وتجرد عن جسمه وحاجاته، فصار لا يتلقى من خفق قلبه وركض حصانه إلا أصداء كثيرة الخفوت، وينظر بعينين محمرتين إلى الأفق المشتعل ألواناً وبهاءً، ويبث إليه حنينه إلى ميعاد قريب. ولما وصل إلى أعتاب قصر ملك النوبة، استقبله ولي عهد هذا الأخير بالترحيب والتكريم، واستضافه حتى متم شهر ذي الحجة، ثم أخفاه في دير أبي شنودة. وهنا قضى أبو ركوة شهرين من السنة الجديدة، يغالب الغربة والقنوط بالنوم والصلاة والصوم. وفي مطلع ربيع الأول، استقدمه مضيفه، وقال له بكثير من التأثر والخشوع:

– أيها الفاضل، لقد التحق أبي بالرفيق الأعلى في فجر هذا اليوم، وترك لي عرشاً مهدداً لا أقوى على أن أخاطر به في حرب ضد الحاكم الفاطمي. وها إن رسل القائد الفضل على بوابة هذا القصر يصرون على أن أسلمك لهم، ويقسمون بالايمان أن سيدهم لا يروم إلا سلامتك ومساعدتك على الرجوع إلى موطنك، آمناً مطمئناً. فقل لي أيها الفاضل ماذا ترى.

لم ينه الرجل كلامه حتى كان أبو ركوة على أهبة تسليم نفسه لطالبيه، وقال قبل أن يتقصدهم:

– «أزفتِ الآزفة. ليس لها من دون الله كاشفة». «كل نفس ذائقة الموت، وإنما توفون أجوركم يوم القيامة». رحم الله أباك أيها الفتى، ونفعك بذكره وحسناته، وها إني ذاهب لملاقاة من لا ملّة ولا خلاق لهم. فتحيتي إليك، ووداعاً.

خرج أبو ركوة من بوابة القصر الرئيسية عالي الوجه، منشرح الصدر، فامتطى صهوة جواده وألقى على زبانية

الفضل نظره عفو ورحمة، ثم توسطهم فانطلق معهم وهم واجمون صاغرون. ولما أن أتى على هذا النحو إلى مقر الفضل ـ وهو واحة نخل سامق ظليل ـ، استقبله جنوده بالانحناء والمباركة، وقادوه إلى خيمة قائدهم التي زينت بالأثاث الفاخر وفرشت أرضها بالزرابي الثمينة. وعلى عتبتها تلقاه الفضل بالتسليم والترحيب، وطاوله في ذلك إلى أن أجلسه على فراش وثير، ثم صفق فأتى الخدم بطبق التمر وأكواب الحليب، ودعا ضيفه إلى تناول ما تيسر من ذلك، وقال:

ـ مرحباً بك بيننا أيها الشيخ الجليل وأهلاً وسهلاً، وأنت منذ اليوم على الرحب والسعة، تأمر فنطيع وترغب فنلبي.

نظر أبو ركوة إلى الفضل نظرة مستريبة، ثم ندت عنه ابتسامة ساخرة عريضة، وقال:

ـ ايه، ما هذه الحفاوة وهذا الاكرام يا فضل! إني آخذ من طعامك لأني موقن أنك لم تدسس فيه سما.

ـ وكيف أفعل وحياتك عندي أغلى وأثمن من كل شيء؟!

قال أبو ركوة وفمه مملوء تمراً:

ـ لئن تبيعني إلى سيدك حيا خير لك وأجدى من أن تطرحني أمامه جثة هامدة. فأنت الآن أخوف علي من نفسي، وتخشى أن أنوب عن الحاكم في حتفها. لكن هوّن عليك، وثق أني لن أنتزع أجلي ممن بيده الأعمار كلها والمواقيت. فحدثني عما ستجنيه من فائدة وفضل وأنت تقدمني لمولاك كما اشتهى وأراد.

ـ بربك أيها الامام المبجل لا تسيء الظن بي ولا بمولاي الحاكم بأمر الله، فقد يحبك أمير المؤمنين وقد كرهته، ويحابيك

وقد جفيته، ويسدل عليك أنعامه وقد اقلقته وحاربته.

ـ إذا كان لسيدك أن يحسن إلي وقد أردت به سوءاً، فقد يسيء إليك أنت وقد أحسنت إليه لما أن جلبت إليه نصراً.

وسأل الفضل وقد تولاه الفزع والقلق:

ـ ماذا تقصد أيها الإمام؟

ـ لن أجيبك قبل أن تخبرني عما أنفقه الحاكم لتغليب جيوشه عليّ.

ـ لقد أنفق كل شيء، أنفق ما في بيت مال الدولة عن آخره، ثم أخرج من خزائنه وخزائن أسرته ومترفي رعيته ما لا يقدر ويحصى من الأموال والذهب والفضة والنفائس. وكيف لا يفعل كل هذا، يا أبا ركوة، وقد جعلت عرشه من التلف قاب قوسين أو أدنى؟ لقد فرضت عليه رهاناً مريراً لا عهد له به، فإما ملك وإما هلك. وكان، وقد داهمته بصور الهلك الوشيك، أن استنجد بمرتزقة المشرق والمغرب جميعهم، من أعراب وصقالبة وسودان وروم وأتراك وغيرهم، وأجزل لهم العطيات والهبات بسخاء ما بعده سخاء، وبإغداق يُشبع حوايا كل ذي فاقة وكل طامع. وكان هذا السيل الجارف من الانفاقات سيذهب سدى لو أن جيشك لم يدخل أرض «السبخة» ويسقط في كمين مستنقعاتها وأشجارها الملتوية المعيقة. ولعلك اليوم تقول تبّاً للكمائن والأموال.

ـ وتباً لتكاثرهم عليَّ بالصنائع والمرتزقة من كل الاجناس، تباً لمحاربين مِلّتهم الطمع والجشع، وحياتهم خرق دائم لحدود الله. وما صرحتَ به الآن، يا فضل، يجيب عما سألتني عنه سابقاً.

- أوضح يا أبا ركوة، وقل ما تراه.

- ليس ما أقوله عرافة ولا تنبؤاً بالغيب، بل إني استقرىء مما أعرفه وتعرفه عن مولاك أنه لن يترك لـك فرصـة الانتشاء والمباهاة بغلبتك عليّ، ولن يقصر في الحؤول دون بـروزك فوقـه، لا سيمـا وأن فضل التغلب، في نظـره، لا يعود إليـك، بـل إلى نفقاته وعطياته. وهذا طبع كل طاغوت لئيم.

- لعـل الموت بعـد طي أمرك يكـون في انتظـاري. لكن مـا الفائدة في أن أصدقك الرؤيا، وأنـا محاط مثلـك بأوفى أوفيـاء الحـاكم من جنوده العبيـد، ومكلوء بعيـونهم التي لا تغفل ولا تنام؟

- إذم قم بنا نذهب إلى حيث قدر الله، ولا حول ولا قوة إلا به، هو حسبنا ونعم الوكيل.

قـام الفضل ملبيـاً دعوة أبي ركـوة، وأمر بتشكيـل موكب العودة إلى مصر، فنفذ الأمر. وبدأت المسيرة، فكانت بطيئة كما أرادها الفضل، حتى يستعرض في الحواضر والبوادي سجينه، ويظهر غطرسته وخيلاءه. ولما مضى ما يقرب من ثلاثـة أشهر، وصل الموكب إلى مشارف المدينة، يتقدمـه الفضل عـلى فرسـه وأبو ركوة على جمله، ووراءهما العبيد يهددون ويزمجرون. وفي هـذا اليوم من منتصف جمـادى الآخرة سنـة سبع وتسعـين وثلثمائة، كان أبو ركوة كلما تقـدم في اختراق المـدينة، جحظت عينـاه من هول مـا يراه: آلاف الـرؤوس يطاف بهـا في الأزقة الساحات، والأسرى يقتلـون تباعـاً بالسيـوف بعد تعـرضهم «لأنواع البلاء بيد العامة، يصفعون أقفيتهم وينتفـون لحاهم، ويضربونهم حتى تفتحت أكتـاف كثـير منهـم. فكـان أمـراً

مهولًا[١٦]. مال أبو ركوة على الفضل، وسأله بصوت أجش يتميز غيظاً:

ـ أهكذا شريعة مولاك في معاملة أسرى المغاربة ومغلوبيهم؟ لا والله لن تكون نهاية عهده المشؤوم إلا على أيديهم، إن عاجلاً أو آجلاً بحول الله.

وصرخ الفضل بأعلى صوته:

ـ هكذا يعاقب مولاي أتباعك في البغي والضلالة حتى يكونوا عبرة لكل زائغ وكل متربص.

ثم صفع أبا ركوة صفعة منكرة أسقطته أرضاً وهشمت أنفه، وأمر العبيد بالانقضاض عليه وتصفيده وإلحاقه بقوافل المعذبين. وبينما العبيد ينفذون الأمر، فاجأ أبو ركوة الفضل ببصقة في وجهه وقال هائجاً ثائراً:

ـ بدلت جلدك يا بن الكلب! لا والله لن تُقتل إلا بسيف من تريد حباءه بسفك دمي، فأنت وهو أقمتما شريعة الخراب والقتل، وبها ستستحقان لا محالة، كما وعد الله.

كانت قوافل المعذبين تمر الواحدة تلو الأخرى، فأُلحق أبو ركوة بإحداها مخضباً بالدم، مكسور القلب والقوى. وفي لحظات وعيه كان يتعرف على وجوه الكثير من أتباعه، فيريد ملامستهم أو مكالمتهم، فيُرد بالضرب واللكم والتعنيف. وكان أن أبصر من خلفه الشيخ زيدان المزاتي يمشي متعثر الخطى، والدم ينزف من رأسه وتحمر به لحيته الوافرة. وبعد أن تبين أبو ركوة أن الشيخ أضحى ضريراً صرخ سائلاً:

ـ هل نلام، يا زيدان، على أننا رمنا محاربة الشر، فكانت الشر فوق ما فهمنا وتوقعنا؟

وردّ الشيخ بما تبقى له من صوت:

- بل نجزى جزاء الحسنى، وننعم بما هو أخلد وأبقى. وهذه أجسادنا يعيث فيها أعداء الحق فساداً وهدماً، وأما أرواحنا فهي طائرة إلى جنات ربها الأعلى.

وقال أبو ركوة منشداً:

- «إلى الديان يوم الحشر نمضي ** وعند الله تجتمع الخصوم».

وأنشد الشيخ بدوره قائلاً:

- «لست أبالي حين أقتل مسلماً ** على أي جنب كان لله مصرعي».

سُمع للشيخ توجع، إذ أنه تلقى لطمة قوية أسقطته أرضاً، فتوقف أبو ركوة، ونهر العبيد صارخاً: «أتضربون يا أبناء الكلب هذا الشيخ الوقور، وهو على ما ترون من العجز والانهدام! تباً لكم ولمولاكم وسحقاً». فبادرته بعض الأيدي بضربات متوالية على كتفه فشقته شقاً. وانتبه الفضل، فأمر أن يترك المعتقل على قيد الحياة، حتى يقدم للفرجة أمام الخليفة الحاكم، قريباً من قصره في القاهرة. وكان أبو ركوة، رغم كل عذاباته، يتحين بعض الفرص فيتقدم للناس المتجمهرين هنا وهناك، «فكان يسأل من يلقاه عن اسمه، وكان يتلو القرآن ويترحم على السلف»[١٧].

ولما انتصف النهار، كانت إجراءات الهول والتشهير قد أعدت لاستعراض أبي ركوة ورؤوس أصحابه أمام منظرة الحاكم الفاطمي.

«وكانت القاهرة قد زينت أحسن زينة، وكان بها شيخ يقال له الأبْزاريّ. إذا خرج خارجيّ صنع له طُرْطُوراً وعَمِل فيه

الوانَ الخِرقَ المصبوغة واخذ قِرْداً يجعـل في يده دِرّة ويعلّمـه (أن) يضرب بها الخارجيّ من ورائه، ويعطَى مائـة دينار وعشر قطع قماش. فلّما قطع أبو ركوة الجيزة أمر به الحاكم، فأركب جملاً بسَنَامين والْبِس الطَرْطُور واركب الأبزاريُّ خلفَـه والقرد بيده الدِّرّة وهو يضربه والعساكر حوله، وبين يديه خمسة عشر فيلا مزيَّنة؛ ودخل القاهرة على هذا الوصف ورؤوس أصحابـه بين يديه على الخشب والقصب؛ وجلس الحاكم في منظرة عـلى باب الذهب، والتـرك والديلم عليهم السـلاح وبأيـديهم اللتوت وتحتّهم الخيـول بـالتجـافيف حـول أبي ركـوة؛ وكـان يـومـاً عظيماً...»[١٨].

كان الفضل خـلال هذه الفـرجة المـرعبة يـلازم أبا ركـوة، ويفكر ملياً فيمـا سمعه منـه سابقـاً من تنبؤ وإنذار، فيكفهـر ويعبس، ثم تساوره نفسه بقتل الإمام سـراً حتى لا يصل إلى حضرة الحاكم حياً، كما أمر هذا وطلب، فتكون بينهما مناظـرة قد تخلق المفاجآت وتقلب الموافقات قلباً. وظل يهمهم ويزمجـر إلى أن قـرر مع نفسـه: «لئن يموت أبـو ركـوة الآن أضمن لي وأجـدى. فـلا بـد لي من زهق روحـه قبـل أن يطـأ الأعتـاب الحـاكمية». وهكـذا أمر أحـد أوفيائـه سراً بتـوجيه الطعنـة القـاضية إلى الضحيـة، فنفذ، وأخذه المنفذ فقتلـه. ولما حمـل أبـو ركوة إلى القصر كـان قد لفظ أنفـاسـه الأخـيرة، فغضب الحاكم وسأل الفضل عما حصل، فأخبـره القائـد بأن جنـدياً حـدثاً قتـل أبا ركـوة غدراً فقبض عليـه وقتل. وتنهـد الحـاكم متحسراً، وقال:

– وعدت نفسي بمجادلته ووعدتهـا بذبحـه، فاستحـال وعدٌ وتيسر آخر. والآن يا فضل، قربه مني وناولني خنجرك.

ـ لكنه يا مولاي ميت ولا حاجة إلى أن يقتل من جديد.

أخذ الحاكم من الفضل خنجره غير آبه لكلامه، فانحنى على جثة أبي ركوة وشق حلقومه حتى سال منه الدم، ثم استقام ومسح يديه في ثياب الفضل، وردّ إليه خنجره قائلاً: «سلاحك متآكل يا فضل، وإياك وأن تعول عليه عند الشدة، فاشحذه أو بدله». وغادر المكان مردداً: «وليعتبر المتطاولون المتنطعون النهازون الذين لا جدوى لهم ولا فضل». ولما آسفونا انتقمنا منهم»، «إن الانسان ليطغى أن رآه استغنى»، صدق وليي ومستخلفي في الأرض على العالمين». وقبل أن يغيب صاح يأمر العبيد: «خذوا جثة الثائر، وعلقوها في أذن أبي الهول حتى تتداول عليها الفصول، فتضحو هشيماً تذروه الرياح».

ظل الفضل جامداً في موضعه واجماً، شاحب اللون كالتمثال، ثم انهار متمتماً: «صدقت رؤياك يا أبا ركوة!»، وحمله العبيد إلى منزله، وأجمع المؤرخون على «أنه مرض فعاده (الحاكم) مرتين أو ثلاثاً، وأقطعه اقطاعات كثيرة ثم عوفي من مرضه، وبعد أيام قبض عليه الحاكم وقتله شر قتلة»(١٩).

*

لم تمض على مقتل الإمام أبي ركوة ساعات حتى وصل خبره إلى برقة، فأعلن فيها الحداد لمدة أسبوع، وصار أهلها رجالاً ونساء وشيباً وشباباً في حالة تعبئة عامة، يتجمعون في المساجد والساحات للترحم على أرواح شهدائهم، ويستمعون هناك بخشوع وتأمل إلى وصية إمامهم، التي كان يتناوب على تلاوتها وشرحها حمو وشهاب الدين، وهي تقول:

في اللحظة التي أحاول فيها النطق بالحمد لله على كل نعمة وكل محنة، تتهالك الدنيا في ناظريَّ وأكبو.

سأستقيم يا أبنائي من برقة ومن كل بلد مقهور، وأقول لكم قولاً حقاً هو كل ما ترثونه مني:

فيا قررَ عيني!

إن شاهدتم عنف الطغاة في حاضركم، وتهتم في تجاويف الظلام، ورأيتم الناس في الأصقاع المقهورة يخرجون من سجن ويدخلون آخر، ورأيتم مصرع الفقير والثائر، فلا تنهاروا.

لأنكمُ الوعد لن تنهاروا، ولن تقيدوا أنفسكم في طرق الحيرة والتخلي، ولا في فيالق الفتك والطغيان.

امشوا في مناكب الأرض، وترعرعوا بين المستضعفين والجياع، لأن عندهم يورق الحزن مع النفوس والأجساد، وتكبر النفوس والأجساد، ويكبر الغضب؛ لأنهم الأهل والسندُ، وحجتكم في هذه الدار وفي الأخرى.

اعلموا، يا أبنائي، أني لست آخر الشهداء. فخذوا مكاني، واجعلوا من حياتي بعضاً من حياتكم، واجعلوا حياتَكم سلاحاً في حالة وعي واستنفار، وقاوموا فالنصر لكم، قاوموا ثم قاوموا بكل قواكم. وإن خسرتم معركة وخانتكم الحظوظ والبشائر، فأنتم الوحي والآية، وأنتم الهادون إلى الجهادات الآتية، والنصر المكين لذريتكم ولذرية الفقراء. وسلام عليهم وعليكم.

الباب الرابع
من آيات النقض والغيث

I

بين النكتة والانتقام: مصر تحترق

«واستدعى (الحاكم) القواد والعرفاء، وأمرهم بالمسير إلى مصر وضربها بالنار ونهبها، وقتل من ظفروا به من أهلها [...]. فاستمرت الحرب بين العبيد والعامة والرعية ثلاثة أيام، والحاكم يركب في كل يوم إلى القرافة، ويطلع إلى الجبل ويشاهد النار ويسمع الصِّياح ويسأل عن ذلك، فيقال له: العبيد يحرقون مصر وينهبونها، فيظهر التوجُّع، ويقول: لعنهم الله! من أمرهم بهذا...».

ابن تغري بردي، **النجوم الزاهرة**.

في الشهور الأخيرة من حياة الحاكم، كانت الانهيارات النفسية الضاربة تتناوب عليه وتلزمه القعود في دوائر الخلوة والكآبة. وكان يردد مع نفسه في كل فورة سوداوية: لست جالساً على عرش أنا، بل على بركان من البغضاء والسخط والحسيفة.

في هذه الشهور كان بركان الرعية يرمي الحاكم بسيل جارف من العرائض والرقاع في القذف والتشهير بنسبه وحسبه وأفعاله. وكان يقضي الليالي الطوال، في شعب المقطم أو على منارة جامعه، يقرأها مراراً باندفاع وانشداد قويين. وأكثرها وقعاً على جوارحه الملتهبة كانت تلك التي تستنسخ وتوزع على نطاق واسع بعض الرقاع والعرائض الموجهة إليه سابقاً أو إلى أبيه العزيز من قبله، فكان أن وقف مطولاً عند اثنتين بالتخصيص مواجهاً فداحتهما بعينين حمئتين وقلب مصدوع. فالأولى عبارة عن رقعة نصبت أمام العزيز وهو يستوي على المنبر ذات مرة، وتقول:

«بالظلم والجور قد رضينا وليس بالكفر والحماقة
إن كنت أعطيت علمَ غيبٍ فقل لنا كاتب البطاقة»

أما الثانية فهي العريضة الشهيرة التي كان الخليفة

العباسي القادر قد استصدرها بتوقيعات القضاة والأئمة، وحتى بعض العلويين المرموقين، حول الطعن في نسب الخلفاء الفاطميين ومذهبهم، إذ تقول في مقطعها الأساسي:

«وهم منسوبون إلى ديصان بن سعيد الخرمي إخوان الكافرين، ونطف الشياطين، شهادة يتقربون بها إلى الله، ومعتقدين ما أوجب الله على العلماء أن ينشروه للناس؛ فشهدوا جميعاً أن الناجم بمصر وهو منصور بن نزار الملقب بالحاكم ـ حكم الله عليه بالبوار والخزي والنكال ـ ابن معد بن اسماعيل بن عبدالرحمن بن سعيد ـ لا اسعده الله ـ فإنه لما صار إلى المغرب تسمى بعبيد الله وتلقّب بالمهدي، هو ومن تقدمه من سلفه الارجاس الانجاس ـ عليه وعليهم اللعنة ـ ادعياء خارج لا نسب لهم في ولد علي بن أبي طالب، وأن ذلك باطل وزور، وأنهم لا يعلمون أن أحداً من الطالبيين توقف عن إطلاق القول في هؤلاء الخوارج أنهم أدعياء. وقد كان هذا شائعاً بالحرمين في أول امرهم بالمغرب، منتشراً انتشاراً يمنع من ان يُدَلّس على أحد كذبهم، أو يذهب وَهْمٌ إلى تصديقهم؛ وأن هذا الناجم بمصر هو وسلفه كفّار وفسّاق فجّار زنادقة، ولمذهب الثنوية المجوسية معتقدون، قد عطلوا الحدود، وأباحوا الفروج، وسفكوا الدماء، وسبوا الانبياء، ولعنوا السلف، وادعوا الربوبية، وكتب في [شهر] ربيع الآخر سنة اثنتين وأربعمائة». وكتب خلق كثير في المحضر المذكور[20].

كانت هذه النصوص على اختلاف أحجامها ولذعها تحوّل كيان الحاكم كله إلى ذاكرة خانعة يتقاذفها التلوث والفزع، ويحكمها دوار الانجذاب نحو هوة الانسحاق. وبينما هو على هذا الحال من التورط في الأسوأ، إذ عادت به الذكرى إلى سنة خلت من ربع قرنه، كان المصريون إبانها قد بلغوا شوطاً قياسياً في التهكم واللعب عليه، وذلك بأنهم نصبوا له في إحدى جولاته داخل الفسطاط امرأة مومياء، عليها إزار وحجاب، وبيدها الممدودة بطاقة مختومة كأنها ظُلامة. فلما تناول الحاكم البطاقة منها ونظر فيها كاد يسقط من على حماره

مذعوراً مما تحويه من اقوال الطنز والسب فيه، أقوال فاجرة قادحة فادحة لم يسمع نظيرها من قبل. وإذ ثارت ثائرته وأمر بالتنكيل بالمرأة وإحراقها حرقاً، أخبر بأنها تمثال امرأة محشوة بالقراطيس و«الشراويط»، فزاد غيظه وغضبه، وعقد العزم على انتظار الفرصة للانتقام لنفسه من أهل مصر على ما يقترفونه في حقه من تشنيع وتنكيت...

*

ترى هل حلت اليوم تلك الفرصة المترقبة، والمصريون صاروا يتبادلون عبر الأكمام وفي الدور والسطوح البطاقات بالآلاف ويملأون الجدران والبوابات بالملصقات، وكلها تتنافس أساليب بلاغتها وبيانها في الدعاء على الحاكم والقدح فيه؟

لقد سمى الأهالي في مصر مقاومتهم لطغيان الحاكم بالمقاومة الساخرة، وثورتَهم عليه بثورة البطاقات، وسرت بينهم هاتان التسميتان سريان العهد والميثاق، وعنت عند الكبير والصغير الرغبة في التصدي والانعتاق.

أمام اتساع نطاق هذه الانتفاضة وفعالية وسائلها، كان الحاكم يقف موقف الحيرة والذهول، ويلقي باللّائمة على أعوانه ومساعديه، ويصف طوابير الأحداث بالمخنثين وأولاد القحاب. وبدا له أن يقتص من بعضهم للعظة والاعتبار، فكان أولهم القائد لؤلؤ قائد الشرطتين، الذي دعاه الحاكم إلى حضرته صبيحة ذات يوم مشهود، وقال له بعد أن وجه اليه أفحش التوبيخ وأغلظ السب:

ـ يا لؤلؤ المصائب والروائح الكريهة، كنت عبداً ذا زبيبة فأعتقتك، وكنت وضيعاً ترفل في الاغلال فحررتك ورفعتك، وها أنت اليوم تجازيني بعجزك عن كبح جماح الرعاع، وضرب

مصادر المسّ بالمقدسات والحرمات، فقل، قبل أن أفتك بك، كلماتك الأخيرة أخزاك الله.

بدا لؤلؤ، بالرغم من جثته الضخمة، كطفل مسحوق يتخبطه القلق والارتباك، وقال متعلثماً:

- مولاي أسألك الأمان ، وأسألك يوماً أو يومين حتى آتيك برؤوس الفتنة وموزعي البطاقات.

- لقد فات أن عرضتَ أمامي الكثير من الرؤوس المقطوعة، وتبين أن جلها رؤوس نساء وأطفال لا حول لهم ولا قوة.

- الاطفال والنساء هم بالذات محك البلاء يا مولاي!

- لكنك أخذت نصفهم من أسر تدين لي بالولاء، وتنضوي في أسلاك دعوتي بالنجوى والوفاء.

- في حلكة الفتنة يصعب التمييز يا مولاي، ويستحيل أو يكاد تجنب الأبرياء.

- بل قل يا لبخة السواد إنك صرت أسخف من حاطب ليل وأعجز من نخلة خاوية، فاذهب بيوميك، وعد لي بما هو أغنى من قرني حمار.

*

مر يوم فيومان وأحضر لؤلؤ بين يدي الحاكم، وأرغم على تقبيل الأرض، ثم استقام وصاح ضاحكاً ملء شدقيه:

- إنها والله لحرب خاسرة يا مولاي، لا تلوي على رأس إلا وتخلفه رؤوس، ولا تتلف أطناناً من البطائق والملصقات حتى تظهر أضعافها وزيادة. هذه الحرب ليس ما عرفناه وعهدناه، ففيها يضرب السيف وكأنه يرتطم بالماء، ويعلو القمع فيلقى

الهزء والسخرية. وها إني أمد عنقي إلى السياف والنطع، وأردد عن قناعة وإيمان ما تناقلته العرائض والافواه: كثر الموت حتى هان، فلنقطع ببعض موتنا دابر الطغيان.

صرخ الحاكم آمراً «اقطعوا لسانه بدءاً، ثم مزقوه إرباً إرباً، وانظروا واعتبروا»، وهرول نحو منزل خلوته في المقطم يتبعه ركابيان وصبي من صبيان الحجر. وما أن وصل إلى مستقره حتى كلف الركابيين بنقل أمره المطاع إلى العبيد بأن يغسلوا جثة لؤلؤ ويدفنوها في القرافة مع التكريم؛ ثم قال للصبي: «أرني قمرك»، فتعرى الصبي وسجد أمام مولاه الذي بادر عورته ببصقة، ثم تركه على صخرة ثابتاً في هيئته.

ظل الحاكم يذرع منزله جيئة وإياباً، وجنون الهواجس القاتمة يخبطه خبطاً، ويعمر الفضاء أمام ناظريه بلوائح الكروب المتدائمة والتعاسات المزدحمة. وكانت عقارب الزمان، وقد أصابها البطء والتراخي كأنها غاصت في أوحال مستنقع دبقٍ شاسع. فكان الحاكم يملأ الفراغ بإشارات الأمر أو الترجي لاستنزال المساء، طمعاً في حلول الليل. وفي لهيب انتظاره كان يخرج من منزله إلى كدية قريبة زاخرة بالصبار والنبات الوحشي، ويصيح:

ـ يا شعب الدف و«المدمس»! بحق من ولاني الملك، لن أعجز عنك كما عجز الخصي لؤلؤ، فإن كنت تطعن اليوم في قدري ومهابتي، فسترى على حد سيفي نسبي وفي بساط ذخائري حسبي. لن يكون لك معي مخرج إلا أن تذكر أن جدي وصيٌّ النبي مستقرّ «في السحاب، وأن صوته الرعد وسوطه البرق».

نادى الحاكم على صبي الحجر وأمره بالذهاب في طلب

مؤرخـه مختار المسبحي. ولم تمض ساعة حتى كان المؤرخ واقفاً في الكدية ينتظر عودة الحاكم إلى وعيه. ولتبديد عياء المثول والترقب، أخذ يسجل وثيقة ضمنها ما فهمه من مناجاة الخليفة الجالس في التراب، ومنها:

وحقي في التوهجِ والإعصار!
لا بدَّ لي، أنا المكبوتُ، من نيران.
وحقِّ التنينِ الذي ينزعُ جلدهُ ويزحف!
لأتركنَّ للمَزابلِ والنسيان
أحوالَ نفسيَ الثكلى،
وأضرمنَّ الحرائقَ في النكتةِ والعصيان.

ولما عجز المؤرخ عن ملاحقة كلام الحاكم، أخذ يحنحن، ثم برز أمامه وقبل الأرض قائلاً:

ـ نادتني الحضرة المقدسة إليها، وها إني ألبي النداء طائعاً، وأفتح أوراقي كلها لما تريد أن أقيده بقلم الوفاء من جليل كلامها ودقيقه، وناصع برهانها وموثوقه. فحدثني، يا مولاي، بما تريد وترضى حتى أشرف به ناعورة الزمان وأصقله في ذاكرة الأجيال.

انتصب الحاكم على قدميه وخطا نحو المؤرخ، فأوقفه وأخذ منه أوراقه ومزقها، ثم خاطبه بلهجة تفيض حزناً وكآبة:

ـ اتق الله يا مختار، واسجد له وحده وليس لمن تروي عنه وتحكي، ثم كفّ عن بلاغة لا تنفع اليوم ولا تشفي. الغمة أمست عظيمة والمصيبة زباء، ولا من تاريخ يفيد أو من حيلة تجدي.

ـ وقاك الله كل شر يا مولاي، وحفظك من كل مكروه.

ـ حسناً يا مختار! ادع لي ما وسعك الدعاء، فإني في هـذا الزمن العصي، لم أعد ألقى إلا من يـدعو عـلي ويقذفني بـأمرّ الهجـاء. هل تـراني، يا صـديقي، قد هـرمت وفـاتني الـركب والتيـار، أم تراني قضّيت في الحكم أكثـر ممـا يجـوز ويلـزم؟ ذكرني كم بلغت اليوم من العمـر يا ضـابط الأوقاف، يـا أيها الأعلم!

بدت على المؤرخ عـلامات الـدهشة من كـلام الحاكم كلـه، وأخذ يجري حساباً ذهنياً مستعيناً بأصابعه، ثم قال مندفعاً:

ـ سنك اليوم، يا مولاي، ست وثلاثون سنة لشهرين بقيـا، لا أقل ولا أكثر، وهو سن الرجولة الكاملة والقوة الظافرة.

ـ هذا من حيث الظاهر يا أمهر الموثقين، أما سني الباطني فهـو مثلث ما ذكـرتَ أو يزيـد، ولا يحس بوقعـه ويعـاني من ندوبه أحـد سواي. هكـذا تظل أوراقـك، إلا في ما نـدر، دون الحقـائق الحية ودون تقطـع الأوصـال والأكبـاد، فـلا تسـود بياضاتك إلا بالقشور والأزباد.

ـ أراك يا سيدي هذا المساء ميـالاً إلى سوء المـزاج ويبس الدماغ، فهل أطلب طبيبك أو أجلسك في دهن البنفسج؟

ـ لا طب ينفع فيَّ اليوم ولا عقـاقير. لا تخفيف من قـرحتي ودائي إلا بـالتحريق. حـزني أوسع من أن يُفهم. حـزني أكبر من أن يُعذر!

تنبه الحاكم فجأة وهو يكرر آخر كلماته إلى انتشـار سدول الليـل، فتنفس الصعداء، وهـرول نحو مـرصـده فنظـر فيـه، وغمغم: «لم يظهر بعد نجميَ المشؤوم، فماذا دهاه!»، ثم دخـل منزل الخلوة متبوعاً بمؤرخـه. وهنا جلس الـرجلان متقـابلين، وبينهما شمعتان تشعان بنور دائم الخفوت والاضطراب. ظـل

الصمت سيد المكان والجلسة، وطالت مدة كان ذهن الحاكم فيها يعج بالافكار والظنون، ويحفل بالرؤى والبوارق، فصار يهمهم بها متردداً في الإفصاح عنها لمؤرخه، قائلاً في نفسه: «لو نطقتُ بما يسكنني ويهز عقلي وكياني، لو كشفتُ عن مناجاتي مع ربي وولهي الغريب بالسلطانة أختي، ولو أنفقت في تيسير نطقي وكشفي بلاغة ناصعة وبياناً قصياً، لما اقتحمتُ على مؤرخي دوائر وعيه وفهمه... باطنيّ «مزيف» «هذا المؤرخ، ونهاز يكثر من زلفاه ومن خفض الرأس!»».

كان المسبحي يتمسكن في جلسته وينكمش كأنما يغالب خوفاً على النفس استبد به وجعله يتحين فرصة للإفلات والهروب. وبجهد جهيد حلّ عقدة لسانه وتمتم وهو يمسح العرق من جبينه:

- إن كان حضوري هنا يشوش على مولاي أو يلوث فضاء خلوته وخطراته، فهل لي أن استأذن الحضرة بالانصراف.
- تنصرف وأنا أحوج ما يكون إلى التاريخ! تنفلت كأنك لا ترتاح إلى أماني! ومن غيرك يخبر الزمان والأجيال عني؟

- هي بياضات طفيفة بقي لي أن أسودها بعون منك يا مولاي، فأكون قد أنهيت المجلد الأربعين من تاريخي، الذي عنونته: «كتاب أخبار مصر وفضائلها وعجائبها وطرائفها وغرائبها وما بها من البقاع والآثار، وسير من حلها وحل غيرها من الولاة والأمراء والأئمة الخلفاء آباء أمير المؤمنين».

- وما هي بياضاتك يا مختار؟
- هي شيء يسير في باب من نال عقابك بالموت من الأكابر والأعيان. لقد تشرفتُ، يا مولاي، بإلحاق كل أحكامك في هذا الباب بالعلل الدامغة والشريعة الرادعة. وكنتُ كلما تدبدبت أو

خانني البيان، استمسكت بعلل السياسة النافعة، وكتبت على لسان الهمداني: «الماء إذا طال مكثه، ظهر خبثه، وإذا سكن متنه، تحرك نتنه». إلا أنني، يا مولاي، والحق يقال، عجزت بالتمام عن فهم حالتين، أو قل ثلاث حالات، أولاها قتلك لمؤدبك أبي التميم سعيد بن سعيد الفارقي.

ـ تذكر أن ابن عمار كان يختال عليّ بعصبيته، والمحنك بورجوان بسيفه وسراويله الألف ذات التكك الحريرية؛ والفارقي كان كهذين وآخرين أرادوا التربع فوقي والحجر عليّ، فأسفوني كثيراً فانتقمت منهم.

ـ لكن الفارقي، يا مولاي، لم يكن رجل سيف ولا عصبية، بل كان فقط رجل نصح وإرشاد.

ـ النصح الذي يكبل الأيدي ويتعبد التجريد لغو، والإرشاد في السياسة بما يلزم أن تكون خبط لا ينفع السياسة بما هي كائنة جارية. غير أن الفارقي لم ينله سيفي بسبب أفكاره التي كانت مصدر معاشه، بل لأنه أمسى يحيطني بظله الثقيل ويغلق عليّ بعبره وعظاته أبواب العمل، ويتدخل في شؤون وأسواق لا تعنيه.

ـ وقد وافقني السعد ذات يوم، يا مولاي، فحضرت لحظة رائعة من لحظات غضبك عليه، إذ نهرته الحضرة قائلة: «لا عبرةَ إلا مما أحصله بالمعاناة، ولا ماضيَ إلا ما أصنعه أنا بأعمالي وخواتمي وآثاري، فأضيفه إلى ذاكرة الدنيا عربوناً على بقائي بعد موتي». وسجلت في تاريخي حكمتك هذه بالقلم الجليل... والفارقي الآخر، مالك بن سعيد، قاضي القضاة، يا مولاي؟

ـ هذا القاضي، أخزاه الله، لو أنه نهض اليوم من قبره

لقتلته مجدداً. فأنت رأيت بنفسك يا مختار، حين وليتك على ديوان الترتيب، أنه كان يهتك سر مراسلاتي، ويطلع على الرقاع المرفوعة إليّ.

ـ هذا عين الصحة يا مولاي، ولكنك غفرت له هذه الجنحة، بعد أن أحطتُه بتكليف منك بإنذار مكتوب شديد اللهجة.

ـ وهل تظنه قد ارعوى وتاب؟ بل إنه عاد إلى غيه ومكره، مبتدعاً حيلاً وأساليب توَهَّم أنها ستعمي «عيوني» وجواسيسي. وقد ثبت بالحجة والبرهان أنه كان يستغل النساء المتظلمات، ويساومهن بالفسق والزنى، بل ذهب الشيطان به إلى حد التسلل إلى حرمي، فأخذ يتفقد ست الملك بالملاطفات والغوايات. وقبيل أن أنزل به عقابي سألته ممتحناً عن الفرق بين الرجل والمرأة، فهل تدري يا مختار بم أجابني الفاجر الوغد؟ قال «الرجل له عورة»، وتابع وهو كمن تخبطه شيطان الشبق من المس: «وأما المرأة فعورة كلها».

ومال الحاكم على جليسه هامساً في أذنه كلمات، وهذا الأخير يقفز جالساً ويستغر الله. ثم استأنف المسبحي سائلاً:

ما دمنا، يا مولاي، في سلك القضاء، فهل لي أن أعرف سر اختيارك للتحريق وسيلةً للتخلص من قاضي القضاة عبدالعزيز ابن‌النعمان، مع أن ضرب عنقه بالسيف كان كافياً للاقتصاص منه على ما أتاه من فضائح؟

ـ إنك، يا مختار، لا تعرف عن كبائره إلا أخذه للرشاوى والبراطيل، واستكثاره من التقلب والتحريض عليّ، وتعرف وقوفه في السر مع أبي ركوة وكل ثائر ضدي. وهكذا كان أسوأ خلف لخير سلف، فحق فيه عقابي بالقتل، كما حق في

قريبه وشريكه في التآمر عليَّ الحسين بن جوهر. وإنما أمرت بتحريق جثته لأن الملعون كان يسرق اليتامى ويحلبهم، فحققت فيه وعيد الله، وهو أعظم المتوعدين: «إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً».

وقف الحاكم فجأة، وتمشى في الظلمة قليلاً، ثم قال وهو دون الباب:

ـ أظنك استوفيت حالاتك الثلاث، وأخذت مني ما تنور به تاريخك.

ـ لا يبقى، يا مولاي، نوّر الله أعمالك، إلا قضية واحدة لا مزيد لها، تؤرقني وتعوزني فيها أسباب الفهم والتعليل. إنها قضية قتلك لقائدك الفضل، والذي ما قصر في خدمته لما أن هزم جيش أبي ركوة ووقاك شرور خطر عظيم.

قال الحاكم مقاطعاً وذارعاً المنزل بخطوات متوترة:

ـ لا يحل لك، يا مختار، أن تقف ككافة الناس عند سطح الأمور وسخيفها. فتعمق رعاك الله، وسترى أن انتصاري على أبي ركوة لا ناقة للفضل فيه ولا جمل. سترى أن غلبتي إنما تمت بما أرهقت به خزينة الدولة وخزائني كلها من نفقات باهرة، جلبتُ بها الموالي والصنائع من بلدان وأجناس كثيرة... تعمق وابحث، وسترى اني ما قبضت على الثائر إلا لأني قايضته من حامية ملك النوبة بهدايا ومؤن مختلفة. وكان مجمل ما أنفقته يزيد عن ألف ألف دينار ذهباً صناعاً. ولولا لجوئي إلى هذه الحيل الأخيرة المتبقية في جعبتي، لما قاومت جيش أبي ركوة واندفاعاته، ولولاها لما كنت هنا أشرح لك وأفسر، يا أيها السطحي!

ـ صدقت يا أمير المؤمنين فاعذر قلة عمقي وقصور فهمي.

ـ وقتلت الفضـل أيضـاً لأنـه اغتـال من غـيري أمـري أبا ركوة، فأتى أمراً إدّاً، إذ حال بيني وبين استقباله حياً، ولم يخلف لي منـه إلا رأسـاً لا يتكلم. آه يـا مختـار، كم رغبت في مناظرة أبي ركـوة والتحدث إليـه! كم تلهفت إلى استظهار مـا عـج بـه رأسـه من رؤى وأفكـار! لـو تيسر لي مـا منعني منـه الفضل، لو ناظرني أبو ركوة في خروجه عـليّ واستمالني إليـه، إذن لكنتُ عينته لعهدي وليا.

ـ وهل، يا مولاي، يصح هذا... شرعاً؟

ـ الشرع مع الأصلح والأفيـد. ألم أعرض عن تـولية ابني الشرعي الحسن وأعين بدلـه ابن عمي عبدالـرحيم بن إلياس، مخـلاً بتسلسل الإمـامـة في الأعقـاب، ومفضـلاً الأقـوم عـلى الأعوج والأقدر على الأعجز؟.

ـ بلى يا مولايٍ، وهذه قضية أخرى تستعصي على فهمي!

ـ إذن لو قابلتُ أبا ركوة وتيقنت من أنـه أصلح من غـيره، لكنت قاسمته الخلافة وأوصيت بنقلها إليه بعد اختفائي.

ظل المسبحي مذهولاً لا يعرف مـا يقدم ومـا يؤخر، فسـأل متمتماً:

ـ وهل أنقل ما تقوله الحضرة عن أبي ركوة؟

ـ افعل ما بدا لك، بل اترك عنك ما قلتُـه، فقد لا تجـد من يصدقك إن أنت رويتـه. ولكن سجل عـليّ في تاريخـك قولي: لا إمامة إلا للأجدر، لا إمامة إلا للأصلح.

ـ مولاي، وهل أضمّن تاريخي في باب أبي ركوة ما نسبتُـه إليـه من أبيات طلبتُ من شـاعرك محمـد بن عـاصم نظمهـا، وكلها في طلب عفوك ومغفرتك؟

- اذكر شيئاً يسيراً منها حتى أرى.

- هي قصيدة طويلة، لكني أجتزىء منها مقطعاً صغيراً معبراً:

«فررتُ فلم يغن الفرار ومن يكن
مع الله لم يعجزه في الأرض هارب
ووالله ما كان الفرار لحاجة
سوى فزع الموت الذي أنا شارب
وقد قادني جرمي إليك برمتي
كما هز ميت في رحا الموت سارب
وأجمع كل الناس أنك قاتلي
فيا رب ظن ربه فيك كاذب
وما هو إلا الانتقام وينتهي
وأخذك منه واجب لك واجب»

قال الحاكم مقاطعاً غاضباً:

- اتق الله يا مختار، وخلص المهزومين الأموات من خيالات الشعراء وأكاذيبهم.

- لكن يا مولاي، هذا النص المنظوم بالشعر والخيال، سيتحول بالتدريج إلى وثيقة صحيحة يكرر نسخَها حتى أقرب المؤرخين إلى قيام الساعة. وأنا أراها من الأهمية والنفاسة، بحيث يحسن روايتها كما تروى كل الوثائق التي بدأت خيالاً ثم صارت تاريخاً.

- اتركها إن شئت لدواب التاريخ تتناقلها في أسفارها، فهي جرعة من بحر. ثم من قال إننا لا نحيا كلنا في حلم مزعج أو أكذوبة شاملة متواترة!

كان الحاكم يقول كلماته وقد تعدى باب المنزل وهرع نحو مرصده، منقضاً عليه، مصوباً منظاره إلى السماء. وبعد مدة، رجع إلى جلوسه في الظلمة، وردد كلاماً كأنما يناجي نفسه:

«السماء مثقلة بالنجوم، وكل نجمة على قفا أخرى قابضة. وأما نجمي المشؤوم فقد أراني ذنَبه...». وبعد أن تعب من الترديد، هوى في سكون مريع لم يجرؤ المسبحي على تغييره أو رفعه، فشرع يتربص فرصة خلود الحاكم الى النوم يهرب إلى بيته. وما أن تناهى إليه أول الشخير حتى وقف وخطا كاللص نحو الباب، غير أن زئير الحاكم المصحوب بكلمات التأنيب أرجعه تواً الى مستقره.

– إيه يا مختار، تغادرني من غير إذني، وتعجز عن أخذ قسطك من أرقي وظلامي. قبح الله فرارك وسعيك!

– معذرة يا مولاي، لقد رأيتك مكفهراً، ينوء عليك الغم بكلكله.

– فأرخ لاكفهراري وغمي، فتفهم ميلي إلى الابداع وطي الماضي.

– ورأيتك غارقاً في الصمت.

– فأرخ لصمتي وغرقي فيه، فترى اختمار أفعالي ومخاض محدثاتي.

– لكني، يا ذا المواهب والجلال، لا أقدر على انتحال هذه الصنعة الوعرة المتعذرة.

– إن كنت لاتحسنها فتعلمها كما تعلمت أنا فقه النجوم واستنطاق البواطن والأنواء، وهل خلقنا لغير العلم والبحث عن الأنوار؟ فإلى متى يا مختار، وأنا لا أراك إلا على طول أسمطتي ومحافلي، وفي ركوباتي إلى فتح الخليج أو تدشين بنياني ومفاخري؟ وإلى متى وأقلامك لا تلاحقني إلا في مجالس أسماري وأمور دولتي؟ هل التاريخ في عرفك إلا أعراس وولائم تقام، وأشرطة رمزية تقطع، وسجلات ومراسيم

تكتب وتختم! أليس الخلفاء والسلاطين كلهم قد حواهم هذا التاريخ، وجالوا فيه وصالوا؟ ألا ترى أن جوامعك قد تتسع حتى لأضعف سلطان بويهي كبختيار الذي كان يحول مجالسه مع الوزراء والقواد إلى نحيب وعويل وشهيق حزناً على غلام جُنَّ عليه وضاع منه؟ ألست أسألك بالحق؟

- بلى يا مولاي.

- إذن أين تركت تفردي وتألقاتي؟ وأنّى لك بتاريخك أن ترصع بي ذاكرة الزمان والاجيال؟

- إني، يا مولاي، ما أوتيت من العلم إلا قليلاً، وفوق كل ذي علم عليم!

- علمك هذا قليل أكثر مما يلزم، وفقير إلى العمق والتأويل، وقد يضر كثيراً ولا ينفع.

- وما الحيلة في رفعه إلى ما تريده الحضرة وترضاه؟

- أن تجتهد، يا مختار، ولا تألو، وأن تؤول حتى تعرق وتتعب، وأن تفتح حواسك كلها لتجاوز القشور إلى الالباب وتلقي المعاني المفيدة والدلالات الجميلة. وإن بقيت دون هذه الأبواب، فأنت وأهل الظاهر والأوساط على حد سواء، لا تعلو على كرور الأيام ولا تفلح إلا بالصدأ والنفايات.

- وهب، يا مولاي، أني اجتهدت حتى نتأت عروقي واصفرَّ وجهي، فلم أجد غير ما وصفتُه، ولم أتّئد إلى غير ما قيدته وأبرزته. فلا محالة أني راجع إلى رحاب متعتي واحتفالي: رحاب السلطة والجاه واللمعان؛ رحاب سألت البلاد عنها، فدلتني على عاصمة ملكك، وسألت عاصمتك عنها، فأشارت إلى بلاطك يا مولاي. وفي هذا البلاد العامر وجدت ضالتي المنشودة، وجدت قبلة وظائف القلم والسيف والمال كلها مجتمعة على التقرير وصنع الأحداث. كل امرىء ميسر لما خلق

لـه، وأنا لم أيسر إلا لخـدمتك يـا مولاي، كمـا خدمت سلفـك العظيم، أروي عنـك وأحكي، وأرد كل شيء إليـك. لـذا تـراني متعلقاً لا بالعامة والطغـام، ولا بمعاشهم وأعشـابهم ومعادنهم الوضيعة، بل بالأحجـار الكريمـة والخيل المسـومة والأنعـام، وبالنباتات النادرة والنافعة في صحتك، يا مولاي.

ـ بلاطي، يا مختار، محل انجذابك وحماساتك بقدر مـا هو مبعث دوارك وعماك عما سواه.

ـ لكن ولوعي بالبلاط وما يدور في فلكه من خيرات وأنوار لا يمنعني، يـا وهّـاب، من حشر من تـرمـز إليهم في هــوامش عصيانهم، أو في الكوارث العظـام والآيات الجسـام، من زلازل وحرائق وقحوط وطواعين.

ـ تريد لـذاكرة الـرعية أن تـزخر بي وتشـع، وأن لا تجد حيثما ولت وجهها إلا وجهي.

ـ وكيف لا أريد لها ذلـك، والعباد في بـلادك الشاسعـة قد فاضت عليهم تألقاتك وامتحاناتك وطوَّقَتهم تطويقاً!

ـ لكن الرعية، يا مختار، هي اليـوم غير مـا عهدت وأردت. إنها أمست تكثر الدالة عـليّ بالقـدح والتقريـع، وتنفضني من ذاكرتها نفضاً. ألم تر إلى بطائقها كيف تعددت وانتشرت، وإلى عـرائضها كيف تلطخت بهـا حيطان المـدينة والأبـواب؟ لقـد توقعت من رعيتي كل مكروه إلا مكروه الطنز والنكتة.

ـ التاريخ، يا مولاي، لا يكتب ببطاقات الرعاع وعرائضهم، ولا يستوي بأعمالهم وترهاتهم. التاريـخ هو مـا أكتبه وتمليـه عـلي بتـوجيهـك وروحي من الـذي استخلفـك في الأرض عـلى العالمين.

ـ البطـائق تهزأ بتـاريخك يـا مختـار، وتثـأر منـك ومني.

البطائق تكتب تاريخاً آخر لا أراه يذكرني إلا بالهجو القبيح. لو قرأتَ بعضها لأدركت ما أخشاه، واحدة ترد نسبي إلى حماري، وثانية تدعي أني أراود أختي عن نفسها، وثالثة تشهّر بنظري إلى عورات الغلمان وصبيان الدار وترميني باللواط.

كان الحاكم كلما قال بمضمون بطاقة، مال على المسبحي وهمس في أذنه كلمات، فيقفز هذا الاخير جالساً ويستلطف الله. وأضاف الخليفة قائلاً:

- هذا فضلاً عن تلك التي تنفق أعتى البلاغات في تصوير جنوحي إلى سفك الدماء وهتك الأعراض. لو نظرت مرة في ما يحمله إلي مظفر في مظلته من بطاقات الشؤم والخزي، لغرّقت نفسك في النيل أو فكرت معي في سبل الانتقام.

- كلام الغوغاء، يا مولاي، يرد إلى الغوغاء، وبطائق الدعارة والبغي تعود بعد وجيز الوقت نسياً منسياً وهباء. وهذا ما علمنا التاريخ إياه، وهوخيرمعلم وأقوى دليل.

- ورطتي اليوم ليست مع التاريخ، بل مع نفسي المحزونة. لقد هنتُ يا مختار، وبخستُ وتجرثمت، فصرت أضمر صيحة لو أطلقتها لاهتز القصر والجوار، وأغذي فكرة لو نفذتها لأتت على مصر ومن عليها.

- لقد فات أن سجلت في تاريخي، يا مولاي، أن الحضرة في الربيع الأول من سنة خمس وتسعين وثلثمائة:

«أمرت بشونة تحت الجبل ملئت بالسنط والبوص والحلفاء؛ فتخوف الناس كافة، من يتعلق بخدمة الدولة من الأولياء والقواد والكتاب، وسائر الرعية عن العوام. وقويت الشفاعات وكثر الاضطراب، فاجتمع سائر الكتاب والمتصرفين من المسلمين والنصارى، وخرجوا بأجمعهم في خامسه

إلى الرياحين بالقاهرة؛ ومـا زالوا يقبلـون الأرض حتى وصلوا إلى القصر، فـوقفوا عـلى بابـه يدعـون ويتضرعون، ويضجـون ويسألـون العفو عنهم، ومعهم رقعة قد كتبت عن الجميـع، ثم دخلوا بـاب القصر وهم يسألـون أن يعفى عنهم، ولا يسـأل فيهم قول سـاع يسعى فيهم، وسلموا رقعتهم لقـائـد القـواد، فأوصلها إلى الحضرة، فعفوت عنهم وأمرتهم على لسان قـائد القـواد بالانصراف والبكور لقراءة سجل بالعفو عنهم؛ فانصرفوا بعد العصر. وقرىء من الغد سجـل كتب نسخـة للمسلمـين ونسخـة للنصـارى ونسخـة لليهـود بـالأمـان والعفـو عنهم»[٢١].

بدت على الحاكم فرحة جنونية، وقال بلهجة حادة:

- نِعم ما ذكرتني به يا مختار! وتتذكـر أيضاً أني أحـرقت الشونة لتمتيع ناظريَّ بمشهد النار. كان الأمر لهواً ومزاحاً في تلـك الأيام، أمـا ناريَ المقبلـة فلتعريض البطـائق وصانعيهـا للإتلاف والانتقام.

- اضرم الحرائق يا مولاي، وأنا إلى جنبـك أدونها بـأقلام التحليل والتبرير تناسب المقام.

- وأهـل مصر، مـرضى التعلق بـالحيـاة، إن أتـوني حبـوا كالزواحف الذليلة المقهورة، فلا عفـو لهم عندي هـذه المرة ولا أمان... والآن يا مختار، والليل وشيك الاندثـار، عد إلى بيتـك وذويـك، وفي الليلة القـادمة ابحث عني في قبـة الهواء، بـل في صحراء الهرم، واصطحب معك حميد الدين الكرماني، فإن لي به حاجة في تدقيق بعض المعاني.

ما أن أتم الحاكم كلامه حتى كاد المسبحي قد أدى تحياته منحنياً، واختفى مهرولاً. أمـا الخليفة فقـد امتد في ركن وغفـا قليلاً، والعسس في الخارج يقيمون عليه حراسة متراخية.

*

في الليلة التالية، كان المسبحي والكرماني في الموعد بصحراء الهرم جالسين في خيمة أمام الحاكم، الذي كانت تبدو عليه علامات الطمأنينة والهدوء والميل إلى التأمل. ولم تكن هذه العلامات وليدة لطافة المناخ ورقة الأنسام فحسب، وإنما إيضاً بفعل الهيبة التي كانت للكرماني في علو جسمه وتوهج وجهه وعمق كلامه.

قال الحاكم بعد أن ملأ صدره بالهواء وترنح في جلسته:

- أهلاً بحجة العراقين وفيلسوف الدعوة الفحل. ماذا دهاك طوال غيبتك عني، وأنا أحوج ما يكون إلى عارف بالحدود العلوية والسفلى وأعطش من رمل إلى ماء الحقائق؟

وضع الكرماني يده على قلبه، وألقى على سائله نظرة ود حزينة، وقال:

- مولاي إني لا أنصرف عنك إلا إليك، ولا هم لي ولا شغل إلا الدعوة المباركة وإصلاح ما تداعي منها. فإني، والحق يقال، لا زلت أرى الديار والجزائر كما وصفتها للحضرة المقدسة منذ ما يزيد عن حولين:

«السماء قد أظلت بسحاب عميم، والناس تحت ابتلاء عظيم، والعهد في الرسوم السالفة قد نقض، وعن أولياء الدين بما كسبت أيديهم قد أعرض، والرسم في عقد مجلس الحكمة جريا منهم بالاحسان قد رفض، والعالي قد اتضع، والسالف منهم قد ارتفع. وشاهدت أولياء الدعوة الهادية بسط الله أنوارها. والناشئين في عصمة الإمامة وأولي ولائها قد حيرهم ما يطرأ عليهم من هذه الأحوال التي تشيب لها النواصي، وبهرهم ما تجدد لهم من الاسباب التي لا يهلك بها إلا أولو النفاق والمعاصي، وهم يومئذ يموت بعضهم في بعض، ويرمي كل منهم صاحبه بفسق ونقض، تتلاعب بهم الأفكار الرديئة، والوساوس المردية، ثم لا يعلمون ما أظلهم في الدخان المبين، ولا ما ألم بهم من الامتحان المستبين، فصار البعض منهم في الغلو

مـرتقين إلى ذراه، والبعض في النكص عـلى أعقابهم تـاركين عصمـة الدين وعـراه، والقليل منهم قـد تزعـزع أركان اعتقـادهم، وما قبلـوه من الدين باختيارهم وارتيادهم وهم على شفا انحلال وحؤول واختـلال، وأعناق أولي الطرفين من الأبـالسة إلى اختـلاسهم ممتدة، وهممهـا إلى اصطيادهم عن اعتقـادهم محتـدة، والآحـاد منهم قـد رضـوا من أنفسهم لأنفسهم، إذ تخلصت نفـوسهم مكتفـين بقـول اللـه تعـالى «لا يضركم من ضـل إذا اهتديتم»[٢٢].

قال الحاكم بامتعاض غير مكتوم:

ـ لا تـذرذر الملح في الجـرح يا حميـد الدين، فهـذا كـلام أتـاني منـك بعـد فـوات الأوان، وتكـرره الآن عـلى مسمعي والأوقات صارت تعد عليَّ والأنفـاس. فكيف لي اليوم أن أفتـح الصراع مع دعاتي وأنا مجد في إخماد قلاقـلي وصراعاتي! ألم تر أني تركت الأعيان والكبراء يتغطـرسون بـأوسمتي وألقابي ويتمخترون، فلم أعد أجردهم منها حتى يشتـروها بـاستمرار مني؟ ألم تقرأ سجل أمـاني لأهل الـذمة بـالعودة إلى بنـاء ما هدمت من كنائسهم وإقامة أعيـادهم وشعائـرهم؟ تعِبٌ أنا يـا حجة، ومتشنج ومريض بأقوال ناس الفسطاط.

خرج المسبحي عن صمته ولفق جملة متلعثماً:

ـ حالة الإرهـاق والإنهاك، يـا مولاي، حـالة يجـربها كـل عظماء الزمان ومدبري شؤون الأمم.

واستأنف الحاكم كلامه، غير آبه لكلام المؤرخ:

ـ آه كم هي عارمة رغبتي في عمـر آخر، لا لكي أحكم، بـل لكي أكتب وهل تدري، يا حميد الدين، ما أريـد أن أسود بـه الأوراق؟ كل ما لم يدركه هذا المؤرخ ولم يره، وكل ما غاب عن أسفاره الثقيلة من صيحـات كامنـة وصدوع وحقـائق... فعد

مثلاً إلى صباي لترى معي ما أراه: في بساتين اللؤلؤة سنديانة خالدة شامخة يقال إنها فرعونية المنبت والمرجع، كنت، وأنا دون العاشرة، أعتليها كل صباح وأقضي ساعات أطلي غصونها الفارعة بالدبق المبثوت بحبات الزرع، ثم أختفي وراء غصن ملفوف بالأوراق. فلا ينتصف النهار حتى تكون الغصون الدبقة قد اكتظت بضحاياي من الطيور والحشرات، فآخذ القريبة منها فأخنقها أو أذبحها، وأنال الأخرى بهراوة ساحقة. وكانت قطط القصر لا تتأخر عن اجتماعها من تحتي لولائم تأتيها من عندي، وكثيراً ما كنت أقتل القط المغالي في الأكل والسطو. وبقيت على عادتي هاته زمناً إلى أن أتاني ذات يوم بورجوان، فأنزلني من السنديانة وأخبرني بموت أبي، ثم وضع التاج على رأسي وقبل لي الأرض وبايعني هو والناس على الخلافة. وكنت، وأنا أخضع لمراسيم التنصيب، أودع الطيور والحشرات، وأتنازل حزيناً مكرها عن عرشي في مملكتها، طالباً عزائي وسلواني في أن يمنحني عرشي الجديد على الناس نفس المشاغل واللذات. هذه الذكرى التي لم يأت مؤرخي إلا بقشورها، أرغب في الانكباب عليها كتابةً لأنها فاتحة ما تعاقب عليّ من أحلام مزعجة وهواجس مرعبة، سعيت بها بين العباد، أرفعها عنهم عند الفرج والغبطة، وأحققها فيهم عند الشدة والظلمة.

أظهر الكرماني بعض التضايق، ثم اعتصم بتؤدته ووقاره، وقال:

– مولاي، إني لا أرى، من جهتي، في هذه الذكرى إلا دليلاً آخر على أنك الإمام قائم الزمان، المخاطب في آية الله الكريمة: «فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين، يغشى الناس هذا عذاب أليم»، فما بُعثتَ إلا كما بعث الأنبياء والأئمة من

قبلك، تُحَيِّر بأفعالك الأفهام، وتمتحنُ بها بواطن الأنام.

ـ كلامك يا حميد الدين، ككلام كل الحكماء، يأتي وقت الأفوال وبعد الأوان. أين نحن الآن من حدودنا العليا والسفلى؟ أين نحن من موجوداتنا وعقولنا وأفلاكنا؟ أين نحن من مرموزات أحاديثنا وأعدادنا، ومن حسابات جملنا؟ تصدع الصرح يا حجة، وهوى عالمنا الجرماني فوق رؤوسنا فقاعاتٍ وطيوفاً فانية.

ـ وحقّ من لا ضد له ولا مثل، المستحيل على الحواس والإدراك، ما أضعف الدعوة إلا دعاة الغلو والطمع والشره، إولئك الذين يستظلون بنور الحضرة ويقضون الأمور عوجاً، يجوبون الجزائر والديار وألسنتهم تلوّث قول إمامنا جعفر الصادق: «ومن مضت له سنة فلم يصلنا من ماله بما قل أو كثر، لم ينظر الله عز وجل إليه يوم القيامة، إلا أن يعفوَ»، ويضربون عن ذكر قوله: «من أذاع سرنا، ثم وصلنا بجبال من ذهب، لم يزدد منا إلا بعداً»؛ ومن أذاع سرنا ونشره على الأرصفة والشوارع غير دعاة الخروقات والمستحيلات! من غيرهم عرضوا دعوتنا للقدح ولدوس أقدام الناس والدواب! من كبيرهم إلى دنيهم، تراهم يلغطون بأن شَعر مولانا دليل على ظواهر التنزيل، وصوفَه دليل على ظواهر التأويل، وحماره دليل على أنه الناطق، وغير هذا من الترهات التي يتلقاها المصريون بالهزل والتنكيت.

كان الحاكم شارد الذهن وبرما بما يسمعه، وقال مقاطعاً:

ـ لا تحدثني يا حجة في المستحيل على الاصلاح... ثم إن الأخرم مات مقتولاً، وحمزة والدرزي فرّا بالعقيدة إلى جبال الشام، فلا أمر لي اليوم ولا أزمة إلا مع نفسي الكلية. وهذه

النفس باتت تعذبني وتسألني: «أيها المودعُ للحكم الذاهبُ نحو الختم، هل في عهدك لما سستَ وافقتكَ النجومُ وأجرام الفضاء، أو فاضت عيناك ـ يوماً ـ دموعاً وفرحة، وتمَّ لك الابتسام؟ هي أتتك لحظةٌ خفقتَ فيها ورفرفتَ جالباً إليك الحمام، أو كنتَ كمن ضاجعَ وانتشى فراحَ ينشرُ السلام؟»، وهل لي، يا حجة، أن أجيب بغير الحق؟ والحق المحصل الذي لا غبار عليه ولا تزويق، أني عشت، طوال حياتي الهوجاء، أحمل في رأسي عبء نعش السماء، وأؤدي دوار الفصول نزيفاً وعياءً... ليس لمن يغوص ويتعمق أن يحكم ويسوس، ليس لمن يوغل ويغور أن يبقى في أوساط الأمور، أو عند حدود العموم. الحق، يا حجة، أني دخلت في التضاد ونزلت حتى صرت طرفاً فيه وليس سيداً: ضربتُ الرعية بآيات، فرمتني بأضعافها؛ أقمت أعيادي ومواسمي فأقامت نقائضها»؛ دفنت الأخرم بالتكريم، دفنت قاتله بتكريم لا يضاهى. أنا لها وهي لي بالمرصاد، تبادلني الجد بالهزل والردع بالبطاقات.

بدا الكرماني قلقاً لما آلت إليه نفس الحاكم الكلية، وخائفاً مما قد يأتيه من جديد الأفعال المظلمة، فاستجمع قواه، وقال محاولاً ما استطاع تهدئة الخليفة وتلطيف خاطره:

ـ لم يضع بعد كل شيء يا مولاي. لك أن تطوي الماضي بما عليه، وأن تبعث إلى رعيتك بدعاة جدد توصيهم ما أوصانا به إمامنا الصادق: «حببونا إلى الناس، ولا تبغضونا إليهم». ولا تنس أن تتمثل دوماً حديث نبينا المصطفى عليه السلام: «لو لم يبق من الدنيا إلا يوم واحد لطوّل الله ذلك اليوم، فيخرج من ذريتي من يملأ الدنيا عدلاً كما ملئت جوراً». وهذا حديث عزيز جليل، كافٍ وحده لإمداد مولاي بالفرج بعد الشدة والامل بعد اليأس.

نهض الحاكم واقفاً، وخرج إلى عتبة الخيمة حيث شرع يملأها بخطوات عصبية، وقال:

ـ الرعية، يا حجة، لم تعد من الصنف الذي يطيق انتظار العدل إلى آخر يوم في الدنيا، ولم تعد تريد امتحاناً ولا اختباراً، الرعية اليوم صارت تستعجل العزة والانصاف، وتطلب التمتع بالانعام حالاً. وأنا ليس لي حيلة معها ولا قوة. فهل أخرج فأخاطبها كعيسى: «أنا ابن من في السماء»؟ أو أهددها صائحاً: أنا الطور، والكتاب المسطور، والبيت المعمور. أنا صاحب البعث والنشور. أنا إمام المتقين، والعلم المبين، ولسان المؤمنين، وسند الموحدين...»؟ والله، لو فعلت هذا وما شابه لتلقاني السكان بالتطبيل و«التغييط»، مرددين كلامي بلحن الاستهتار والتنكيت، راقصين بالبطون وعلى «واحدة ونص». إذن كفانا لغواً ومناظرة! ولا مفر لي ولا مخرج من أن أكون النار المتقدة، التي تطّلع على الأفئدة... غداً يا مختار، إلحق بي ليلاً في الجبل المطل على الفسطاط العاقة الملعونة، فتكتب ثمة أروع صفحة من تاريخك... أما أنت يا حميد الدين، فيؤسفني عجزك عن إراحة عقلي وشفاء كربي وغليلي. فتعلم، رعاك الله، أن تأتي بأفكارك في الوقت ومع الأوان، لا خارج الفعل وأحكام الزمان.

كان الحاكم، وهو ينطق بآخر كلماته، قد امتطى جواده واتجه نحو قصره، متبوعاً بعسسه وركابيته، تاركاً جليسيه يؤديان التحية في حيرة وذهول.

*

في عشية اليوم الموعود كان الحاكم في جبله كالمجنون، يشبع الأرض خطوات وركلاً، ويوجه نحو الفسطاط إشارات

التوعد والتهديد. وحين يكلّ ويتعب يتهاوى قاعداً، ويهمهم قائلاً:

في هذه الليلة بين أحضان هذا الجبل:
سأسكر سكرةً عاليةً غريبة،
أحبُّ بها وأهوى نيرانيَ الحبيبة.
سأسكرُ بالفقاعِ وشتّى الأعشاب العجيبة،
وروحي في برجها يبلورها أريجُ النبتِ وضوءُ القمرِ،
وتؤنسها الحشراتُ والطيرُ وصمتُ الحجرِ
سأسكرُ حتى أستوي ويثورَ وجدي،
فأعطي للعبيدِ بعضَ ما عندي،
ثمّ امتحن الناسَ في الباطنِ والبيوتات
بلهيبِ ناري وأجيجِ عَجاجي،
تقودَ خطوي بينهم روائح القدحِ والبطاقات.

ولما نزل الظلام وخيّم، كان الحاكم سكران حتى الثمالة، وأكابر العبيد على مقربة منه، ينتظرون أوامره إليهم وكلامه. وردد الحاكم مع نفسه مراراً: «فرق تسد، واضرب فريقاً بفريق يدعوك كل الفرقاء إلى حضرة التحكيم فالحكم بأمر الله وأمرك... هكذا الرأي الآن والسلوك!»، ثم صاح بأعلى صوته: «يا أيها العبيد، مهدوا لي مصر، وسووا اعوجاجها. فهي اليوم لكم لكي تحرقوها وتنهبوها، انتقاماً لما اقترفته في حقي من فادح الهزل والسخرية، ولا خلاص لها مني ومنكم وقد تفرعن أهلها عليّ وتطاولوا. ولو قدرت لأرسلت عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم، أو لتركت جلودهم كلما نضجت بدلتهم جلوداً غيرها».

«واستدعى القواد والعرفاء، وأمرهم بالمسير إلى مصر وضربها بالنار

ونهبها، وقتل من ظفروا به من أهلها، فتوجه إليها العبيد والترك والمغاربة وجميع العساكر، وعلم أهل مصر بذلك فاجتمعوا وقاتلوا عن نفوسهم. وأوقعوا النار في أطراف البلد. فاستمرت الحرب بين العبيد والعامة والرعية ثلاثة أيام. والحاكم يركب كل يوم إلى القرافة، ويطلع إلى الجبل ويشاهد النار ويسمع الصياح ويسأل عن ذلك، فيقال له: العبيد يحرقون مصر وينهبونها، فيظهر التوجع، ويقول: لعنهم الله! من أمرهم بهذا؟ فلما كان اليوم الرابع اجتمع الأشراف [والشيوخ] إلى الجوامع ورفعوا المصاحف وضجوا بالبكاء وابتهلوا الى الله تعالى بالدعاء، فرحمهم الأتراك ورقوا لهم وانحازوا إليهم وقاتلوا معهم، وكان أكثرهم مخالطاً لهم ومداخلاً ومصاهراً، وانفرد العبيد وصار القتال معهم؛ وعظمت القصة وزادت الفتنة، واستظهرت كتامة والأتراك عليهم، وراسلوا الحاكم، وقالوا: نحن عبيد ومماليك، وهذا البلد بلدك وفيه حُرَمُنا وأموالُنا وأولادُنا وعقارُنا، وما علمنا أن أهله جنوا جناية تقتضي سوء المقابلة، وتدعو إلى مثل هذه المعاملة. فإن كان هناك باطن لا نعرفه فاخبرنا به، وانتظرنا حتى نخرج بعيالنا وأموالنا منه، وإن كان ما عليه هؤلاء العبيد مخالفاً لرأيك فأطلقنا في معاملتهم بما يعامل به المفسدون والمخالفون. فأجابهم بأنه ما أراد ذلك، ولعن الفاعلَ له والآمر به، وقال: أنتم على الصواب في الذب عن المصريين، وقد أذنت لكم في نصرتهم، والايقاع بمن تعرض لهم. وأرسل إلى العبيد سراً يقول: كونوا على أمركم؛ وحمل إليهم سلاحاً قواهم به. وكان غرضه في هذا أن يطرح بعضهم على بعض، وينتقم من فريق بفريق. وعَلِم القومُ بما يفعل، فراسلته كتامة والأتراك: قد عرفنا غرضك، وهذا هلاك هذه البلدة وأهلها وهلاكنا معهم؛ وما يجوز أن نسلم نفوسنا والمسلمين لفتك الحريم وذهاب المُهَج، ولئن لن تكُفَّهم لنحرقنَّ القاهرة، ونستنفرن العرب وغيرهم؟ فلما سمع الرسالة، وكانوا قد استظهروا على العبيد، ركب حماره ووقف بين الصفين وأومأ للعبيد بالانصراف فانصرفوا، واستدعى كتامة والأتراك ووجوه المصريين واعتذر إليهم، وحلف أنه بريء مما فعله العبيد، وكذب في يمينه، فقبلوا الأرض بين يديه وشكروه، وسألوه الأمان لأهل مصر، فكتب لهم، وقرىء الأمان على المنابر، وسكنت الفتنة وفتح الناس أسواقهم وراجعوا معايشهم، واحترق من مصر مقدار ثلثها، ونُهب نصفها. وتتبّع المصريون من أخذ أزواجهم وبناتهم وأخواتهم، وابتاعوهنّ من العبيد

بعد أن فضحوهنّ، وقتل بعضُهنّ نفوسَهنّ خوفاً من العار. واستغاث قومٌ من العلويين الأشراف إلى الحاكم، وذكروا أن بعض بناتهم في أيدي العبيد على أسوا حال، وسألوه أن يستخلصَهنّ، فقال الحاكم: [انظروا] ما يطالبونكم به عنهنّ لأطلقه لكم؛ فقال له بعضهم: أراك الله في أهلك وولدك مثل ما رأينا في أهلنا وأولادنا، فقد اطرحتَ الديانة والمروءة بأن رضيتَ لبنات عمّك بمثل هذه الفضيحة، ولم يلحقك منهن امتعاض ولا غيرة. فحلُمَ عنه الحاكم وقال له: أنت أيها الشريف مُحرج ونحن حقيقون باحتمالك وإلا غضبنا عليك وزاد الأمر على الناس فيما يفجؤهم به حالاً بعد حال من كلّ ما تنخرق به العادات وتفسد الطاعات»[٢٣].

*

قضى الحاكم أياماً في قصره قرير العين ظاهرياً، وحال نفسه أميل إلى انشراح مهزوز وهدوء مشوب بالحذر. فكان يكثر من الجلوس في دهن البنفسج، مردداً منشداً:

هكذا يتأتى تضييقُ الجرحِ وذاكرةِ الهوان،
بذاك المنظرِ المكتظ بالنيرانِ الطليقةِ المتقده،
بهذا الهبوطِ إلى الذعرِ المستبدِّ بالوجوهِ والأفئده،
وهذا العقابِ بالدخانِ والهشيمِ واندلاعِ الأرمده.

II
السلطانة ست الكل

«ونظرت ست الملك في أمور الدولة بعد قتل الحاكم أربع سنين، أعـادت الملك فيها إلى غَضَارته، وعمّرت الخزائن بالأموال، واصطنعت الـرجال. ثم اعتلّت علّة لَحِقَها فيها ذَرَبٌ فماتت منه. وكانت عارفةً مدبِّرةً غزيرةَ العقل».

ابن الصابىء، **كتاب التاريخ**، المذيل به على تاريخ ثابت بن سنان.

«ورتبت ست الملـك له (الحـاكم) من اغتالـه في بعض مقاصـده وأخفى مظانه، فأتى عليه وأخفى أمره إلى أن ظهر في عيد النحر سنـة ٤١١. وقال المغالون في المذهب إنّه غـائب في سره ولا بد أن يؤوب ومستتـر في غيبه ولا بد أن يرجع إلى منصبه ويثوب».

ابن القلانسي، **ذيل تاريخ دمشق**.

كانت ست الملك بنت الخليفة الفاطمي العزيز بالله تحتل في قلب أبيهـا مكان الصفـو والصدارة، إذ كـانت في حياتـه قـرة عينيه ومعبودتـه بعد اللـه، وكانت مـلاذه ودرعه الـواقي كلما غزته الهموم وأشكلت عليه القضـايا. ولمـا توفي العـزيز وتـولى العرش بعده ابنه أبو علي منصور الحاكم بأمر الله، كانت ست الملك في العهد المظلم لأخيها هذا (من أبيهـا) ما زالت تسطـع بآيات جمالها وذكائها وكيـاستها، وكـان نجمها يشـع بالآمـال العريضة ليس على المصريات المقهـورات المحبوسـات فحسب، وإنما أيضاً على كل طبقات الشعب التي أحبتها وسمتها: ست الملك والسلطانة وسيدة الكل.

جمالها!

لقد قال فيه الشعراء شعراً سار به الركبان، وردده السمار والمتماجنون في حلقاتهم ومنتدياتهم، ولم يكن أي أحد من كـل هؤلاء ولا من العشـاق المتناوبـين على ست الملـك يجـرؤ عـلى ذكرها بـالاسم، مخافـة أن يصيبه بـالشر ذريعُ الفتـك، سريعُ الانتقام، أخوهـا صاحب الصـولة والحضرة، فكـانوا يـرمزون إليهـا بأسمـاء شتّى منها: كنـز البهاء وفتـاة الشروق والوجـه المفدى... وقد تنـافسوا في وصفهـا بالمجـدولة وفي ذكـر جودة

قـدها وحسن خـرطها واعتـدال منكبيهـا واستـواء ظهـرهـا. وشبهوا عينيها بعـين الغزال أو عـين الظبية، وعنقهـا بإبـريق فضة، وساقها بالجمارة، وشعرها تارة بالحرير الوافر التيهان، وطـوراً بالعنـاقيد في الفصـل المعطاء. وانضـاف إلى الشعراء المتبارين، الناثـرون والسجاعـون، فقالـوا فيها: «خمصمـانـة وسيفـانة وكـأنها جـان، وكأنهـا جدل عنـان، وكأنهـا قضيب خيزران». وصوروها تصويراً نبويـاً وقالـوا: «يرى سـاقها من وراء اللحم من الحسن». ويروي بعض الغلاة: قـد نظر بعض الكفـرة إلى وجه ست الملـك فرأوا في صنعتـه دليلاً عـلى وجود الصـانع، فـآمنـوا بـاللـه واعتنقـوا ملـة التـوحيـد والأنـوار الفاطمية... وأمـا من لم يُؤت من بلاغة الوصف شيئـاً ولا من باع فحول الشعراء قسطاً، فكان لا يملك إلا أن يقف عنـد كل طرف وعضو من جسدها المبارك ويقول: الله! سبحان الله!

كانت ست الملك ـ بشهـادة كل من تشرف بمجـالستهـا أو مقاربتها ـ كلما ظهرت، فمرت أو تكلمت، تضوعت منها نفحات الطيب والمسك، أجمع الكل على أنها من نفحات الجنة والدوحة الزكية. كما أنهم أجمعوا عـلى أن مبعث كل هـذا الشذا ليس عطوراً صناعية، بل هو جسمها الفـذ الوضـاء، وما تحفـه من روائـح الجنان المحيطـة بقصرها الصغـير. فكان كـل من أقبل عليها خاطب نفسه مبتهجاً: «أكُلُّ هذا الأريـجِ لي؟!»، وتهافت على التوقيع لها في سفر الطاعة والاعجاب. ومن أبرز الموقعـين وأفخمهم نجد الحسين بن دواس، زعيم كتـامة، وأبـا الحسن عمار خطير الملـك، وهو كبـير الوزراء، ومظفـر صاحب المظلـة، ونسيم صاحب الستر، وابن مسكين صاحب الرمح، وغيرهم... وبالرغم من أن ست الملك كانت تحجم عن صرف اهتمامهـا إلى ما يقال فيهـا من أشعار، فقـد كانت بعض القصـائد المتـألقة

تتناهى إلى سمعها نتفاً وتفاريقَ مضيئة. فكانت تتلطف ببعضها وتسمح لذاكرتها أن تلوي على أقربها إلى الصدق والحياء. ومن قصيدة ضاع معظمها وغاب صاحبها وراويها، كانت ست الملك في لحظات خلوتها أو حزنها تذكر منها بالهمس جمرات وشظايا:

عن الفارسِ ذي الخالِ الذي راودَ الورده،
قال جئتكم بعد موسمِ السقوط والظلمه:
أخبرُ أن الزمهريرَ لن يظلَّ جاريَ المفعولِ
ولا القحطَ قويَّ القبضه،
أناشدكم يا أحبه
أن تنسفوا العبثَ الذي يحكمُ خطوكم خطوةً خطوه،
أناشدكم بالبحرِ وربِّ الكعبه...

عن ذي النون الهمزه صاحبِ الحالِ والخرقه،
عن أكلِ الشعير في صحونِ الغربه،
عن العاشقِ الذي فقدَ المنديلَ والفرحه،
عن القزمِ الطروب،
عن دفترِ فحلٍ معطوب،
قيّد فيه قبل أن يموت:
عن الفارسِ ذي الخال المتوفّى بجوار الورده،
قالَ والركبُ يحطُّ الرحالَ في ربعِ المشقه،
قالَ والشمسُ تفوت:
أينَ منّي الآن الكتابُ المحروق؟
أينَ أبعدَ الليلُ الحجريُّ عنّي فتاةَ الشروق؟

عقلها ورزانتها!

لم تكن ست الملك متطرفة الوعي بجمالها ولا مستغلة إياه

في علاقاتها ونفوذها. ذلك أنها كانت تنظر بما أوتيت من العقل والرزانة إلى ما هو أعظم من حسنها، وتروم ما هو أنفع وابقى، أي هذه المبادىء والأصول التي قامت عليها الدولة الفاطمية، وكان يطيب لها أن تسندها إلى فاطمة الزهراء على ذكرها السلام، وتميل بها جهة العدل والنور والتوحيد... كما أن من آيات تعقلها ورزانتها أنها كانت السباقة إلى مبايعة أخيها الحاكم بأمر الله ـ رغم صغر سنه ـ، وصارت أول عهده تُكِنُّ له المحبة وتتفقده بالملاطفات وسديد الرأي وتبادره بأروع الهدايا وأنفسها، وذلك سعياً منها إلى الاحتفاء بصعوده إلى الكرسي والتعبير عن غيرتها على دولة فاطمة الزهراء. ومما يذكره المؤرخون أنها أهدت لأخيها ـ وقد بويع له بالخلافة ـ «ثلاثين فرساً مسرجة، أحدها مرصع وآخر بلور وبقيتها ذهب، وعشرين بغلة مسرجة ملجمة، وخمسين خادماً، منها عشرة صقالبة، وتاجاً مرصعاً، وشاشية مرصعة، وأسفاطاً كثيرة من الطيب، وبستاناً من الفضة مزروعاً من أنواع الشجير»[٢٤]. ولم تأخذ ست الملك في النفور من أخيها وكرهه ـ من غير أن يفقدها هذا الشعور المرير عقلها ورزانتها ـ إلا بعد أن أيقنت من نزوعاته الطغيانية المتأصلة، وغرائزه الدموية الفياضة. فأمست تتلوع كمداً وحسرة وهي تراه يغالي في الفتك من غير حق بالأنفس التي حرم الله، ويعبث بالإرث الفاطمي الروحي، وينسفه بهواجسه وأفعاله المظلمة، معرضاً حياة الدولة كلها للتلف والاندحار.

*

جمال ست الملك: سبحان الله! لم يكن توالي الهموم عليه يزيده إلا هيبة ووقاراً. فلا اشتعال بعض الشعرات في رأسها

شيباً قلل من أعداد المولهين بحبها، ولا التجاعيد الزاحفة على وجهها أطفأت نور البشر في ابتسامتها وعينيها. أما عقلها، سبحان الله! فقد كان يتحنك بالتجارب ويتعاظم أمام تكاثف ظلمات الحاكم أخيها واشتداد المحن والأزمة. وفي انتظار أن تتهيأ أسباب الفرج بعد الغمة، كانت ست الملك تغالب ليالي الأرق بالصلوات والدعوات وبالانقطاع إلى التفكير والتهيب. ويتخلل كل هذا بين الفينة والأخرى فورات مناجاة تهمس بها في السر على ضوء الطمع في النصر والانعتاق، فكانت تقول:

يا شيعةَ الشهداءِ عبرَ تواريخِ المحنِ:
وجهُ سيدِ الأحزانِ في بؤرةِ الوحلِ،
ونساءُ أمتهِ محبوسات، يشتكين من القهرِ في البيوتات،
ويأتي الحيفُ عليهنَّ بالكَرْبِ والذبولِ، ويأتيهنَّ بالمللِ.
يا سيدَ الشهادةِ والأحزان:
لو عرفتَ احتراقَ البساتينِ من الأسى.
وانهدامَ الوجوهِ بينَ الجدران!

وكانت تقول:

يوم صحوتُ على أصقاعِ الذعرِ ومجزرةِ الإنسان،
لم يبقَ يا عليّ في امبراطورية العَدوان،
لم يبقَ إلا وجهُكَ شعلةَ جنةٍ وخريطةَ عدلٍ،
لم يبقَ إلا الجهادُ وأنتَ،
وأقوالٌ عن الخلاصِ من الدخانِ أرويها عنكَ، بدونِ إسنادٍ،
يا متني ويا سندي.

وكانت تقول:

خلاصةُ عهدِك يا بن أبي مقبرةٌ شاسعةُ الرحاب:

الخصاصةُ وضيقُ الحال،
والقتلُ يا مولايَ والارهاب.
هل أتاكَ حديثُ الرعبِ والمصادرات؟
هل أتاك حديثُ الحصارات؟
مولايَ الحاكمِ بالبغيِ : آهٍ ثم آهٍ ثم آه!
شعبُ مصرَ والمغربِ والشامات
لا بدَّ يوماً أن يحتلَّ الشوارعَ والسطوحَ في أرض الله،
ويشرِّعَ باسمِ العدلِ والتوحيد،
ويحطم ـ باسم الله ـ أوثانكَ، يا مولاي.

*

هكذا تولد لدى ست الملك عزم عارم على طلب الانقاذ والخلاص، مدفوعة في ذلك برؤى منامية: كانت تظهر لها فيها فاطمة الزهراء، وهي توصيها بدولتها خيراً، وتقول بالتوصية إلى أن يطل الفجر بسدوله الذهبية، فتغيب في الأفق المشتعل بالتباشير، مخلفةً في ثناياه حزامها المقدس.

لقد تداولت على ست الملك ليالي الأرق والتخمين، وكان لا يأتيها شيء من النوم إلا ومعه طيف فاطمة الزهراء ووصاياها. بل إن فاطمة أصبحت تتجلى لها حتى في أحلام يقظتها، محفوفةً دائماً بنفس هالات القدس والبهاء، ويصحبها تارة قوس السحاب وطوراً شتى كواكب اليمن والسعادة.

في المرة الأخيرة من تجلياتها، أضافت فاطمة إلى وصاياها وصية جديدة، تحث فيها ست الملك بالذهاب إلى أخيها الطاغية قصد ترغيبه في الإقلاع عن شذوذه وأفعاله الظلامية.

بعد الإمعان ثم التحقق من حصافة الوصية وسداد مرماها، أقبلت الست على تلبيتها في صبيحة يوم مشهود، حيث

كان لها مع الحاكم بأمر الله، بعد أن اقتحمت عليه غرفته في قصره، حوار خطير ينبىء بالسوء ولا تحمد عقباه.

قال الحاكم وقلبه يغلي من الغضب:

- واحر قلباه من عقوق أخت عصية! فلا أنت يا قصية سبرتِ غوري، ولا أنا فقأتُ سرك. تحضرين بين يديَّ من غير أن أدعوك إليّ، أنت المضغوطة التي تريد الانفجار، والسم الذي يتحين الفرصة. أنت العار في دولتي وجبيني. هيا يا بنت النصرانية: سرحي أسرارك السوداء، وانفجري قبل أن يهيج عليك غيظي!

وردت ست الملك، وكلها ميل إلى تمالك أعصابها وتحكيم عقلها:

- «الصمت في دولة الطواغيت عبادة»، هكذا قال مولانا الإمام جعفر الصادق، لكن كيف أصمت، وأنا من ضلوع هذه الدولة، يا بن أبي؟ وكيف لي أن أريح نفسي بحسن الظن وقلة التوهم، وأنا أعمِّر الأوقات كلها بالصبر عليك، وبانتظار ما لا يتأتى ولا يأتي. خوفي، يا أخي، ليس من موتي ولا من كونك، لا محالة، ستعصف بي. خوفي أن يكون خراب هذا البيت على يديك، وأن تعين الأعداء على حتفنا وحتف إسلامنا من حيث لا تدري.

وصرخ الحاكم مقاطعاً وشظايا السخط والحنق تتطاير من فمه:

- وأنّى لك أن تغاري على البيت، وقد رفعناه على أسس وأعمدة من صلب وحديد! أتركي ما ليس لك به علم، وحدثيني عن بيتك أنت وقد حولته إلى بيت دعارة، تدخلين إليه الرجال

والعشاق المتناوبين عليك، وتمكنينهم من فرجك المهتوك وجسمك الملعون. وقد بلغني أن شاعراً فاسقاً كنت تواصلينه بالملاطفات والتفقدات قال فيك كلاماً مطلعه: «كم تنهدت لنهدٍ أتى تائهاً بأكلهِ المتألقِ»، وغير ذلك من الفضائح. لقد كان عليّ أن أخمد أنفاسك منذ أعصرتِ وقنّب صدرك الفاجر وماتت فيك الفتاة الخريدة الخروعة الطيعة!

قالت الست والدمع يملأ عينيها، رغماً عنها، والله رغماً عنها:

ـ ويحك يا بن أبي! إن كنت تريد قتلي فلك الذرائع كلها، أما أن تدنس شرفي فلا وألف لا.

وردّ الحاكم وملامحه ونبرات صوته لا زالت تستشيط غيظاً:

ـ عبثاً تسكبين كل هذا الدمع عليّ! لم يعد لي معك كبد لتقطعيه، أو قلب لتستميليه. وحق فاطمة الطاهرة الشريفة، لأبعثن إليك غداً بالقوابل لاختبار بكارتك والتنقيب في بطنك المحروث عن أجنة الزنى والحرام، فإن أكّدن ما يأتيني به الجواسيس والعجائز، كان هلاكك من صنعي بلا تردد ولا رحمة. والآن اغربي عن ناظري، قبل أن يسبقني غضبي إلى سيفي، وسيفي إلى عنقك.

غادرت ست الملك القصر الحاكمي قاصدة قصرها الصغير، وقد تيقنت بما لا يقبل الريب أو الحجاج أن أخاها ميؤوس منه، وأن لا مطمع في فطمه عن الشر ولا إصلاح لما جبل عليه من طغيان وجبروت. وقد أتاها ليلاً صوت فاطمة الزهراء ليوافقها على ذلك اليقين ويحثها على الإسراع في تدبير أنجع

سبيل لاستئصال الـداء من جذره، قبـل فوات الأوان وحلـول الهلاك.

*

لما طلع فجر الغد ولاح، كانت ست الملك قد أعدت للتخلص من أخيهـا خطة محكمـة العرى والـوسائـل، فـاختـارت رأس رمحها في شخص سيف الدولة الحسين بن دواس، زعيم قبيلة كتامة التي عانت الويلات وأصابتها الخسارات في عهد الحاكم بأمر الله. فما كان منها إلا أن قصـدت بيته ليـلاً، متنكرة ولا يصحبها أحد؛ وعندما ظهرت أمام ابن دواس وخلعت لثـامها، سجد لها وقبّل الأرض بين رجليهـا مرات حتى أمسكت كتفـه وأمـرته بـالنهوض، ففعـل. قال وقلبـه يكاد يطـير من الفـرح والدهشة:

ـ أكُـلُّ هذا الأريـج لي! إني والله سـأقضي مدة أنـام على ذكـرى هذه الـزيارة الميمـونة، مـرتاحـاً، مطمئن الخاطـر، لا تـلاحقني فيها سيـوف الحاكم أو سمـومه. لقـد انـزاح عني الكابوس، فأنا الآن أتنفس ملء رئتيّ هواءً ما أبعد عهدي به! هواءً كلّه طيب وسلام، أنت مبعثه ومفخرته.

قالت ست الملك:

ـ لك الخيرات يا سيف دولتنا، يا سيد القبيلة التي لولاهـا ولـولا شوكتهـا وشهامتهـا لما قـامت لدولـة الفواطم قـائمة في المغرب ولا في مصر والشامات. يا أنت الـذي تُلخّص فيك إبـاء قـومك وعـزتهم، وأرى في سلهامـك الـذي ارتـاد البحـار ولثم الأمواج شراعاً خفاقاً لسفينتنا المبحرة ضد العدى والفجار. يا حسـين، يـا أنت اليـوم! يـا أنت الـذي ضيعت مجـاذيفـك مستنقـعـات الحـاكم السفـاك، فصرت لا تـروم إلا التملص

والفكاك! كذا الحق زهاق! فإلى متى وأنت تشهد مذعوراً سيل الدماء المهدورة والرؤوس المضروبة من غير علة ولا استحقاق؟ وإلى متى وسلاحك يا سيف الدولة يرقد في غمده ويبلى ويتقعر؟

قال ابن دواس:

ـ كلماتك، يا مولاتي، من ماء الزهر وشذا العنبر، تنسج لي رداء الهمة والدفء وللدولة رداء. فكأني بغيث الخلاص قريب النزول، وكأني بفمي يعب منه قطرات الرحمة والشفاء!

قالت ست الملك:

ـ صدقت يا حسين وصدقت رؤياك، إن للغيث موعداً وشيكاً يروي عنده فروج أرضنا العطشاء، ويزيل عن نفوسنا الهم العضال، ويصيّر الماء في نيلنا رقراقاً معطاء. ولا سبيل للتعجيل بالموعد والانهتاك.

سقط ابن دواس على الأرض مقبّلاً رجل ست الملك، متعلقاً بأذيالها وطالباً منها إعفاءه من هذا الأمر الوعر، وقال مرتعداً:

ـ الخطب يا مولاتي عظيم.. وخوفي من العجز والرسوب أعظم! والحاكم، من كثرة ما طغى وأزهق الأرواح، قد لا يجد اليوم من يقدر على مبادرته بضربة قاتلة، ولو من بعيد بالنبال أو بحجر المنجنيقات وكور المدافع.

ردت ست الملك وقد انكبت على محاورها وسيجت رأسه بأذيالها:

ـ ويحك يا سيف الدولة! هل تظن أني لم أضرب حساباً لمخاوفك؟ إني لا أريد ليديك أن تتلطخا بدم الحاكم، ولا حتى أن تحضر بمكان سفكه. كل ما أنت مأمور به: أن تنتقي من

بين عبيدك عبدين لا يعرفان وجه الحاكم، وتثق بطاعتهما وبإقدامهما وشراستهما. وعليك أن تنجح في إيهامهما أن ثائراً على سيدهما الخليفة يريد به سوءاً سينتظره ليلة غد في شعب جبل المقطم، راكباً مثله حماراً أشهبَ ومتنكراً بزيه وعاداته. وعِدهما بالأموال والاقطاعات الكثيرة والمناصب الرفيعة إذْ هما أتيا برأس الثائر وأمعائه في كيس ودفنا في جوف الأرض جثته وجثة حماره وجثث من في صحبته. وما إن يتوفقا في المهمة حتى تقدم على إحراقهما، فلا يبقى السر قائماً إلا بيني وبينك. ولك ما دمت حافظاً إياه في صدرك أن ترى نفسك تنعم بالخيرات جميعها، وأنت تدير دفة الحكم ومقاليده في ظل خليفة الحاكم الذي سأعينه، وأما أنا، فإني لن أكون غير ما كنت: امرأة من وراء حجاب.

لم تترك ست الملك لمحاورها في مجال التخوف والاعتراض مخرجاً، بل لقد أخذ يثني على ذكائها النوراني وتنزه خطتها عن كل عيب وكل زلل. ولما أيقنت من كونه فهم الأمر وأدرك وجوهه برمتها، وضعت على أذنه قبلة، وأخرجت من كمها سكينين ماضيين وسلمتهما إياه قائلة:

ـ إنهما من صنع مغربي، وإن ثقتي بقوتهما في الفعل والحسم لكبيرة...

ـ وأخيراً استوت على قدميها، وانصرفت وابن دواس يشيعها الى الباب مردداً آيات السمع والطاعة، وواعداً إياها بالكيس في ليل غد عند زواله وظهور أول الأشعة.

*

في هذه الليلة التي دبرت فيها ست الملك خطة مؤامرتها وأوكلت إلى سيف الدولة مهمة تنفيذها، كان الحاكم قد ركب

إلى بركة الجب في شمال شرق القاهرة، وسأل هناك عن آخر قافلة الحجيج التي ودعها منذ شهور ولم يعد أصحابها، فقيل له: إنهم طلبوا اللجوء إلى الكعبة وظلوا معتصمين بها: وسأل عن الهدايا وحقوق الزيارة التي أرسلها معهم، فقيل له: إن لصوص القرامطة قد اعترضوا طريقهم وسرقوا كسوة الكعبة والقمح والدقيق والزيت، وحتى الشمع والطيب. وضرب الحاكم على فخذه، وقال:

ـ كنت فيما مضى قد قررت منع الحج على المصريين، ثم ألغيت قراري، وأنا أعود إليه اليوم في سجل لا يقبل النسخ... ولا التخفيف.

وشعر الحاكم بضيق في روحه، فنهر العبيد والعسس ووجه ركوبه إلى بستان قصر اللؤلؤة للتريض. وما أن بلغه حتى اشتد به الضيق، وتراءت له الأشجار جنوداً تحاصره، وكأن غصونها سيوف ممدودة نحوه تبغي إثخانه طعناً وتمزيقاً، فقفل راجعاً إلى القصر، مكباً على وجهه وقاصداً اصطبل الطارمة، حيث أبى إلا أن يقضي الليلة بمعية حماره القمر، بعد أن أمر بإخلائها من الخيل والدواب. وهنا، وقد جلس في حلكة الليل بين شخير الحمار المنطرح على الأرض وروائح التبن والأبعار، صار يتكلم كأنما يهذي. وكان المسموع من كلامه كلمات ملغزة بهيمة، يكتنفها الكثير من الغموض والإشكال.

مع طلوع الصباح، والحاكم لما يزل معتصماً بالطارمة، دخل عليه حرسه وطلبوا منه أن يأمرهم بحمله إلى فراشه، فقبل إعطاء الأمر. وعلى فراشه استمر في المناجاة والهذيان المصحوبين بالرعدة إلى أن أخذه نوم ساحق مرتج. ولما

استفاق كان ليله الأخير قد شرع في الحلول، وفيه نهض ونادى على المنجمين، فقيل له إنه قد نفى معظمهم وقتل أمهرهم، ولم يبق في البلاد إلا منجم أعمى تائه في بيداء جنونه ولا يعرف له مكان، فرفع الحاكم رأسه ونظر من ترعة إلى النجوم وقال: «ظهرت يا أيها النجم المشؤوم!».

بعد مدة من التفكير والنظر في السماء، قصد الحاكم أمه السيدة العزيزية، فقبّل رأسها ويديها، وحدثها عن نجمه المنحوس، فبكت الأم بكاءً حاراً، وهي تطلب من ابنها ألا يركب الليلة أو يقصد جب الصحراء في جبل المقطّم، كما هي عادته في كل ليلة. ورد عليها في خشوع وارتعاش:

– «عليّ في هذه الليلة وفي مطلع غد قطع عظيم، وكأني بك يا أماه قد انتهكت وهلكت على يد أختي، فإني ما أخاف عليك أضر منها، فتسلمي هذا المفتاح، فهو لهذه الخزانة، وفيها صناديق تشتمل على ثلاثمائة ألف «دينار» خذيها وحوليها إلى قصرك تكن لك ذخيرة»[٢٥]. إني أراك تقبلين الأرض وتتضرعين إليّ أن أحجم عن ركوبي الليلة، لكن نفسي ضائقة تنازعني: فإما أن أركب الليلة وأتفرج، وإلا فاضت روحي وبادت. فوداعاً، وإنا لله على كل حال وإنا إليه راجعون.

لما لم يبق من الليل إلا ثلثه، خرج الحاكم من قصره، وكأن قوة غيبية تجذبه، فامتطى حماره، وقصد المقطم بعد أن أمر حرسه بالعدول عن اصطحابه، إلا من صبي كان يحمل له معه دواة وريشة واوراقاً. وكانت ست الملك تراقب من نافذة قصرها كل أفعاله وحركاته. وما أن وصل إلى قمة الهضاب وتوغل في شعبها حتى صاح مكرراً: «لا بد لكم من موتي، لا بد لكم من

مـوتي»، ثم أفـاق وصـوتـه يميـل تـارة إلى العلـو وطـوراً إلى التراخي:

– هذه الليلة ليست كمثيلاتها. إنها العمق اللامتناهي الذي يجذبني إليه عبر جماله الطافح! ومتملياً نجوم سماء هذا الليل وكواكبه، أراني مشتـاقاً متحنـنـاً إلى علتي وإلى الكل الـذي لا يتبعض. هي العين التي لا تنام قد أخذت تستهويني وتدعوني إلى ذخائر الخلد وخيرات ما بعد الموت.

كم أسترخص انقراض جسمي وفناء خلاياي، في هذا الليل الذي لم يلوثه انتباهكم ومساعيكم!

كم أستصغـر أرضي بما رحُبت، قبـالة هـذا الفضاء المعتم المرصّع باللآلىء المضيئة!

لو أن روحي الآن طارت وفـارقت محطات الفسـاد، لتمتزج بالعناصر، إذن لهان موتي وطاب.

لكن ما يؤرقني ويدْمي كبريائي هو أن أَقْضِيَ نحبي مغدوراً بأسلحةِ الرعاع، مشقوقَ الجوفِ مفصولَ الذراع.

وهذا نجمي المشؤوم يريني أن نهايتي ستكون بتدبير امرأة هي من أقرب النساء إليّ، وبسكـين مغربي... ولهـذهِ المرأةِ أن تأمرَ بقتلي، وأن تقتلَ قاتلي وكل من أدركه سرّ قتلي.

فيا ويلَ قائدِ كتامة منها! يا ويلَ كلِّ متآمر ضدي!

*

كان مقتل الحاكم بأمـر الله في ليلـة السابـع والعشرين من شوال سنة إحدى عشرة وأربعمائة، وكان عمـره ستاً وثـلاثين سنـةٍ وسبعة أشهـر، وولايتـه خمسـاً وعشرين سنـة وشهـراً واحداً، ولو لم ينس القاتلون دفن جثـة الحمار المعـرقب لكانت

خطة ست الملك قد نجحت بالتمام. ولَمّا كثرت بين القواد وفي البلاد الأسئلة والروايات. وبالرغم من ذلك الخطأ المادي، فقد عرفت الست كيف تردّ صعود العاصفة وكل السائلين بقول هادىء يسير:

ـ لقد أخبرني الحاكم أنه سيغيب مدة، وما تعلمون إلا الخير. أما القمر ـ وتقصد به اسم حمار الحاكم ـ فإما أنه مات من شدة التحمل والارهاق، وإما أن الحاكم قد قتله بنفسه، كما هدد بذلك مراراً.

طيلة الأسبوع الأول من اختفاء الحاكم، كانت ست الملك قد دخلت في سباق حاد ضد الوقت، إذ تبدى لها زمن الانتظار وفراغ كرسي الحكم كالسيف، إن لم تقطعه قطعها؛ فما كان منها، لربح رهانها، إلا أن بادرت إلى استحلاف الجنود من مغاربة وأتراك وتوزيع الأموال والهبات عليهم وإقطاع قوادهم وأكابرهم. ولتوسيع دائرة تحركها لم تجد بداً من اطلاع كبير الوزراء خطير الملك على سر مقتل الحاكم، آخذة منه على الولاء والكتمان ميثاقاً غليظاً، وأمرته بإحضار ولي العهد عبدالرحيم ابن إلياس من الشام والتكفل بارغامه على الانتحار، لأنها تأبى أن تنتقل الخلافة إلى أبناء عم الحاكم. فكان ذلك ما فعله خطير الملك بعد مدة، وتقول رواية زبانيته: حملنا إلى ولي العهد في زنزانته فواكه مسمومة، من تين ولوز ورمان، وقلنا له: هذا نصيبك من غلة هذا الفصل تهديك إياه مولاتنا، فكله هنيئاً مريئاً. وأخذ منا سكيناً وأدخله في بطنه حتى غاب، ثم التهم الفواكه التهاماً وهو يحتضر ويقول: تباً للحاكم ولعرشه! إني ذاهب إلى ربي بأسئلة مؤرقة لا تنتهي.

أما حين انطلقت الألسنة بين عامة الناس، وحتى في

صفوف القضاة والعدول، بغريب الأقاويل والإشاعات المغرضة في حق ست الملك، فإنها سارعت إلى استدعاء وفد عن هؤلاء، وقالت فيهم بلهجة حادة:

– ويحكم... ألنتم ثقات هذه الدولة أو سفلتها؟ هل أنتم في ردة عن الإيمان بالغيبة والستر والباطن، وبدعائم دعوة الفواطم؟ هل أعدكم منذ الآن من الحشوية والمقصرة وأهل الظاهر، الذين أفتى فقهاؤنا وائمتنا: أن لا معاد لهم، وأن عند موتهم لا تفارق أنفسهم أجسادهم، بل تبقى معاقبة فيها بفيض متصل من العذاب؟ ارجعوا عن غيكم، وارفعوا عني شبهاتكم، وتطهروا بماء الفضيلة وحفظ الأعراض، وإلا فانتظروا لعنة الله وعقاب امرأة من وراء حجاب.

عند تظاهر ست الملك بكل هذا الغضب والطهر، تهامس العدول والقضاة ببراءتها، وولّوا خانعين، طالبين منها العفو والأمان، فعفت عنهم وآمنتهم من خوف.

بمجرد ما انتهت هذه الزوبعة الأولى والأخيرة، شعرت ست الملك أن وجه السلطة بدأ يخلو لها. فاغتنمتها فرصةً يومَ عيد النحر لتنصيب مرشحها على العرش ووضع التاج على رأسه، وهو الصبي أبو الحسن علي بن الحاكم الملقب من طرفها: الظاهر لإعزاز دين الله واستدعت إليها ابن دواس وخاطبته رأساً لرأس:

– أنا كما عهدتني وعاهدتك، فكن كما عهدتك وعاهدتني. صدور الأحرار قبور الأسرار، فاذكر هذا ولا تنس. أما هذا الطفل فإنه أمانة أضعها في عنقك، فعليك أن تأخذ بيده وتعلمه إدارة دفة الحكم وزمام الأمور. والعز لدولتنا والبقاء!

كان ابن دواس، وهو يسمع هذا الكلام، ينحني ويقبل

الأرض ويعلن إخلاصه. وما أن أذنت له بالذهاب حتى نادت على خدلير الملك وخاطبته بما خاطبت به ابن دواس، ثم أضافت آمرة:

ـ عليك أن تعد للخليفة الجديد مركباً فخماً بهياً، فتخرج به على العبيد، وتخبر الرعية بأن مولاتك وسيدة الكل تقول لهم: هذا مولاكم وراعيكم فبايعوه على الوفاء والطاعة.

كان لستّ الكل ما أرادت، وذهب خطير الملك في تنفيذ أمرها مذهب الداهية البارع. وباستثناء غلام واحد أزهقت روحه لانه رفض البيعة الجديدة وقال برجعة الحاكم القريبة، فقد قضى عبيد القصر يومهم وهم يقبلون الأرض ويمرغون خدودهم على العتبات، ويتنافسون في إظهار علامات التطوع والامتثال. وأتى الناس أفواجاً من كل فج وكل حرفة لإعلان بيعتهم والتعبير عن فرحتهم.

بعيد مراسيم تنصيب الظاهر لاعزاز دين الله بقليل، وما صاحبها من أفراح وحفلات، أعلنت ست الملك حداداً على اختفاء الحاكم لمدة ثلاثة ايام. ومع انصرام هذه المدة، ظهر وكأن كل شيء سار على ما يرام، وأن الأمور عادت إلى نصابها والمياه إلى مجاريها والسيوف إلى أغمادها والألسنة إلى سكونها... إلا أن انهواء داخل القصر الكبير العامر ما لبث أن أتى بأخبار قبيحة وهمسات سليطة، باطنها تحريض ومفادها شكوك حول براءة ست الملك من دم الحاكم المراق. وقد قوى هذه الشكوك ما عرف عن فريق من الاخصائيين والخبراء في الشم والتنقيب أنهم، بعد اختفاء الحاكم بثلاثة أيام فقط، أقدموا على تفتيش جبل المقطم من أسفله إلى أعلاه، فعثروا قرب البركة التي بشرق حلوان أو بدير البغل على ثياب الحاكم،

وهي سبع جبات مزررة، ملطخة كلها بالدم. إلا أن ذلك الفريق لم يطلع الناس على اكتشافه، خوفاً من ست الملك وتقرباً إلى خليفة الوقت، وذلك إلى أن افتضح أمرهم وشاع خبرهم.

خندقت ست الملك على نفسها في غرفة نومها مدة يوم، تُعمل فكرها في تدبر الأمر وإعداد حله. وعند اقتراب الشمس من المغيب، طلعت في صدرها وعقلها أنوار قناعة لم تجد حيلة لدفعها وردعها. وفحوى هذه القناعة ومؤداها: أن من الأسرار الخطيرة ما لا يتسع له أكثر من صدر، وأن إرجاعها إلى سريرة واحدة ودفنها فيها يقتضي بالضرورة إتلاف السرائر التي تشترك في حملها. وبصريح اللفظ، رأت ست الملك أن سر قتل الحاكم، لكي يعود إلى قبر صدرها وتنعدم أسباب سريانه وشيوعه، لا بد من قتله بقتل حملته والمطلعين عليه. وتبدى لها أن هذا الفعل لن يخلي ساحتها ويطهر يدها من دم الحاكم فحسب، وإنما سيحقق أيضاً أهدافاً لا بد لاستتباب قواعد الدولة منها: أولها أن ذلك الفعل سيحررها من تنافسات ابن دواس وخطير الملك في النزوع إلى التعاظم والتجبر، مقابل الاحتفاظ بالسر؛ وثانيها أنه سيضع حداً لخرافة الغيبة والخفاء، التي قال بها آخر الدعاة في حق الحاكم، وسار بها في الأصقاع لدى سذج القوم وبين المتربصين بالدولة؛ وثالثها أن نفس الفعل سينهي قصة كل مجنون يدعي ـ قبل أن يقتل نفسه ـ أنه قاتل الحاكم، أو قصة كل متنكر يتشبه بالحاكم، ويظهر على الناس بصورته وبطلب الالتفاف حوله من أجل استعادة كرسيه وسلطته.

هكذا بادرت ست الملك إلى استدعاء نسيم الصقلي صاحب الستر، وقالت له بعد أن نهته عن الإفراط في تقبيل الأرض بين يديها:

- انهض يا نسيم وحدثني عن السر.

أجاب صاحب الستر وكله خشوع:

- السرّ يا سيدتي، في عرفي وحرفتي، حلقة مدفونة أو عقدة محجوبة، وقد تتسع لها عيناي ولا ينطق بها لساني. والسر ما لا أقوى على فهمه أو أطلب فهمه. والسر، يا سيدتي، أسٌ ثمين ولبّ مخصوص، فإذا ذاع ضاع، وإذا ضاق صدر حامله، فصدر غير الحامل أضيقُ. والسر في السياسة مفتاح السيادة، وفي الحرب من أسباب المباغتة والسحق. والسر، يا سيدتي، أعلاه وأقواه ما يحمله الانسان من الصدر إلى القبر. هذا بعضٌ يسيرٌ مما قاله شيوخنا وأكابرنا في علم السر وسر الأسرار.

قالت ست الملك وقد استحسنت هذه الإجابات:

- والآن يا نسيم، أنت تعلم مكانتك عندي، وهي نفسها التي كانت لك عند المرحوم أخي، بل هي أرفع وأعلى... إنك ولا شك قد أتاك كلام كثير في موضوع موت الحاكم، وأريد اليوم أن أضع له حداً، بإظهار ما انتهت إليه أبحاثي وتحرياتي في شأن أكابر الدولة الذين كانوا دوماً يحلمون بحتف أخي. فاخرج وقف في حضرة ابن دواس وقل للعبيد: مولاتنا اكتشفت وتيقنت أن سيف الدولة هذا هو قاتل مولانا الحاكم فاقتلوه، ثم قل نفس الكلام في حق الوزير خطير الملك واطلب رقبته ورقبة كل من له صلة وثيقة بهذا وذاك. وبعد انتهاء مأموريتك عد إليّ لتخبرني بما فعلت.

فتش نسيم ورهطه عن ابن دواس في منزله فلم يجدوه، فقصدوا حارة الكتاميين فألفوه يتفقد أحوال بني عصبيته ويوصي بعضهم ببعض خيراً. قال له صاحب الستر بأن مولاته

تطلب حضـوره فوراً لأمـر مستعجـل، ولمـا اقتيـد بعيـداً عن الحارة، قال نسيم بما أوصته بـه ست الملك، فشهـر الزبـانية سيـوفهم في وجه ابن دواس، الـذي أخـذ يـدافـع عن نفسـه بسلاحه ويستنجد عبثاً بقبيلتـه وما هي إلا دقـائق حتى انهار مثخناً بالطعنات بعد أن قتل عبدين، وهمس وهو يحتضر:

ـ هـربت من جحيم الحاكم فسقطت في فـخ أختـه فـاليـة الأفاعي. سحقاً لدولة الأسرار والفجائع!

أما خطير الملك فقد كان وقتذاك في بيتـه يقص على زوجتـه رؤيـا كابـوسية، تـلازمه كلمـا استبد بـه النوم، ومفـادها أن الحاكم يظهر له تارة شبحاً مريعاً يخيره بين إفشاء سر مصرعه أو التعـرض للشؤم والانتقام، وتـارة أخرى في صـورة امـرأة شـامخة تقبض عـلى عنقـه بـأيـديهـا المتعـددة وتتلهى بخنق أنفاسه... ولا تجد زوجته حيلة لدفع أحزانه وهواجسـه إلا في الخمرة التي غدت تسقيه بها أكواباً تباعاً، وتعبّ هي منها من حين لآخر. وحين بلغ بهمـا السكر منتهـاه، قامت وجـردته من كل ثيابه، وأخذت تتعرى أمامه متباطئـة متمايحـة، وفي عينيها وحـركـاتهـا كـل آيـات الميـوعـة والاغـراء، ثم انقضّت عليـه فاستقبلها فوق جسده الضخم بمبادلتها القبلة قبلتين والضمة ضمتين والاحتواء احتواءين، حتى صارا كـأنهما جسم واحـد وكيان لا انشقاق فيه ولا اختلاف. وبينمـا هما يئنـان من فرط الشهـوة والفرحـة وعلى قـاب قـوسـين من اللـذة العظمى، إذ اقتحم عليهما الغرفة نسيم وزبانيته، فانهـالوا عليهمـا بالطعن كالصاعقة المبيدة، ومزقوهما تمزيقاً.

*

في الهزيع الأول من هـذا اليوم الـدامي، رجع نسيم لاهثـاً

إلى حضرة ست الملك، وبمعيته العبيد الأشداء يحملون أكياساً عامرة مختومة ملطخة بالدماء. قال بعد الانحناء:

- لك يا مولاتي ما أمرت به. هـذه الأكياس السبعـة تضم أشلاء الملعونين خطير الملك وابن دواس وخمسة من أتباعها في الغـدر، والبقية ستـأتي، فهل نعـزل الـرؤوس في كيس واحـد ونرمي بالأشلاء إلى السباع؟

صرخت ست الملك والدمع يغزو عينيها:

- لا، لن تكـون هناك بقيـة، ادفنوا هـذه الأكياس كلهـا في حفرة واحدة بظاهر المدينة، وارفعوا أيديكم عن الرقاب، ودعوا الدماء تجري في عروقها لا على حدود السلاح.

قال نسيم بلهجة لا يخفي توددُها حزمها وصرامتها:

- وولي حلب الغلام أبو شجاع فاتـك الوحيـدي، هل نـرفع عنه سيوفنا يا مولاتي، وأمره منذ عهد الحاكم المرحوم لا يزيد إلا شدة واستفحالاً؟ فلقد تلقب بعزيـز الدولـة وأمير الأمـراء وتاج الملة، وضرب باسمه السكة، ودعا لنفسه على المنـابر، ولا أدري ما هو فـاعل غـداً إن ظلت مولاتي تهـادنه وتـروم ردعه بالملاطفات والعطيات.

ردت ست الملك وقد سيطرت على انفعالها وتنبهت إلى عتاب نسيم لموقفها:

- وهـل تريـد مني أن أبعث إلى حلب بجيش جـرار يقطـع دابـرها ويمحـوها من وجـه الأرض؟ ألا تـرى أن ضرب رأس ثعبان في حديقة خير من خنقـه بتحريق الحـديقة كلهـا؟ فاعلم أني عاهدت نفسي ألا أعاقب بالقتل إلا بعد نفاذ ذخائـري من الحيـل والاستمالات. وإني مـع الغلام ولي حلب لا زلت أبحث

عن أخص حلقاته الضعيفة، لأمر منها إلى تنحيته أو إعدامه.

طأطأ نسيم رأسه وتصاغر كمن به حاجة إلى نيل الرضى والغفران، ثم تحمس قائلاً:

- خير الرأي رأي مولاتي، وتوفيقه يأتي من الله ومن تعويله على صحيح الأخبار. وأنت إن كنت تطلبين مكمن الضعف عند الشقي الذي شق عليك عصا الطاعة، فاسأليني عنه أنا خديمك صاحب الستر، اسأليني أخبرك الخبر اليقين، وأدلك على ما يفضحه وييسر حتفه. فأقول يا سيدتي، ولا حياء في شؤون الدين والدولة، إن الغلام ولي حلب من أولاد القحاب. معروف في أوساط الخبراء والبصاصين بنفوره المتأصل من النساء، وشذوذ ميوله الجماعية، فلا زوجة له ولا محبوبة، ولا وله ولا عشق إلا في صبي هندي يسميه الولد المخلد، لا ينام إلا معه ولا يرقد له جفن إلا بغمزة منه، ولا يطلب من الباري عز وعلا سوى أن يحشره معه يوم تحشر الأجسام وتلتف الساق بالساق. هذا الصبي، يا مولاتي، هبة لنا من الله وفرصتنا الثمينة، فلنحوله إلى أداة طيعة بين أيدينا، نفتك بها عدو دولتك التليدة. وما أن نؤلب قلبه على سيده بالكيفيات المخصوصة، ونقوي ساعده على عمل حمل سيف الثأر حتى ندفعه إلى فلق رأس الخارج عليك، ونأمر بقتل الصبي، والبقية من تدبير مولاتي وملهمة فكري وأنشطتي.

لم تنبس ست الملك بكلمة، وإنما أومأت بإشارات الموافقة والقبول، ثم هرولت نحو غرفتها، تتبعها كلمات وفاء نسيم وطاعته. وعلى فراشها انطرحت، وبكت بكاءً حاراً، وتألمت لما

هي مضطرة إلى فعله في باب التصفيات الجسدية، رغماً عنها، والله رغماً عنها!

قضّت ست الملك أياماً قليلة تتنفس الصعداء، ويتلقى جسمها من جاريات القصر المرضات خدمات الغسل والدلك والتجميل. وكانت طوال هذه الايام تلتذ بهذه الخدمات وتطلب منها المزيد، والجاريات يتسابقن إليها ويتبارين في إنعاش وتمتيع كل عضو وكل شبر من جسدها المبارك.

الحق أن ست الملك كانت خلال هذه الأيام كأنما هي تولد من جديد، متحللة من مواسم الدم والفجيعة، ومستبشرة خيراً بعلامات الوصول إلى شاطىء السلامة. فصارت تشرف على تدبير شؤون الدولة بنفسها، والخليفة الظاهر يتعلم في ظلها كيف يرقى إلى مستوى المسؤولية والقرار، وكيف يناقض سياسة أبيه المظلمة المتناقضة. وما هي إلا مدة حتى أعادت السلطانة ترتيب البيت الفاطمي ودواوينه وأمدته بأسباب الأمان والبقاء، بدءاً بتطهير واسع النطاق لديوان المال، الذي كان أيام الحاكم يرزح تحت نير إسرافه في المنح والاقطاع، وفي شتى أنواع الرواتب المزيفة اللامشروعة. وصاحب هذا إرجاع الجبايات والمكوس إلى النصاب المستحق وإلى وسط بين الافراط والتفريط، فعادت بوادر الصحة إلى بيت المال وطلائع الهدنة والوفاق بين الموارد والنفقات. وبموازاة مع هذه الاصلاحات المالية المستعجلة، أقدمت ست الملك على دفع الخليفة الظاهر إلى إبطال ونسخ كل السجلات الحاكمية في المنع والتحريم، وفي التنكيل بالذميين وأهل الكتاب. وما أن تُليت متون هذه السجلات الجديدة على مسامع شعب مصر حتى عادت الطمأنينة إلى كل القلوب وروحُ التسامح والتساكن إلى جميع الملل والشيع والمذاهب.

لم يصدق الأهالي عودة الحياة إلى ربوعهم حتى شرعوا بالفعل في ممارسة حقوقها وامتطاء أجنحتها، فخرجوا إلى الحارات والشوارع والأزقة، نساءً ورجالاً، من كل الأصناف والأعمار، يهللون ويكبرون، ويدعون للخليفة ولعمته بالفوز والنصر والتمكين، وعلى أعدائهما بالخيبة والنكوص والسحق المبين. وكانوا يشكلون المواكب ويتنافسون في التراشق بالورود وشتى النباتات الزكية، ويتجاهرون بالكلمات الطيبات في حق بعضهم بعضاً، وذلك تعبيراً عن فرحة عارمة ونعيم ما بعده إلا نعيم الجنة.

لقد ازداد شعب مصر إيماناً بزوال الدخان الحاكمي وانجلاء ظلام ليله المديد، حيث صارت النساء يخرجن في العشيات للتجول على ضفاف النيل، وعادت الملاهي إلى فتح أبوابها، وصار اقتناء النبيذ وشربه في حكم المباح. وأما الأعياد فقد شُرعت جميعها لكل المصريين، وعادت إليهم ببهاء أكبر ورونق لا يُضاهى. عادت إليهم بأسمطة الطعام والشراب، كل سماط طوله ميل أو أكثر، يعج بالخرفان المشوية، وصحون الدجاج والفراريج والطيور وفراخ الحمام، وأطباق الأجبان والحلويات، وغيرها. وكان الوافدون، وهم من طبقات كل الشعب، يأكلون ما يقدرون عليه، ويحملون معهم ما يتبقى. ولم تعد هذه الأسمطة مقصورة على عيدي الفطر والنحر، بل شملت أيضاً مواسم الفاطميين التقليدية، كموسم ليلة فتح الخليج أو وفاء النيل وموسم ليالي الوقود الأربع، وكذلك أعيادهم المذهبية المعروفة. وحتى أعياد الأقباط كالنوروز والشهيد أو بعض أعياد النصارى، فقد حولها المصريون إلى فرص للاحتفال بالحياة ونسيان العهد الحاكمي.

في ظلمات عهد الحاكم كانت المشاعل لا توقد ليلاً في المدينة إلا برغبة وأمر من الطاغية، أما اليوم فإنها تعم الأرجاء البرية والمائية بوحي من فوران الأفراح والمسرات في صفوف الأهالي، وبالأخص منهم أشقياء العهد البائد. ولا أدل على عودة الروح إليهم من رفع قوانين الاعتقال المنزلي والاقامة الاجبارية عن النساء، ومن انتعاش حماماتهم وتكاثر الأساكفة والخياطين والمجملين في خدمتهن. فما أسعد العين بما صارت تشاهد معهن! فلول من الفتيات الفاتنات تحفل بهن زوارق النيل وشطوطه، ويزركشن ويعطرن كل فضاء تشرف بجولاتهن أو تبرجهن. وما أسعد الفتى الأعزب المحروم بما أمسى يراه وينعم به كل عشية وفي ليالي المواسم والأعياد! هذه ثلة من الحسناوات يمررن به نشطات خفيفات، يمضغن العلك ويتجاذبن أطراف الحديث؛ وهذه ثلة أخرى منهن يتجمعن حول مشعل أو بركة مضاءة، يغنين وينشدن الأشعار؛ وهذه ثلة أخرى منهن يجدِّفن في قارب على وقع عازفة بالناي، وشعورهن أشرعة خفاقة، وصدورهن مفتوحة للثم الأمواج...

أمام كل هذا الجمال الطافح، كان الفتى، وكل مشاهد مهما كان عمره، وكل ذواق خبير لا يملكون إلا أن يتنهدوا ويطلقوا آهات الإعجاب والانبهار، التي لا توازيها إلا آهات الحسرة والمرارة على إقبار كل هذا الجنس اللطيف والكنز المكنون بين الجدران أيام عهد الحاكم الغاشم.

*

خارج قيود القمع والمنع وسنن القتل والاضطهاد، وبعيداً بعيداً عنها، للعيش لون يروق وطعم يطيب ورائحة تنعش وتريح. لهذا العيش أن يلبي دعوة المحب إذا أحب والقائل

بالخير إذا قال والساعي بالجمال إذا سعى. وقد كان لستّ الملك أن تعرف نصيبها من هذا العيش وتتلقى شحناته نعيماً وسلاماً، لولا انبعاث بقية من دخان الحاكم، تمثلت في آخر كبار دعاته الدرزي، الذي - بخلاف حمزة والأخرم - لم يمت بعد ولم يقتل، بل ظل في جبل الشام يدعو إلى ألوهية الحاكم، ويقول بحلول الروح المقدس فيه من آدم وعبر علي بن أبي طالب، ويُعمل كل بلاغته وفصاحته لإقناع كافة القوم باقتراب رجوع الحاكم بعد اختفائه، ليملأ الأرض عدلاً كما ملئت ظلماً. ولقد كانت ست الملك تعوذ بالله مرتجفة مستنكرة كلما سمعت ما ينقل لها عن الدرزي من أنه يصدر الفتاوى في أتباعه بفاتحة هي: «باسم الحاكم الرحمن الرحيم»، وأنه يحلل المحارم ويسقط العبادات وأحكام الشريعة.

أمام هول هذا الخطر، بادرت ستّ الملك إلى تكوين خلية تفكير برئاسة الخليفة لاعزاز دين الله. وكان كل أعضاء هذه الخلية يميلون إلى مواجهة الدرزي بجيش توكل إليه مهمة سحقه وسحق كل أتباعه ومريديه. إلا أن ست الملك رأت من الأحسن والأنجع قطع دابر الداء بضرب رأس الثعبان وكسر شوكة الفتنة.

قالوا لها: وكيف لذاك أن يتأتى، يا سيدة التأمل والرأي السديد؟

قالت: «حقناً لدماء الأبرياء والأتباع الأغرار المخدوعين، سنكتفي بدس رجل بين صفوف الداعية المفتري، يكون عالماً بفنون التنكر والخداع، فيظهر له الولاء، والتعصب لدعواه، حتى إذا ما نال ثقته ورضاه تحين الفرصة المثلى للفتك به والإتيان إلينا برأسه».

بعد مضي أقل من شهر على تنويه أعضاء الخلية برأي ست الملك ورفعه إلى سدة القرار الجماعي، رجع الفارس الكتامي الذي عين لتلك المهمة برأس الدرزي وبثلاثة رؤوس أكبر المتعصبين له والمقربين إليه، فعمت الفرحة قلوب المطلعين على هذا الفوز الوافر، وكان الدعاء لست الملك بالمزيد من النصر والتمكين.

لما عرضت الرؤوس المقطوعة للمشاهدة، أخذ الخليفة الظاهر ينكتها بخيزرانه، وأعضاء الخلية يبصقون عليها، إلا ست الملك فقد أبت استقبالها أو النظر إليها، وبادرت إلى الأمر بإلحاقها بمخزن الرؤوس المغضوب عليها، قبل أن تعتصم بغرفتها ساعات تبكي لما كانت منقادة إلى فعله في حق الدرزي، رغماً عنها، والله رغماً عنها! وبكت أكثر لعجزها عن حل مفارقة معضلة عتية، تكشفت لها في صورة مخيفة: فلوقف نزيف الدم لا بد من إراقة الدم. ولم يكن يبعد عنها هذه الصورة ويطمسها إلا يقينها الفرح من أن أسباب أي فصل دموي جديد قد زالت مع استحالة انبعاث الحاكم من رماده، وأنها ستمحى أكثر يوم يتأتى عقد صلح مشرف مع امبراطور بيزنطة باسيل الثاني، يتعهد هذا الأخير بموجبه بالكف عن مساعدة أعداء الدولة الفاطمية والخارجين عليها، في مقابل عودة نصارى مصر إلى التمتع بالحقوق والحريات التي يحددها الإسلام.

*

في ذلك اليوم الأغر الذي تبخر خلاله الدخان الحاكمي عن آخره ولم تبق منه بقية، كان الربيع قد حل في أرجاء الديار الفاطمية فصلاً لم ير المصريون من قبل أروع منه ولا أبهى،

فالنيل وافر المياه، يحفل بالحياة ويعب من زرقة السماء ونصاعتها، والشمس في أوجها تسربل الأرض والخلق بدفء رحيم، والقمر يضيء كل الرحاب والسطوح ويعطي المزيد لكل المحبين، والصحراء تسهم في عرس الطبيعة هذا بريح لطيفة تتلقاها كل الأبدان ملء الصدور عبيراً دافقاً ونِساماً.

في هذا الفصل الربيعي، كانت ست الملك تشعر بنعيم عارم لا عهد لها به من قبل. فكانت تكثر من خلواتها بين أحضان حدائق قصرها، حيث الخمائل والورود والأشجار تكتسي كلها حلل الطيب والبهاء، وحيث الطيور والفراشات المتوافدة تملأ المجال بأجمل الأنغام والألوان. ومجمل هذا الدلال، كانت ست الملك، ككل الذين تعودت عيونهم على الهول والويلات، تكاد لا تصدقه أو تطيقه. فكان لا بد لها فيه من جلسات ومؤانسات متوالية، لا يعكر صفوها سياسة أو دم مسال.

وذات مساء ربيعي، والشمس لا تفصلها عن مرقدها إلا مرحلة، وبينما ست الملك في أروع موضع من حدائقها تجالس حسن الطبيعة وتناغيه، وتشتعل عيناها ويحمر محياها تأثراً وانفعالاً، وبينما هي كذلك تتلقى بشعرها وكل أطراف جسمها هبات عبير ناعم أخاذ، إذ أطبقت جفنيها واستسلمت لنوم سبحانه وسبحان صانعه! وما إن غرقت في نومها واستبدت بعمقه حتى رأت فيه نفراً من الشعراء الحفاة العراة اللاغطين بأشعارهم، كل يقرأ ما عنده وينتزع من جسمها مقابله لمسة أو قبلة... وهدأ الشعراء كلهم وتصاغروا لما ظهر فحلهم فأقحمهم ببيت واحد في هواه لست الملك، قال ويداه تسبقان كلماته إليها.

يا حبيب العمر عطفاً فإني بهواكم على لظى أتقلى

ثم اقتحم المكان فحل الفحول، فأنشد في باب الهوى:

لهواكِ بين جوانحي كتبٌ قد عُنونت بالدمع والسهَرِ

وأخيراً أتى شاعر عجيف طروب، يغني صدور مقطع، وتصحبه جوقة من المخنثين يرددون أعجازه، ويقرصون كل معارض أو متضايق:

ليس عذري في هواكم قد بدا لي قد بدا لي
إنما قصدي رضاكم قد حلا لي قد حلا لي
وإن اخترتم عذابي لا أبالي لا أبالي

ظل الشعراء يتنازلون ويتقارعون بالقصائد والكؤوس، إلى أن استووا كلهم وتعادلوا في أبراج السكر والعربدة، فتعانقوا وتبادلوا القبلات وأوسمة الفوز، ورددوا مراراً مترنحين راقصين: قد حلا لي قد حلا لي...

لم ينقطع ضوضاء الشعراء من حول ست الملك وتنافُسهم على نيلها إلا بعد أن أتى على جناح السرعة أكابر الدولة وقوادها: ابن دواس وخطير الملك والدرزي، فطردوا الشعراء شر تطريد، ثم شرعوا في تجريد ست الملك من ثيابها، عابثين بجسدها لمساً وضماً وتقبيلاً. وحين طلبوا جماعها، أراد كل منهم أن يكون له في هذا قصب السبق، فقوي اللجاج بينهم والسب والتلاعن، فاحتكموا إلى القرعة ولم يفلحوا، وإلى السيف فتنازلوا وتعاركوا، وكانت الغلبة للزعيم الكتامي الحسين بن دواس، الذي ما أن استرجع أنفاسه وهدأ لهثه وعلا تلذذه بانتصاره، حتى أخذ يتعرى ويعد العدة للهجوم على جسم ست الملك العاري واغتصابه قصاصاً منها وانتقاماً.

وإذ انقض عليها وشرع يحركها ويوطدها من تحته، وهي تستعصم وتستغيث، هرع إلى عين المكان نسيم صاحب الستر وابن مسكين صاحب الرمح وزبانية من العبيد، فأزاحوا عن سيدتهم ابن دواس وعاجلوه بطعنات قاتلة؛ ثم ما لبث العبيد أن سجدوا لها وقصدوها زاحفين، فاستلقوا عليها كتلة ماحقة، هذا يبوس أطرافها ويجتهد، وذاك يعصر نهديها ويبارك، وآخر يحتك بها احتكاكاً؛ فما كان من ابن مسكين إلا أن أعمل فيهم الرمح وأرداهم قتلى وجرحى. ولما رأى نسيم أمارات الشبق والزيغ في عيني ابن مسكين، أخذ منه الرمح وصرعه به.

لم يبق بعين هذا المكان المكتظ بالقتلى والمحتضرين إلا نسيم وست الملك، وليلٌ يودع آخر ظلماته، وصمتٌ كوني لا يعكر صفوه إلا جرحى كانوا يئنون وينزفون ويقذفون بآخر مَنِيِّهم. وفي هذه الحلقة الأخيرة من رؤيا ست الملك، وقف نسيم أمامها وتعرى قائلاً:

- حافظ كل الأسرار يا سيدتي، والفائز في كل هذه المعارك يا مولاتي، خصي، كما ترين، وعاجز عنك، كما ترين. والآن وأنا على عتبة الموت، لم أعد أقوى على إخفائك سر فنائي فيك بالعشق والحب. فأنت معبودتي وأنت حجتي ودليلي في هذه الحياة ويوم البعث. وهذا السر المتأجج بين أضلعي هو الذي كان يدفعني إلى اغتيال عشاقك تباعاً، وجعلني أخلصك من كل الذين شاركوك سر مصرع الحاكم بتدبير منك. وعليك الآن أن تقتلي سري بقتلي، وإلا أفشيتُ سرك وقتلتُ نفسي.

لم تنبس ست الملك بكلمة، لأن بطنها كان يتقرح، وقلبها يخفق بقوة، وتنفسها يتعثر، كأنما هي تعاني من سكرات الموت. وأمام إصرارها على الصمت اقترب نسيم منها، فأفرغ

في فمها قارورة سم، وتجرع هو مـا في أخرى، ثم تمـدد جنبها يرضع من ثديها، وينتظر أن يأتيهما ملك الفناء المحقّق.

*

وفي صباح اليوم السابع من الفصل الربيعي للسنة الرابعة عشرة بعد المائة الرابعة، عثر على جثمان ست الملك وهي تخلد إلى نومها الأبـدي، وتظهر كحـورية من حـور الجنة. عثـر على الست وقد اشتعل شعرها بياضاً واستقرت على وجهها تجاعيد زادت محياها جلالاً وإشراقاً.

كـانت مـراسم دفن الست في المقبـرة الخليفيـة بسيطـة متـواضعة كمـا أوصت، وسارت وراء نعشهـا جماهـير غفـيرة تنتظم كلهـا في شعور حـداد يفوق اتسـاعاً واكتسـاحاً شعـور الشيعة في سماط الحزن يوم عاشوراء. وبعـد وضع السلطـانة في مثواها الأخير، ظل المصريـون لمدة أسبـوع يمشون حفـاة، ويلبسون الثياب القاتمة، ولا يأكلون إلا خبز الشعير والعـدس الأسود والأجبان والملحات، وعطلوا تجـاراتهم وعمروا جـامع الأزهـر وكل بيـوتات اللـه بالتـراتيـل والأنـاشيـد في التـرحم والابتهال.

في سـاعات ذلـك الاسبوع المـأتمي كانت مقـابر القـاهـرة وحاراتها تعرف مرور فتى مـولهٍ، في خـده خال، أسمـر اللون، براق الثنايا. وكان يهيم على وجهه ولسان حاله يردد:

أين مني الآن الكتابُ المحروق؟
أين أبعَدَ الليلُ الحجريُّ عني فتاةَ الشروق؟

*

لم تمض على وفاة ست الكل سنة حتى كان المصريون، على

عهد الظاهر لإعزاز دين الله، منهمكين في إخراج كل مكبوتاتهم ومطاردة مخاوفهم ومضغوطاتهم، وذهبوا في هذا مذهب الغلو والانفجار، وجاروا خليفتهم في ولعه بالأكل والشرب والنزه وسماع الأغاني، ومن ذاك مثلاً:

«أنهَ كان ثالث فصح النصارى فاجتمع بقنطرة المقس من النصارى والمسلمين في الخيام المنصوبة وغيرها خلق كثير طولَ نهارهم في لهو وتهتك قبيح، واختلط الرجال بالنساء وهم يعاقرون الخمر، حتى حُملت النساء في قفاف الحمالين من شدة السكر، فكان المنكر شديداً في هذا اليوم»[٢٦].

«وفي سنة ثمان عشرة شرب الظاهر الخمر، وترخص فيه للناس وفي سماع الغناء وشرب الفقاع وأكلِ الملوخيا وسائر أصناف السمك، فأقبل الناس على اللهو»[٢٧].

«ومات الظاهر للنصف من شعبان سنة سبع وعشرين وأربعمائة عن اثنين وثلاثين سنة إلا أياماً. فكانت خلافته خمس عشرة سنة وثمانية أشهر وأياماً. وكان مشغوفاً باللهو محباً للغناء، فتأنق الناس في أيامه بمصر واتخذوا المغنيات والرقاصات، وبلغوا من ذلك مبلغاً عظيماً»[٢٨].

هوامش ومراجع

هوامش

(١) ابن تغري بردي، **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة** (القاهرة: دار الكتب المصرية، ١٩٣٣)، ج ٤، ص ١٨٦.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٩٦.

(٣) المقريزي، **اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا** (القاهرة، ١٩٧٢)، ج ٢، ص ٣٥.

(٤) بردي ، **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة** ، ص ٢٠٢. ويذكر ابن تغري بردي ان في تلك السنة: «توفي الحسين بن أحمد بن الحجاج أبو عبدالله الشاعر، كان من أولاد العمال والكتاب ببغداد، وتولى حسبة بغداد لعز الدولة بختيار بن بُوَيْه، فتشاغل بالشعر والسخف والخلاعة عما هو بصدده. قلت: وابن الحجاج هذا يضرب به المثل في السخف والمداعبة والأهاجي، وغالب شعره في الفحش والأهاجي والهزل.

(٥) ابن كثير، **البداية والنهاية في التاريخ**، ١٤ ج، (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٧)، ج ١٢، ص ١٠.

(٦) يذكره محمد عبدالله عنان، **الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية** (القاهرة، ١٩٥٩)، ص ١٢٨، نقلاً عن المخطوط الكنيسي، **سير البيعة المقدسة** (من دون ثبت الصفحة).

(٧) المقريزي، **اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا**، ص ٥٥.

(٨) مذكور بتاريخ مخطىء في «أبو زيد عبدالرحمن بن خلدون، **كتاب العبر، وديوان المبتدا والخبر، في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر** (بيروت: دار الفكر، ١٩٨١)، ج ٤، ص ٧٦.

(٩) المقريزي، المصدر نفسه، ص ٩٧.
(١٠) المصدر نفسه، ص ٧٧.
(١١) بردي، **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**، ص ٢٢٢ ـ ٢٢٣.
(١٢) المصدر نفسه، ص ٢٣٢.
(١٣) القلقشندي، **صبح الأعشى**، ١٤ ج (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٦)، ج ١٠، ص ٤٤٤ ـ ٤٤٥.
(١٤) المصدر نفسه، ص ٤٤٣، ١٢ ج.
(١٥) ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ١٢ج (بيروت: دار الكتاب العربي، [د.ت.])، ج ٧، ص ٢٣٦.
(١٦) المقريزي، **اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا**، ص ٦٤.
(١٧) المصدر نفسه، ص ٦٦.
(١٨) بردي، **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**، ص ٢١٦.
(١٩) المصدر نفسه، ص ٢١٧.
(٢٠) المصدر نفسه، ص ٢٢٩ ـ ٢٣٠.
(٢١) المقريزي، **اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا**، ص ٥٤ ـ ٥٥. والراجح ان المقريزي ينقل الخبر عن المسجي الذي لم يصلنا تاريخه.
(٢٢) الكرماني، رسالة «مباسم البشارات بالامام الحاكم بأمر الله»، منشورة في: محمد كامل حسين، **طائفة الدروز** (مصر: دار المعارف، ١٩٦٢)، ص ٥٥.
(٢٣) بردي، **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**.
(٢٤) المقريزي، **اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا**، ص ١٥.
(٢٥) بردي، المصدر نفسه، ص ١٨٧.
(٢٦) المقريزي، المصدر نفسه، ص ١٣٧.
(٢٧) المصدر نفسه، ص ١٢٩، والمقريزي، **خطط المقريزي: المواعظ والاعتبار** (بيروت: دار صادر [د.ت.])، ج١، ص ٣٥٤.
(٢٨) المقريزي، **خطط المقريزي**، ص ٣٥٥.

مواد أُخر تم التخييل على ضوئها

ابن أياس. **بدائع الزهور في وقائع الدهور**. بولاق، ١٣١١ هـ. ج ١.

ابن الجيعان. **التحفة السنية بأسماء البلاد المصرية**. القاهرة: نشر مورتز، ١٨٩٨.

ابن حوقل. **المسالك والممالك والمفاوز والمهالك**. ليدن، ١٨٧٣.

ابن خلكان. **وفيات الاعيان**، تحقيق احسان عباس. بيروت: دار صادر، [د. ت.]. ج ٥.

ابن سعيد الانطاكي، يحيى. **صلة تاريخ أوتيخا**. بيروت: نشر شيخو، ١٩٠٥.

ابن العديم. **زبدة الحلب من تاريخ حلب**. دمشق: نشر سامي الدهان، ١٩٥١ ـ ١٩٥٤. ج ١ ـ ٢.

ابن ميسر. **أخبار مصر**. القاهرة: المعهد العلمي الفرنسي، ١٩١٩.

ابن النعمان. **دعائم الاسلام**. القاهرة: دار المعارف، ١٩٦٣.

ــــ **الهمة في اتباع آداب الأئمة**. القاهرة: دار الفكر العربي، [د. ت.].

الأزدي، علي بن ظافر. **الدول المنقطعة**. نسخة بدار الكتب بالقاهرة تحت رقم ٨٩٠.

الاصفهاني، **مقاتل الطالبين**. النجف: المطبعة الحيدرية، ١٣٥٣ هـ.

البغدادي، عبداللطيف. **الافادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر**. القاهرة: مطبعة المجلة الجديدة، [د. ت.].

البكري. **المغرب في ذكر افريقية والمغرب**. الجزائر: نشر دي سلان، ١٩١١.

دائرة المعارف الاسلامية (الطبعة الجديدة). مواد: «الحاكم بأمر الله»، «الفاطميون»، «اسماعيلية»، «باطنية»، «فاطمة»، الخ.

ساويرس بن المقفع، أسقف الأشمونين. كتاب **سير الآباء البطاركة، وملحقه سير البيعة المقدسة**، خزانة باريس برقم ٦٤٣٤ ح.

سبط بن الجوزي، قزأوغلي. **مرآة الزمان في تاريخ الأعيان**. مخطوط في خزانة باريس برقم ٥٨٦٦، ج ١١.

السيوطي. **حسن المحاضرة في اخبار مصر والقاهرة**، جزءان. القاهرة، ١٣٢٦ هـ.

الشيال. **مجموعة الوثائق الفاطمية**. القاهرة، ١٩٥٨.

الصابىء، أبو هلال. **تاريخ**، المذيّل به على تاريخ ثابت بن سنان، وتوجد منه شذور في **النجوم الزاهرة وتجارب الأمم**.

الكرماني. **راحة العقل**، تحقيق مصطفى غالب. بيروت: دار الأندلس، ١٩٦٧.

الرسالة الواعظة في نفي دعوى الوهية الحاكم. نشر محمد كامل حسني، مجلة كلية الآداب، القاهرة: عدد (أيار/ مايو ١٩٥٢).

الصيرفي. **الاشارة الى من نال الوزارة**. القاهرة، ١٩٢٤.

الكندي، أبو عمر محمد بن يوسف. **الولاة والقضاة**، بيروت: جست، ١٩٠٨.

مسكويه. **تجارب الأمم**. القاهرة: نشر آمدروز، ١٩١٥ ـ ١٩١٦.

المكين بن العميد. **تاريخ المسلمين**. ليدن، ١٦٢٥.

النويري. **نهاية الإرب في فنون الأدب**. القاهرة: دار الكتب المصرية، ١٩٥٦. ج ٢٠ ـ ٢٦.

فهرس

مدخل الدخان ٧

الباب الأول: من طلعات الحاكم في الترغيب والترهيب ... ٢٧

I عن سجلات الأوامر والنواهي ٢٩

II العبد مسعود، أو آلة العقاب اللواطي ٤٩

الباب الثاني: في المجالس الحاكمية ٦٥

I الجلوس في دهن البنفسج ٦٧

II الجلوس لطلب الدهشة ٨٣

III الجلوس للإلهيات بين الدعاة ٩٧

الباب الثالث: زلزال أبي ركوة، الثائر باسم الله ١٠٩

الباب الرابع: من آيات النقض والغيث ١٩٩

I بين النكتة والانتقام: مصر تحترق ٢٠١

II السلطانة ست الكل ٢٣١

هوامش ومراجع ٢٦٥

سالم حميش

بن سالم حميش أو سالم حمّيش (اسم الشهرة) أستاذ الفلسفة في جامعة الرباط (المغرب)

حاصل على دكتوراة الدولة في التاريخ من جامعة السربون بباريس (1987).

باحث وشاعر وروائي، من أعماله الأخيرة:

- أبيات سكنتها وأخرى (دار الطليعة بيروت 1996).
- العلّامة (دار الآداب، بيروت 1997).
- في بلاد أماتنا (بالفرنسية، الرباط 1997).
- الخلدونية في ضوء فلسفة التاريخ (دار الطليعة، بيروت)
- فازت روايته مجنون الحكم بجائزة «الناقد للرواية» دار رياض الريس لندن 1990.

صدر من هذه السلسلة

1 - عيون الغرباء .... فتحى غانم

2 - السرداب رقم 2 .... يوسف الصائغ

3 - حكايات للأمير .... يحيى الطاهر عبد الله

4 - مجنون الورد .... محمد شكرى

5 - نجمة .... كاتب ياسين

6 - نهر المجرة .... عبد الوهاب البياتى

7 - السد .... محمود المسعدى

8 - بناية ماتيلد .... حسن داوود

9 - سرير لعزلة السنبلة .... محمد الأشعرى

10 - حجر الضحك .... هدى بركات

11 - سأهبك غزالة .... مالك حداد

12 - الخماسين .... غالب هلسا

13 - حزن فى ضوء القمر .... محمد الماغوط

14 - مختارات .... وديع سعادة

15 - سباق المسافات الطويلة .... عبد الرحمن منيف

16 - دعوا الشقاء سالماً .... عباس بيضون

17 - أف ! .... زكريا تامر

18 - مجنون الحكم .... سالم حميش

رقم الايداع : ٩٩/١٨٨٧

شركة الأمل للطباعة والنشر
ت : ٣٩٠٤٠٩٦

مجنون الحُكم

تماشيا مع رغبة الحاكم فى إحدى لحظات صفوه ونقده الذاتى النادرة ، نسجل أن رواية « مجنون الحكم » تأخذ على عاتقها الصدع بما يتناساه المؤرخ ويسكت عنه ، أى الصرخات المضمرة والتمزقات المستشرية والحقائق الحية

خوان غويتصولو

آفاق الكتابة

شركة الأمل للطباعة و النشر